

الحضارة الإسلامية
أسسها ومبادئها
الإيمان
بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر
تأليف
أبو الأعلى المودودي
تقديم : محمد عبد الحكيم خيال
دار الخلافة
للطباعة والنشر

الحضارة الإسلامية .. أسسها ومبادئها



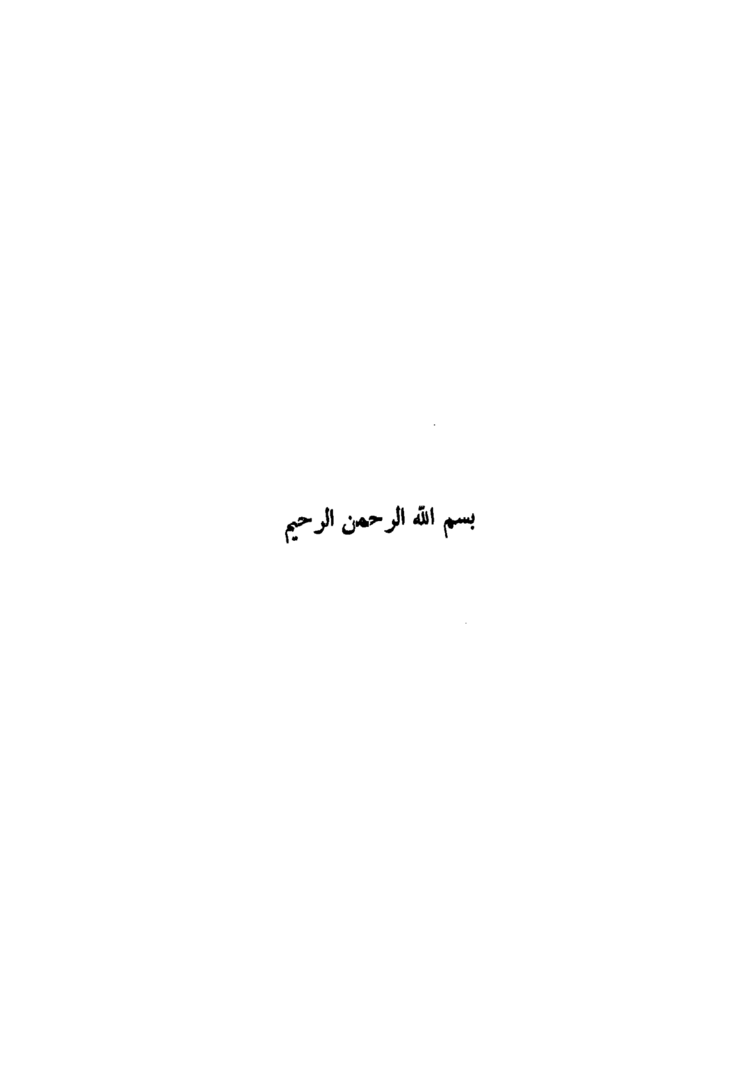
الإيمان

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر

أبو الأعلى المودودي

تقديم : محمد عبد الحكيم خيال

دار الخلافة
للطباعة والنشر



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم : محمد عبد الحكيم خيال

عقيدة المسلم

كتاب

والصراع العقائدى المعاصر

إن من أخطر ما يؤثر فى بناء شخصية المسلم ، ويدفعه إلى امر حاسم للعمل من أجل استئناف حياته الاسلامية من جديد ، وبناء حضارته على اسس الاسلام ومبادئه هو وضوح عقيدته لديه ، وشعوره بالثقة المطلقة بها وببساطتها ، بالشكل الذى يستطيع معه اقتحام معترك الصراع العقائدى الإنسانى المعاصر بكل ثبات واطمئنان ، وهو يحمل تصورات محددة . تجعله قادرا على مقارنتها بغيرها من العقائد والمذاهب بكل سرعة ويسر ، ودعوة الناس إليها ، وإقناع عقل وقلب كل إنسان شريف بها .. إقناعه بأنها الخير المحض ، والعلم الخالص ، والحاجة الملحة .

ولن يتيسر للانسان المسلم ذلك إلا إذا استشرف القرآن من جديد وجرد آياته من أغطيتها القديمة والحديثة .. من مباحث علم الكلام التى انحرفت بتأثير علوم اللاهوت فى الشرق والغرب ، ومن كل ما يسمى بمباحث «الفلسفة الاسلامية» .. ومعها أيضا ما يسمى بالفكر الاسلامى الحديث الملتاث بثقافات الغرب وحضارته الوثنية .

ولما كانت حضارة الاسلام حضارة فكرية ذات مبادىء ومناهج ، وكانت نمطا فريدا فذاً فى تاريخ البشرية كلها ، فهل فى ذلك ما يبرر إيمان أصحابها وثقتهم بالمستقبل وهل فى ذلك مايؤهل هذه الحضارة للهيمنة على المجتمع من جديد البشرى

حين يأذن الله ، لأن فى هذه الهيمنة تقدم البشر ورقيهم وحفز الهمم إلى كمال الابداع وشمول الخير ؟ !

فليس من الخير فى شىء أن نجيب عن هذه التساؤلات أو أن ندفع هذه الشكوك والريب بمجرد قولنا «إن الاسلام شرعة الله» ، لأن مثل هذا القول لا يرضى أحدا ممن لا يؤمنون بالقرآن ورسول القرآن ، وليس لهذه الحجة من وزن أو خطر عند من يشكون ويرتابون . بل إنه لمن الخير لنا وللناس جميعا ، إن كنا نؤمن حقا أن الاسلام دعوة فرض على المسلمين أن يجهروا بها ويعملوا لها ، أو نعتقد ان الاسلام لم يكن صفحة عابرة من صفحات الماضى طوى سجلها ، ولكنه نداء الله للبشرية فى مقبل أيامها وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. إنه لمن الخير أن نقيم الدليل على أن ما ندين به من عقيدة يستند إلى اساس عقلى سديد كما يرجع إلى تعلق عاطفى ناضج . كما أنه ان يجدينا نفعا اليوم ان نستنهض فى المسلمين إيمانهم بهذا الذى بين ايديهم من شكليات الاسلام ، إنما السبيل إلى استنهاض المسلمين بعث عقلى جديد ، ويقظة نفسية ونهضة روحية شاملة تقوم على اكتشاف أصول الاسلام واستشراف مناهجه من مصدريه الأساسيين ، كتاب الله وسنة رسوله ، والأخذ بهذه المناهج نفسها وما رسمته من أساليب وطرائق فى بناء الحياة .

الحضارة الاسلامية :

اسسها ومبادئها

والعقيدة التى قامت عليها الحضارة الاسلامية ، وهى الايمان بوجود الله ووحدانيته ، وأن لا سلطان بحق فى الكون غير سلطانه ، ولا قاهر غيره ، ولا مالك على الحقيقة غيره ، وكل ما وراء ذلك فهو مخلوق لله عز وجل يمنحه حيث يشاء ويسلبه عندما يشاء . هذا وقد خلق الله الانسان ليكون محور مخلوقاته كلها من حيث الرتبة والأهمية ، كما جعل الغاية من خلقه : أن يكون مظهرا لحكمته وعظمته وعدالته فى الأرض بما يلتزمه من منهج العبودية له تعالى ، والدار الآخرة هى محور الوجود كله فالدنيا بكل ما فيها ، بكل صورها

وأشكالها مقدمة بين يدى تلك الحياة الأبدية الأخرى . فلابد من بعث بعد الموت ليحاسب كل على ما كسب أو اكتسب ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .. لابد من بعث ليمنح المحسن جائزته ويلق المسىء جزاءه الأوفى ، وليقتص المالك العادل لكل مظلوم من كل ظالم ، وذلك حتى يستقيم الناس على منهج الحق .. فالله تعالى ما خلق الوجود باطلا وعبثا وما ترك الناس سدى يخبطون فى تيه الشهوات والأهواء بلا دليل تعمهم الفوضى والمظالم وتدور عليهم دورة الحياة والموت بلا غاية ولا نهاية بل جعل قدرهم أن يبتلوا فى الدنيا أيهم أحسن عملا ، ويذكر القرآن بأن الانسان وقد هبط إلى الأرض عرضة لفتنة الشر وإغراء الشيطان ، ولكن ربه يسعفه بالهدى يتنزل على لسان المرسلين تبيانا للتى هى أقوم فى شأن دنياه وآخرته .

التوحيد يستغرق كل جوانب الوجود والحياة

وعلى أساس هذه النظرة الواقعية الشاملة لعقائد الاسلام كما تحددها معانى القرآن .. نجد أن معنى الايمان يتغلغل حاكما كل وجود المسلم ، كما ينبغى ان يتمثل فى كل لحظة ولمحة من حياته ، فعقائد الاسلام تقوم على التوحيد الذى يستغرق كل جوانب الوجود والحياة ، فمهما كان قدر المسلم فى الحياة وحيثما وجد نفسه فى أحوالها وجب عليه أن يمارس دينه ، أن يعبد الله ، أن يحقق عقيدته ويزكيها متفاعلا مع واقع الوجود وناموسه ، ولئن كان من العبادة أشكال مفروضة ومسنونة أدعى لذكر الله فإنما ذلك هو الحد الأدنى الذى يضمن للانسان المسلم اصلا من التدين ، ثم تلتمس وجوه العبادة وراء ذلك من خلال مختلف أشكال الحياة وأعمالها . فإذا تكامل إيمان المرء وخلصت عبوديته لله سرت روح الدين فى حياته جميعا وانتظمت كل عمل من أعماله ..

— فتتجلى العقيدة فى المجال السياسى : إفرادا لله بالحاكمية ، ورفضا لحكم

الهوى والطاغوت ومخافة اليوم الآخر فى تصريف السلطة والولاية ، ومجاهدة لقوى الباطل فى سبيل الله .

– وتظهر العقيدة فى المجال الاقتصادى : إقرارا فى شأن المال بمالكية الله وخلافة البشر ، وتوجيهها للسعى فى الرزق نحو مقاصد العبادة وعزوفا عن العبودية للشهوة والمتاع وقيامها فى علاقات المعاش بمقتضى تقوى الله وطاعته .
– وتبدو العقيدة فى المجال العلمى : توحيدا لصريح العقل وصحيح النقل فى سبيل الازدياد من معرفة الله وكشف حقيقة الوحدة فى الكون : وحدة الاله المعبود ، ووحدة النظم والنواميس ووحدة المنشأ والمصير ، على أساس الايمان بهذه الوحدة يصبح العلم من أعظم و أجل الوسائل التى تتسع بها آفاق عبادة الله .

– بل تتمثل العقيدة فى كل وجوه الحياة وتتكشف العبادة كلما تشعبت تلك الوجوه . فإذا صح الايمان ووقر فى النفس فاض فى واقع الحياة حتى تصبح كلها مشهدا له يحققه ويصدقه ، واذا انتابته العلة انحسر عن بعض نواحيها حتى إذا غلب عليه الفساد أجدبت من مظاهره .

لا تناقضات فى حضارة الاسلام
والانســـان مستقر وايجابى

ولاشك أن للحضارة الاسلامية بكونها قائمة على أسس ربانيةخصائص تميزهاعن جملةالحضارات مهمااختلفت قديمة وحديثةأسماؤهاذلك أمريثبت للناظر أيا كان اعتقاده فى حق الاسلام – لكن أعظم تلك الخصائص ان الانسان الذى نشأ فى أجوائها كان مستقرا وإيجابيا ، فالمسلم لم يحس بأن علاقته مع أية جهة علاقة صراع ..

سواء أكانت هذه الجهة هى الله ، أم المجتمع ، أم الطبيعة .

فعلاقته مع الله علاقة خضوع واستسلام ، وعلاقته مع المجتمع علاقة تعاون وتعاضد ، وعلاقته مع الطبيعة علاقة تسخير .

وكذلك ما كان المسلم ليشعر بأن هناك تناقضا فى الحياة ، بل على العكس من ذلك : كان يحس بالعدل فى كل أمور الحياة ..

عقيدة المسلم .. والوثنيات الجديدة

ظل القرآن يغذى عقيدة التوحيد ، وظلت هذه العقيدة محورا للحضارة الاسلامية فى كل منجزاتها من علوم شرعية ودنيوية ، فلم يلتزم مجتمع بكتاب بمثل ما التزم المجتمع الاسلامى بالقرآن ، ولم يلق كتاب عناية مثل ما لقى القرآن إلى أن جاءت فترة ركن فيها الانسان المسلم وتبلد وبدأ دور العقيدة يضعف ، ويضعف اثره فى النفوس وتخف سيطرته على واقع المجتمع .. بدأ الناس ينفلتون منها ، وهى تبتعد عنهم ، إلى أن فقدوا جوهرها ولم يبق لهم منها إلا الأشكال والمراسيم . فالناس كما يقول - صاحب ظلال القرآن - قد «بعدوا عن القرآن ، وعن أسلوبه الخاص ، وعن الحياة فى ظلاله ، وعن ملابسة الأحداث والمقومات التى يشابه جوها الجو الذى تنزل فيه القرآن وملابسة هذه الأحداث والمقومات وتنسم جوها الواقعى هو وحدة الذى يجعل هذا القرآن مدركا وموحيا كذلك . فالقرآن لا يدركه حق أدراكه من يعيش خالى البالى من مكابدة الجهد والجهاد لاستئناف حياة إسلامية حقيقية .

وكان حتما أن تذبل شجرة الحضارة الاسلامية ، فقد ضعف فى النفوس الجذر الذى قامت عليه وجف النبع الذى كان يغذى هذا الجذر : القرآن والتوحيد .. وكان حتما أن تدخل الحضارة الاسلامية فى مرحلة الانحسار والضعف والجمود . وقد حدث ذلك فى رأى العلامة محمد المبارك «بسبب ما

طرأ من تغيير على المفاهيم الاسلامية الأساسية ، وانحراف عن الاتجاه الاسلامى الأصيل ، وتغيير فى سلم الأولويات كما رتبها الاسلام فى كتابه وسنته ، بحيث أصبح الاهتمام الكبير بالأمور الثانوية والاغفال الشديد للأمور التى اعتبرها الاسلام فى الدرجة الأولى من الأهمية . يضاف إلى هذا ما ادخل فى المحيط الاسلامى من أفكار خارجية أقحمت فى الاسلام مباشرة أو بطريق التأويل ، وما ابتدع فى مجال العقيدة والعبادات ، مما أخل بعقيدة التوحيد التى هى محور الاسلام وجوهره وسبب قوته .

إن هذه الانحرافات وما أدت إليه من نتائج الضعف والجمود والتخلف والانقسام والعصبيات المذهبية والمحلية بلغت قمتها فى القرون الأربعة الأخيرة وإن كانت بذورها قديمة وبداياتها ترجع إلى القرن الثالث للهجرة ولكنها ازدادت واشتدت بالتدريج .. حتى بلغت ما بلغت ثم كانت مرحلة الغـزو الأوربى «الوثنى» للأرض والمجتمع والحضارة فكان :

— الغزو العسكرى السياسى الاقتصادى المباشر وهو احتلال لـلأرض وتول للحكم واستيلاء على الثروة .

— والغزو الفكرى العقائدى الاجتماعى وهو احتلال للنفوس والعقول والعادات وحدث بالتدريج إذ تم بمراحل بدأت بشعور فريق من المسلمين بالنقص فى انفسهم وتشككهم فيما بين أيديهم من تراث ثم إعجابهم وفتنتهم بالغازى المستعمر ثم كان النقل والتقليد والاتباع التدريجى له (١) .

واقترنت هذه الحالة المؤسفة التى انحط إليها المسلمون بنظام مهترىء للتعليم ساعد على تركيزها واستمرارها .. لقد كانت طريقة التعليم فى الأزهر قائمة على الحفظ .. حفظ عدد من المتون فى عبارات مكثفة مبلورة مرصوصة ، اما المادة العلمية فكان علم التوحيد أو العقائد الاسلامية مزيجا من القضايا الفلسفية

(١) انتهى أمر هذه التبعية باقصاء المنهج الاسلامى عن الحياة كلية ، وحلت محله مناهج علمانية تستهدف اسقاط المسلمين أفرادا ومجتمعات فى الكفر.

والكلامية التى عرضت للمسلمين حين نقلوا الفلسفة اليونانية والمباحث اللاهوتية فى ثقافات الأمم المفتوحة.. كان علم التوحيد بشكله هذا عاجزا عن ان يبعث عقيدة القرآن قوية فى النفوس، لقد بلغت مأساته الذروة فيما أظهره احد العلماء من أسف على ما ضيعه من وقت فى تدريس مادته فى كلية اصول الدين بالأزهر وأنه كان يود لو تفرغ لتدريس التفسير أو الحديث(١). لقد بلغت المأساة الاسلامية ذروتها فى وعى المسلم .. نعم لقد كان الاستعمار مايزال يدق أجراس نصف الليل ولكن ساعة النوم والأشباح قد ولت فى العالم الاسلامى دون رجعة، فقد اجتاز المسلم حالة ضياعه وخدره وأدرك أنه عجز وأصابه الشلل فى كل جوانب حياته عندما ابتعد عن النبع الصافى لعقيدته .. إنها مأساة الحركة التى تستهدف التحرر من القيود والسكون وبلادة الحس ومأساة الفكر الذى يناضل ضد جموده وتشوشه وتنافره ومأساة الانسان الذى استيقظ ولكنه لا يعلم ما يجب عليه صنعه !

لذلك وجب أن ندرك المرحلة التى نمر بها وتمر بها البشرية فى عصرنا هذا... انها مرحلة وثنية جديدة لها طبيعتها وخصائصها .

إنه لم يعد يجدينا اليوم ونحن نحاول العودة إلى الإيمان أن نعود إليه عن طريق هذه المصادر وإنما الذى يجدينا كثيرا أن نأخذ العقيدة بوجهها الجامع وهى تتناول الحياة جمعاء ، فنكشف مقتضاها فى سيرة الفرد وأثره فى أحوال الجماعة ، ونقدر ما تحدثه فى حياة الانسان من تحول جليل . اما مسائل الايمان كما جاءت فى مصادرها الكلامية فيجب أن لانعول عليها كثيراً، فلم يعد هذا الخلاف فى مسائلها – كما صوره الامام البنا – بالذى يستحق ضجة بين الفرق ولا إعناتا للأمة .. فحاول فى رسالة «العقائد» أن يرأب هذا الصدع ويهون من شأن الخلاف الذى فرق الأمة فقال رحمه الله فى مسألة الذات والصفات وهى من المسائل التى فرقت الأمة إلى أحزاب : حزب للسلف وأحزاب للخلف ..

(١) د . يحيى هاشم : نشأة الآراء والمذاهب الكلامية

فقال انها «لا تستدعى هذا النزاع الطويل بينهم وبين غيرهم قديما وحديثا ، وصدر الاسلام أوسع من هذا كله ، وقد لجأ أشد الناس تمسكا برأى السلف رضوان الله عليهم ، إلى التأويل فى عدة مواطن ، وهو الامام احمد بن حنبل رضى الله عنه» .

ان ظروف فكرنا الحاضر ادعى إلى نظرة جامعة فى العقيدة تأخذ من معانى القرآن الخالد الذى لا تنفذ عجائبه، فجاء فكر الحركة الاسلامية محاولة فذة فى هذا المضمار ، حيث وجهت نظر المسلم فى عصرنا الحاضر إلى أخصب طريق يكتشف فيه إيمانه . وجاءت من هذا المنطلق كتابات محمد الغزالى وسيد قطب ويوسف القرضاوى وغيرهم من تلاميذ الامام البنا تستكمل بناء الفكر الاسلامى الخالص كما وضع أسسه هذا الامام الجليل من خلال مكابدته وجهده وجهاده لاستئناف حياة اسلامية .

وإذا استشرفنا القرآن من جديد لوجدنا أن «الواقعية» هى أساس عقيدته ، ذلك أن عقيدة القرآن لا ترضى لنفسها أن تظل حبيسة المشاعر والوجدان منفصلة عن الحياة معتزلة واقع المجتمع ، كما أنها لا ترضى التعبير عن نفسها تعبيراً هزيلا فى مجموعة من «الأخلاقيات النظرية» أو بفتح حوار حول تلك القضايا الجدلية الى ليس من كمال العبودية لله أن نخوض فيها ...

وبعـــد :

يجىء هذا الكتاب الرائد للعلامة المودودى (رحمه الله) ليعرض مقومات العقيدة الإسلامية ملتزماً بالمنهج القرآنى الذى يربط العقيدة بالحياة ، فيبين بادىء ذى بدء معنى الحضارة وما تتكون منه مؤكداً زيف النظريات الغربية السائدة فى معنى الحضارة ، إذ تحصر معنى الحضارة فى التقدم العلمى والمادى وتهدر إنسانية الإنسان والقيم الإنسانية العليا ...

فالحضارة الحقيقية – فى التصور الإسلامى – هى انتصار المبادىء وانتصار القيم الإنسانية العليا ، والمتقدمون المتحضرون هم المطبقون للحق حرفاً حرفاً وعملا عملا .. إنه حين يصل الإنسان إلى وضع كل سلوك بشرى موضعه الصحيح من الكون والحياة على أساس المنهج الربانى ، فقد بدأ يتقدم ويتحضر ، وما ذلك إلا لأن العقيدة هى التى تحكم المادة وتفسر حركة الحياة ، وهى نفسها التى تحكم الأخلاق ، وأخلاق الناس هى التى تصنع أزياءهم وبيوتهم ومعاملاتهم ، بل هى التى تصنع كل منطلقاتهم العلمية والعملية ...

إن تصورات الحضارة الغربية للكون والحياة والإنسان قد حددت غاية الحياة وصبغتها بصبغة مادية مسعورة ، فأعطت للرجل الأبيض حق الاستعمار والعدوان ، وأعطت للساسة مبررات الغدر والنفاق ، فأصبح العالم فى ظل هذه التصورات المنحرفة غابة تسودها شريعة المخلب والناب ، وأصبحت الحياة شهوة عارمة لا ترتوى ، وجوعة فى الأرواح وشقاء فى الأنفس لا تعرف سكينة ولا طمأنينة ولا قراراً.. لقد استطاعت حضارة الغرب أن تحقق للبشرية تقدما ماديا لاشك فيه : إنتاجاً فى المصانع ومتاعاً فى الحياة ، ولكنها عجزت عن توفير السكينة للنفوس أو إشاعة الود والرحمة فى الأسرة أو فشاء التعاطف والتكافل فى المجتمع .

والذين تبهرهم مظاهر الترف والتقدم فى الغرب ، إنما ينظرون إلى زينة الحياة الدنيا «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» (١).. هؤلاء لا ينظرون إلا إلى مظاهر الحياة دون جوهرها ، لا يسبرون غورها ولا ما تضطرم به النفوس يبصرون الشقاء والتعاسة الروحية التى تعانيها المجتمعات الحديثة ، ولا يرون

---

(١) سورة الروم : ٧

أن أغنى الأمم فى الغرب وأعلاها مستوى فى العيش والحصول على ملذات الحياة هى أكثر بلاد الدنيا تعاسة وشقاء ، ففيها أكبر نسبة فى أمراض الصرع والجنون وأعلى نسبة فى تعاطى المخدرات ، وأضخم نسبة فى انحرافات الشباب والأمراض الجنسية وحوادث الانتحار ...

– عناصر الحضارة :

وبعد أن ينتهى الإمام المودودى من بيان معنى الحضارة الحقيقية يمضى فى بيان عناصرها ، فيرى أنها تتقوم من :

١ – تصور الحياة الدنيا ٢ – غاية الحياة ٣ – العقائد والأفكار الأساسية ٤ – النظام التربوى (تربية الأفراد) ٥ – النظام الإجتماعى .

ويجعل من العناصر الثلاثة الأولى فقط موضوعاً لكتابة هذا ، فيقرر أن الله تعالى قد جعل الحياة ليستمتع بها الإنسان ويستفيد منها قدر طاقته وفى حدود شريعته ، كما أن الإنسان خليفة عن الله فى أرضه وعليه دائماً وأبداً أن يرضى مستخلفه ولا يخرج عن عهده ومنهجه بعصيان .. كما يقرر أن مرضاة الله هى غاية الحضارة الإسلامية من الحياة وتتجلى فى عدة خصائص أهمها : التوافق والتجاوب بين الفكر والعمل ، ووحدة الجماعة الإسلامية التى هى أكبر حافز على أعمال البر والتقوى .

– العقائد والأفكار الأساسية :

١ – الإيمان بالله : ويقرر العلامة المودودى أن الحضارة الإسلامية جعلت من«الإيمان» ركيزتها التى تقوم عليها ، ثم يمضى فى بيان «أركان الإيمان»

كما تحددت فى حديث جبريل عليه السلام ، وهى : الإيمان بالله .. وملائكته .. وكتبه .. ورسله .. واليوم الآخر .

وبتحليله لهذه الأركان ركنا ركنا : يذكر أن الإيمان بالله هو القاعدة الأولى والركن الأساسى فى بناء الإيمان ، كما أن للإيمان آثاره المعنوية ، إذ يمنح المؤمنين : السعة فى النظر .. والاستعلاء على الباطل والأنفة وعزة النفس والخشوع والتذلل والتواضع لله .. والأمل والرجاء وطمأنينة القلب .. والصبر والتوكل .. والشجاعة والجرأة .. والقناعة والاستغناء عن الخلق..وإصلاح الأخلاق وتنظيم الأعمال .

٢ — الإيمان بالملائكة : وهو متمم للإيمان بالله وجزء لا يتجزأ الأيمان بالله منه ، فعلى الإنسان أن يؤمن بوجودهم وبمنزلتهم فى نظام الكون ، وأنهم هم الذين ينزلون بالوحى ويقومون بتبليغ أوامر الله لعباده ، كما أن عليه أن يؤمن بأن للملائكة منزلة أخرى ، هى أنهم فى طاعة الله أبداً لا يعصونه أبداً ...

٣ — الإيمان بالرسل : ويجب أن يتوج باتباعهم وطاعتهم ، ويقرر العلامة المودودى حقيقة الرسالة ، وهى هداية الناس ، ثم يبين مزايا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، باعتبار أنها خاتمة الدعوات ، وأن عقيدتها من أركان الإيمان لبقاء الإسلام وحضارته العالمية وسر استحكامها فى النفوس وسر خلودها وانتشارها العام .

٤ — الإيمان بالكتب المنزلة : وبعد أن بين معنى الكتاب فى الإسلام مضى ليبين العلاقة الحيويه بين الكتاب والرسول ، ثم يؤكد على أن من الواجب على الإنسان أن يؤمن بالكتب السماوية كلها ، ولكن عليه بطاعة واتباع القرآن وحده .

إن الإيمان بكتاب واحد ورسول واحد وإفراغ العقليات والأفهام كلها

فى قالبه وحده ، وأخذ العقائد والعبادات والأخلاق والأعمال والقوانين المدنية كلها من مصدره فحسب ، وانخراط أتباع الإسلام كلهم فى سلكه فحسب ... كل ذلك يجعل من الإسلام حضارة عالمية خالدة ، ويجعل من المسلمين كلهم أمة واحدة رغم ما بينهم من الامتيازات والفوارق القائمة على أساس اللون أو المولد أو اللغة أو الحدود الجغرافية ... وهذا هو الحجر الأساسى للجامعة الإسلامية .

٥ – الإيمان باليوم الآخر : وفى هذا الفصل من الكتاب يشرح المؤلف الكريم معنى الإيمان باليوم الآخر ، ثم يذكر آثار ونتائج الاعتقاد به،وتأثير الآخرة فى الأخلاق وحاجة الإنسان إلى يوم الحساب وعقيدة اليوم الآخر .

– أهمية الإيمان فى بناء الحضارة الإسلامية :

وإذا كان الإنسان المسلم هو الذى يقوم على كواهله بناء الحضارة الإسلامية فيجب عليه :

١ – أن ينال معرفة صحيحة بالله .

٢ – أن لا يرى فى أحد غير الله آمراً ولا ناهياً ولا حاكماً ولا مطاعاً ، وأن يجعل حريته تبعاً لأحكام الله .

٣ – أن يتعرف على الطرق والوسائل التى يستطيع بها أن ينال مرضاته.

٤ – أن يتعرف على ثمرات مرضاة الله وعواقب عصيانه حتى لا يغتر بالنتائج الناقصة الظاهرة لأعماله وأقواله فى هذه الحياة الدنيا .

ويختم الإمام المودودى بحثه ببيان الرسم التخطيطى للحضارة الإسلامية وميزانها وآفاقها ، ويقول : (والذى قد اتضح بهذا البيان أن أركان الإيمان

الخمسة فى الإسلام لا تؤسس الحضارة ولا تشكلها إلا على عين الخطوط التى كانت قد رسمتها تلك الفكرة الخاصة لمنزلة الإنسان فى هذه الدنيا ، وتلك الغاية الخاصة لحياته فيها ، كما أنه قد اتضح بهذا البيان أن العقيدة الأساسية التى تحتاج إليها مثل هذه الحضارة عقلا لا يمكن أن تشتمل إلا على هذه الأمور الخمسة ، ومن المحال أن تصلح أية عقيدة سواها لتكون أساساً صحيحاً لمثل هذه الحضارة ، إذ أن أية عقيدة أخرى لا تتفق مع تلك الفكرة الخاصة ومع تلك الغاية الخاصة) .

.... (ولكل هذا دلالة واضحة على أن الإيمان الصحيح الخالص لا غنى عنه لنظام الإسلام فى قيامه وبقائه وتمكنه ، لأن ضعف الإيمان يجعل هذا النظام نخراً من أصله إلى آخر فرع من فروعه ولا يسلم من آثاره الخطيرة لا الأخلاق ولا الاجتماع ولا المدنية ولا الحضارة ولا السياسة ولا أى شىء سواها) .

محمد عبد الحكيم خيال

الحضارة الإسلامية

أسسها ومبادئها



تأليف أبو الأعلى المودودي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبي بعده

وبعد، فهذا كتاب ألفه الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي قبل ثلاثين سنة ثم نشره تباعاً في مجلته «ترجمان القرآن» الشهرية .

وقد ظهرت منه باللغة الاردية حتى الآن ثلاث طبعات وهانحن أولاء ننشره الآن باللغة العربية لأول مرة، والمأمول أن يعقبه — حسب الترتيب — كتابان له آخران هما «خطب أيام الجمعة» و «نظرة إجمالية في العبادات الإسلامية» .

والله نسأل أن يتقبل منا هذه الجهود المتواضعة لخدمة دينه وينفع بها عباده ، إنه سميع عليم .

كتبه

محمد عاصم الحداد

مُقدمة المؤلف

من الفكرة التي عليها عامة كتاب الغرب ، والتي قد تبناها محاكاة لهم واتباعاً لخطواتهم عدد عظيم من أصحاب العلم في الشرق ، أن الحضارة الإسلامية مقتبسة من الحضارات القائمة في العالم قبلها ولا سيما حضارتا اليونان والروم ، وأنها ما ظهرت بصورة حضارة مستقلة إلا لأن العقلية العربية قد بدلت الصورة الظاهرة لكل هذه المواد بتركيبها على أسلوب جديد . وهذه هي الفكرة التي قد جعلتهم هذه الأيام يبحثون عن عناصر الحضارة الإسلامية في الحضارات القديمة من فارسية وبابلية وسريانية وفينيقية ويونانية ورومية ، ثم يحاولون أن يكتشفوا في الخصائص العربية عن ذلك العامل الفكري الذي استخرج من هذه الحضارات ما يوافقه من الثروة والمواد ثم جعل لها ترتيباً على حسب أسلوبه .

أغلوطة

وهذه في الحقيقة أغلوطة كبيرة ، لست من الذين ينكرون الحقيقة القائلة : بأن حاضر الإنسان في كل زمان يتأثر بماضيه وأن كل إنشاء جديد يستعان فيه بمواد الإنشاءات القديمة ، إلا أن الذي أحب تقريره

مــع كل هذا أن الحضارة الإسلامية في ذاتها وجوهرها إسلامية خالصة لا دخل فيها لأثر مؤثر غير إسلامي ، على أنه قد دخلت في بعض أمورها العرضية آثار للعقلية العربية والتقاليد العربية وما قبلها وما بعدها من الحضارات الأخرى .

ألا ترى أن البناء إنما يقال له البناء لأمرين اثنين : أولهما رسمه وأسلوبه المخصوص للإنشاء والتعمير وغايته وملاءمته لهذه الغاية مما هو أصله وأساسه . وثانيهما لونه ونقوشه وزينته وزخرفه . مـمـا هو شيء فرعي أو جزئي .

أما بخصوص الأصل والأساس فما صَرْحُ الحضارة الإسلامية بجملته إلا نتيجة لإنشاء الإسلام ذاته ، وما وسمها إلا مما قد عمله الإسلام دون أن يستعين فيه برسم غيره . وما أسلوبها للإنشاء والتعمير إلا مما قد ابتدعه الإسلام دون أن يحاكي فيه أي نموذج آخر في الدنيا وما غايتها إلا غاية مبتكرة لم يؤسس لها بناء آخر في العالم من قبل ولا من بعد . وهي بعد كل هذا ماأنشئت إلا على أسلوب هو أوفق الأساليب الممكنة لتحقيق هذه الغاية ، فكل ما قد أنشأته لتحقيق هذه الغاية ، لايقدر على تعديله ، ولا على زيادة شيء فيه أي مهندس أجنبي .

وأمـــا الفروع والجزئيات فالإسلام ما استفـــاد من الأجانب فيها إلا قليلاً . مما يزكي لنا القول : بأن ليست هذه الفروع والجزئيات هي الأخرى إلا خالصة للإسلام ذاته إلى حد عظيم . بيد أن المسلمين قد أضافوا إليها ألواناً ونقوشاً جديدة وأدوات للزينة والزخرف غريبة بأخذها من غيرهم وهي التي ظنها الناظرون بالغة من الظهور والارتفاع حيث جعلوا لها حكم البناء كله .

معنى الحضارة ومفهومها

ولتسوية هذا البحث لا بد أن نعمل قبل كل شيء على تسوية سؤال آخر هو : ما الحضارة ؟

يظن الناس أن حضارة أيّة أمة عبارة عن علومها وآدابها وفنونها الجميلة وصنائعها وبدائعها وأطوارها للحياة المدنية والاجتماعية وأسلوبها للحياة السياسية ، ولكن الحقيقة أن ليست كل هذه الأمور بالحضارة ذاتها وإنما هي نتائج الحضارة ومظاهرها ، وما هي بأصل للحضارة وإنما هي أوراق شجرة الحضارة وثمارها . . . إذا صح هذا فلايجوز أن نحدد وزن حضارة وقدرها وقيمتها على أساس ما لها من هذه الصور الظاهرة والملابس العارضة ، وإنما علينا أن نتوصل إلى روحها ونتحسس أساس أصولها ، صارفين النظر عن كل هذه الصور الظاهرة والملابس العارضة .

عناصر وتركيب الحضارة

من هذه الوجهة فإن أول شيء يجب أن نبحث عنه ونتعرف عليه في حضارة ما ، هو : هو ما تصورها للحياة الدنيا ؟ وما هي المنزلة التي تنزلها الانسان في هذه الدنيا ؟ وما الدنيا في نظرها ؟ وما علاقة الإنسان بهذه الدنيا ؟ وان الإنسان إذا كان له أن ينتفع بهذه الدنيا فعلى أي وجه ؟ .

وهذا السؤال عن تصور الحياة على درجة من الأهمية لها تأثير بالغ

عميق في كل أعمال الإنسان وبتغير هـذا التصور تتبدل نوعية الحضارة رأساً على عقب .

والسؤال الثاني الذي له علاقة وثيقة بتصور الحياة هو عن غاية الحياة . . . ما غايـة حياة الإنسان في هذه الدنيا ؟ ولأي غرض ياترى كل هذا النضال والصراع وهذا الجهد والكدح والتعب ؟ وما هو الشيء المنشود الذي على الإنسان أن يطمح إليه ببصره ؟ وما الهدف الذي على الإنسان أن يوجه إليه جملة مساعيه ؟ وما النهاية التي على الإنسان أن لا يغفل عنها طرفـة عين في كـل عمل من أعماله وفي كل لحظة من لحظات حياته ؟ . . . وهذا السؤال عن غاية الحياة هو الذي يعين وجهة حياة الإنسان العملية وسيرها ، وعلى ضوئه يسلك الإنسان ما يسلك في حياته من طرق للعمل ووسائل للتوفيق والنجاح .

والسؤال الثالث هو : ما الأفكار والعقائد الأساسية التي تؤسس عليها الحضارة تحت البحث سيرة الإنسان وسلوكه في هـذه الدنيا ؟ ومـا القالب الذي تفرغ فيه عقليته ؟ وما الآراء والمشاعر والأحاسيس التي تلقيهـا في روعه وترسخها في ذهنه ؟ ومـا هي الحوافز والمحركات التي تحوزها في نفسها لتحريض الإنسان على اختيار لون مخصوص لحياته العملية وفقاً لغايتها ؟ . . . وغني عن البحث أن قوى الإنسان العملية تابعة لقواه الفكرية وأن الروح التي تحرك جوارحه إنما تأتي من قلبه وذهنه ، فالحقيقة أن قواه العملية لا تتحرك إلا منفعلة بالعقيدة أو الفكرة الأساسية المستولية عـلى قلبه

وذهنه ، ولا تنشأ فيه العواطف والنزوات والأحاسيس والدواعي إلا وفقاً للقالب المفرغ فيه ذهنه ولا تعمل أعضاؤه وجوارحه إلا اتباعاً لهذه العواطف والنزوات والأحاسيس والدواعي ونزولاً على حكمها . فالمحال على أية حضارة في الدنيا أن تحافظ على كيانها بغير عقيدة أو فكرة أساسية . بناء على هذا اننا إذا أردنا أن نتعرف على وزن وقيمة أيّة حضارة في الدنيا فإن التعرف على عقيدتها أو فكرتها الأساسية هذه والاختبار لحسنها وقبحها لازم لا مندوحة عنه ، مثل أننا إذا أردنا أن نتعرف على تماسك بناء وقوته على البقاء فإنه لا بد لنا بحال أن نعرف أين تبلغ أسسه وأركانه من التأصل والتعمق .

والسؤال الرابع : من أي نوع تجعل هذه الحضارة الإنسان من حيث هو إنسان ؟ أي ما هي التربية المعنوية التي تحلى بها الإنسان استعداداً لقضاء حياته ناجحاً سعيداً ، وفقاً لفكرتها ؟ وما هي الخصال والأوصاف والخصائص النفسية التي تحاول أن تنشئ عليها الإنسان وتعمر بها قلبه وذهنه ؟ ومن أي نوع يجد الإنسان نفسه ويجده غيره من الناس حين يبرز إليهم متحلياً بتربيتها المعنوية المخصوصة هذه ؟... لا شك أن إنشاء النظام الاجتماعي وتهذيبه هو الذي ترى فيه الحضارة غاية لها أساسية ، إلا أن الأفراد هم تلك الأحجار أو الآجر التي بها تشيد كل جماعة صرحها وإنما الذي يتوقف عليه تماسك صرحها هو أن يكون كل حجر من أحجاره مهذباً صقيلاً وتكون كل آجرة من آجره مشوية تماماً ، ولا تكون بموضع منه خشبة نخرة ولا تكون قد استعملت في ناحية منه مادة رديئة فاسدة .

والسؤال الخامس : كيف وعلى أي أساس قد أقامت هذه الحضارة علاقة الإنسان بالإنسان على اعتبار مختلف مواقفه في الحياة ؟ وعلى أي نحو قد أسست علاقاته بأسرته وبجيرانه وبأصدقائه وبزملائه في العمل والعشرة؟ وبمن هو تحته أو فوقه؟ وباتباع حضارته هذه وبغير اتباعها ؟ وما هي الحقوق التي قد جعلت له على غيره ولغيره عليه ؟ وهي إن كانت قد جعلت له الحرية فإلى أي حد وإن كانت قد جعلت عليه القيود فإلى أي حد ؟ . . . وهذا السؤال متضمن بطبيعة الحال لكل ما يتعلق بالأخلاق والاجتماع والقانون والسياسة والعلاقات الدولية من المشاكل والقضايا ، وبه من الممكن أن يُعلَم على أي أسلوب تنظم الحضارة تحت البحث شؤون الأسرة والمجتمع والحكومة ؟

والذي يستفاد من هذا البحث أن ما يُعبّر عنه بكلمة «الحضارة» يتكون من العناصر الخمسة التالية :

١ — تصور الحياة الدنيا

٢ — غاية الحياة

٣ — العقائد والأفكار الأساسية

٤ — تربية الأفراد

٥ — النظام الاجتماعي

ومامن حضارة في الدنيا إلا وقد تكونت من هذه العناصر الخمسة ليس غير ، وعلى هذا ما تكونت الحضارة الإسلامية إلا منها . وإني في هـذا الكتاب قـد استعرضت العناصر الثلاثة الأولى للحضارة

الإسلامية لأبين ما هو تصور هذه الحضارة للحياة، وما هي غاية الحياة عندها، وما هي العقائد والأفكار التي قد وضع عليها أساسها وشيد عليها صرحها، وكيف أن هذه العقائد والأفكار الأساسية قد جعلت لها صورة مستقلة ممتازة عن صورة أية حضارة أخرى في العالم؟ أما العنصران الأخيران فلم أتناولهما بالكلام في هذا الكتاب، فللقارئ أن يقرأ بعد هذا الكتاب كتابيّ «نظرة إجمالية في العبادات الإسلامية» و«خطب أيام الجمعة» (من الخطبة الـ٢٠ إلى الخطبة الـ٢٨)[1] وهما حول موضوع «تربية الأفراد» أما موضوع «النظام الاجتماعي» فعسى أن تجد صورة له إجمالية في أحاديثي بالإذاعة الباكستانية وقد نقلت إلى العربية وتخلت بالطبع بصورة رسالة مستقلة قبل هذا الكتاب باسم «نظام الحياة في الإسلام»

---

(١) تحت الطبع .

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

التصور الإسلامي للحياة الدنيا

ما زال الإنسان منذ وجد على وجه الكرة الأرضية ، ولا يزال حتى اليوم ، مأخوذاً بسوء الفهم عن نفسه يميل إلى جانب الإفراط حيناً فيرى أنه أكبر وأعظم كائن في العالم ، يمتلىء أنانية وغطرسة وكبرياء ، ولا يرضى بأن يرى أية قوة أخرى في العالم نداً لنفسه فضلاً عن أن يراها فوقه ، وهناك ينادي « من أشدمنا قوة » و (أنا رَبّكُمُ الأعلى) ، ويربأ بنفسه أن يعتقد أنه مسؤول أمام أحد وأن عليه نوعاً من التبعة ، ويتحول إلى إله للقهر والجبروت والبطش والظلم والشر والطغيان . ويميل إلى جانب التفريط حيناً آخر فيظن أنه أدنى وأرذل كائن في العالم فيطأطئ رأسه أمام كل شجر أو حجر أو نهر أو جبل أو حيوان ولا يرى لنفسه السلامة إلا في أن يسجد للشمس والقمر والنجوم والهواء والنار والبرق والغمام وما إليها من الموجودات التي يرى فيها شيئاً من القوة أو القدرة على ضرره أو نفعه ، بل طالما يتخذ

إلهه أناساً من أمثاله عندما يرى فيهم نوعاً من القوة والجبروت والغلبة ولا يتحرج في عبادتهم وعبوديتهم .

حقيقة الانسان

أمـا الإسلام ، فهو يبطل هذين التصورين المتطرفين ويعرف الإنسان على حقيقة أمره . وفي ذلك يقول :

(فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ خُلِقَ من ماءٍ دَافِقٍ يَخرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ) . [الطارق : ٥ ـ ٧] .

(أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِن نُطْفَةٍ فإذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وضَرَبَ لَنَا مَثَلا ونَسِيَ خَلقَهُ) . [يس : ٧٧] .

(وبَدَأَ خَلْقَ الإنْسَانَ مِن طينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِن مَاءٍ مَهِينٍ . ثُم سَوَّاهُ ونَفَخَ فِيهِ مِن رُوحِهِ) . [السجدة : ٧، ٩]

(فَإِنَّا خَلَقْناكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثم مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُم ونُقِرُّ فِي الأَرحامِ مانَشاءُ إلى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخرِجُكُم طِفْلاً ثمَّ لِتَبلُغُوا أَشُدَّكُم ومِنْكُم مَن يُتَوَفَّى ومِنْكُم مَن يُرَدُّ إلى أَرذَلِ الْعُمرِ لِكَيلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلمٍ شَيئاً .) . [الحج : ٥]

(يا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ماشاء ركبك) [الإنفطار ٦].

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) [النحل: ٧٨]

(أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون. أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون. أفرأيتم الماء الذي تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون أفرأيتم النار التي تورون. أأنتم أنشاتم شجرتها أم نحن المنشؤون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين. فسبح باسم ربك العظيم) [الواقعة: ٥٨ - ٧٤]

(وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا. أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلا. أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا علينا به تبيعا). [الإسراء: ٦٧، ٦٩].

ففي كل هذه الآيات تنديد وأيما تنديد بغطرسة الإنسان و كبريائه وشموخه وقد استلفت فيها نظره إلى حقيقة قطرة من ماء نجس حقير تتغذى في رحم الأم بأنواع من النجاسة . فتتحول إلى علقة ثم إلى مضغة . ثم إن الله سبحانه وتعالى بمحض قدرته وإرادته ينفخ فيها الروح ويخلق فيها الحواس ويسلحها بكل القوى والآلات التي يحتاج إليها الإنسان في حياته الدنيا . فهكذا يخرج إلى نور الحياة . ثم أنت أيها الإنسان الغرير ، لا تكون في بدء أمرك إلا طفلاً ضعيفاً عاجزاً لا تملك من أمرك شيئاً ، لا تقدر على سد حاجة من حاجاتك . فالله سبحانه وتعالى هو الذي بعظيم قدرته وكمال حكمته يكفل لك أسباب العيش والنشأة ، فتنشأ وتقوى حتى تبلـــغ سن الشـــباب . ثم إن الانحطاط يدب دبيبه إلى ما فيك من القوى فتخطو من الشباب إلى الهرم حتى تعتريك نفس الكيفية من الضعف والعجز التي كنت عليها أيام طفولتك . فتضمحل حواسك وتضعف قواك وترد إلى أرذل العمر حيث يكون علمك نسياً منسيا وأخيراً ينطفئ سراج حياتك وتفضي إلى القبر معرضاً – شئت أو لم تشأ – عن أموالك وأولادك وأقربائك وأحبائك ، وإنك في طول هذه الفترة الوجيزة – من صباك إلى شيخوختك غير قادر على أن تمسك على نفسك الحياة ولو للحظة واحدة ، وإنما هناك في هذا العالم قوة أخرى هي فوق قوتك وهي التي تمنحك الحياة إلى متى تشاء وتسلبك إياها متى تحب ، ثم إنك لا تكون من بدء حياتك إلى آخرها إلا مقيداً بقوانين الفطرة لا تتحرك عنها ولا تستطيع أن تخرج عليها ولو قيد شعرة . وإنك غير قادر على أي شيء من الماء أو الهواء أو النور أو الحرارة

أو النباتات أو غيرها من الأسباب الطبيعية التي تتوقف عليها حياتك في بقائها ، بل إن هذه الأسباب الطبيعية إذا عتت عليك وأبت أن تطاوعك ، فإنك لا تجد نفسك إزاءها إلا عاجزاً حيث أن تياراً جارفاً من الريح يقلب عليك قراك وأن فيضاناً عاتياً من الماء يغرقك ويودي بحياتك ، وأن هزة عنيفة من الزلزلة تلصق أبنيتك الشاهقة بالأرض وتحولها إلى أكوام من التراب . إنك مهما كنت متسلحاً به من الآلات ، ومهما كنت قد اخترعت من التدابير والحيل بعلمك الذي ليس في حد ذاته مما قد خلقته بنفسك ، ومهما كنت قد أعددت من الأموال والأمتعة والأسباب بعقلك الذي ليس مما قد نلته بنفسك ، فإن كل هذه لا تغني عنك شيئاً إزاء قوى القدرة الإلهية . فهذه هي الآلات والتدابير والأموال التي على أساسها تستكبر في الأرض وتمتلئ شموخاً وأبهة وغطرسة وتصعر خدك لكل قوة في العالم وتقوم مقام الفرعونية والنمرودية ، بل تخرج على الله خالقك ولا تبالي بأحكامه وترغم عبـــاده على عبوديتك وتعثو في الأرض جوراً وفساداً

منزلة الانسان في الكون :

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن الإسلام يبين للنوع البشري أنه ليس من الذلة والمهانة والابتذال حيث يحسب نفسه . وفي ذلك يقول :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَـــا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ ﴾ [الحج : ٦٥] .

فقد قيل للإنسان في هذه الآيات . إنه ما من شيء في السماوات والأرض إلا وهو مسخر لمائدتك ومتاعك ، خدمتك فما هذه الأشجار والأنهار والبحار والدواب ولا هذا الليل والنهار والظلام والنور ولا هذا القمر ولاهذه الشمس والنجوم و . . . التي تراها ماثلة أمام ناطق بك إلا لتقوم بواجب خدمتك وتجهد نفسها لنفعك وراحتك وإن لك عليها فضلاً فهي لك بمنزلة الخادم وأنت لها بمنزلة السيد المطاع فما لك إذاً لا تربأ بنفسك عن أن تطأطئ لها رأسك ، وتراها قاضية لحاجاتك ، وتمد إليها يدك بالاستجداء والاستمداد؟ وتوحش مهاوي نفسك الخوف والهلع ، وتنخنى لعظمتها وكبريائها ؟ . . . واعلم أنك هكذا لا تذل إلا نفسك ولا تنال إلا من شرفك وكرامتك ولا تحط إلا من مقامك ومنزلتك ، ولا تجعل نفسك إلا في عداد خدام هؤلاء الخدم وفي عبيد هؤلاء العبيد

الإنسان خليفة الله في أرضه

فالإنسان، إذا هو واضح مما قدمنا ذكرنا ، ليس من علو المكانة وارتفاع المنزلة حيث يحسب نفسه عندما يميل إلى جانب الإفراط ولا هو من الدناءة والمهانة والرذالة حيث يضع نفسه عندما يميل إلى جانب التفريط فما هي منزلته الحقيقية في هذا الكون إذاً؟ يقول الإسلام مجيباً على هذا السؤال

(وإذْ قالَ ربُّكَ للملائكةِ إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً . قالوا أتجعلُ فيها مَنْ يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماءَ ونحنُ نسبّحُ بحمدِكَ ونُقدّسُ لكَ قالَ إنّي أعلمُ ما لا تعلمونَ وعلّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها ثمّ عرضَهم على الملائكةِ فقالَ أنبئوني بأسماءِ

هٰؤلاءِ إنْ كُنتُم صَادِقينَ . قالُوا سُبحانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ، إنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ . قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمائِهِم ، فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسمَائِهِم قَالَ أَلَم أَقُل لَكُم إنِي أَعْلَمُ غَيبَ السَّمٰواتِ والأَرضِ وأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ومَا كُنتُم تَكْتُمُونَ . وإذ قُلنَا لِلمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَم فَسَجَدُوا إلاَّ إبلِيس ، أَبى واسْتَكْبَرَ وكان مِنَ الْكَافِرِينَ . وقُلنَا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وزَوجُكَ الجَنَّة وكُلا مِنها رَغدًا حَيثُ شِئتُمَا ولا تَقْرَبا هٰذِه الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِن الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطانُ عَنْهَا فأَخْرَجهُما مِمَّا كَانا فِيهِ) . [البقرة : ٣٠ ، ٣٦] .

(وإذْ قَالَ رَبُّكَ للمَلائِكَةِ إنِّي خالِقٌ بَشَرًا مِن صَلصَالٍ مِن حَمَإٍ مَسْنُونٍ . فَسَجَدَ الملائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ، إلاَّ إبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُون مع السَّاجِدِينَ . قال ياإبْلِيسُ مالَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِين ؟ قالَ لَم أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِن حمإٍ مَسْنُون . قالَ فَاَخرُج مِنها فإنَّكَ رَجِيمٌ) [الحجر : ٢٨]

وهذه الحقيقة عينها قد جاء بيانها في غير موضع واحد من آيات القرآن الكريم ، وخلاصتها أن الله تبارك وتعالى قد جعل الإنسان خليفته ، أي : نائباً عنه . في أرضه وأعطاه من العلم مالم يعطه الملائكة وجعل لعلمه فضيلة على تسبيح الملائكة وتقديسهم إذ أمرهم بأن

يسجدوا له فسجدوا ، وهكذا كأن الملكوتية خرت لـــه ساجدة واعترفت بعلوه وفضله على نفسها ، إلا ابليس فإنه استكبر بنفسه وأبى أن يسجد له ، وهكذا كأن القوى الشيطانية أبت أن تطأطئ رأســـها للإنســـان وعلمـــه . إن الإنسان ما كـــان في حقيقـــة أمره إلا جسداً حقيراً من التراب، ولكنه صار أهلاً لتحمل أعبـــاء الخلافة الإلهية في الأرض لما نفخ الله فيه من روحه وأعطاه من علمه. أما الملائكة فقد اعترفوا بفضله ولذا خروا له ساجدين ، وأما الشيطان فأبى أن يعترف بفضله ولذا ضربت عليه الذلة واللعنة ، ولكنه طلب المهلة من الله إلى يوم القيامـــة ليحاول إضلال الإنسان وإغواءه، فأعطاه الله المهلة ، فأضل الإنسان ولعب بعقله حتى أخرجه من الجنة. ومنذ ذلك الحين لا تزال الحرب قائمة بين الإنسان والشيطان وقد قال الله للإنسان : اني سأرسل إليك هداي، فإذا اتبعته دخلت الجنة ، وإذا اتبعت الشيطان ، عدوك الأزلي المبين ، فإنما تكون جهنم هي مأواك .

شرح منصب الخلافة

وبهذا البيان تتضح لنا عدة أمور :

ليس الإنسان في هذا العالم إلا بمنزلة الخليفة ، والخليفة هو النائب ومن وظيفة النائب أن يطيع من هو نائب عنه . فليس له أن يطيع أحداً غيره فإنه إذا فعل هذا ، عدخارجاً عن طاعته ، وليس له أن يتخذ من رعاياه وخدمه رعايا وخدماً لنفسه ، فإنه إذا فعل هذا عد أيضاً من الخارجين على سلطانه والعاصين لأمره ، وأصبح في كلتا

الخالين مستحقاً لعذابه وعقابه . له أن يتصرف في أملاك مولاه ويحكم رعاياه ويستخدمهم ويراقبهم من حيث هو نائب عنه . وكل ما تحت يده إنما هو وديعة لديه من جانبه ولكن لا باعتبار أن هذه الأملاك أملاكه وأن هؤلاء الرعايا رعاياه ، ولا باعتبار أنه نائب عن أحد غير مولاه الحقيقي . فبناء على هذا إنما يكون الإنسان نائباً مخلصاً أميناً مستحقاً للثواب والجزاء الحسن ما بقي على الطاعة لمولاه ولم يدنس نفسه بخيانة ما استخلف فيه ولم يخالف قوانينه ولم يخرج على أوامره ونواهيه في حكم رعاياه واستخدامهم ومراقبتهم ، فإنه إذا فعل شيئاً من هذا ، لا يكون نائباً عن مولاه وإنما يكون خارجاً على سلطانه ، ولا يكون محبوباً مرضياً في جنابه وإنما يكون بغيضاً مطروداً من رحمته ، ولا يكون مستحقاً لجزائه وثوابه وإنما يكون مستحقاً لعذابه وعقابه

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوفٌ عَلَيهم ولا هُم يَحْزَنُون . والَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولٰئِكَ أَصحابُ النَّارِ هُم فِيها خالِدُون) . [البقرة : ٣٨ ، ٣٩] .

إن النائب أو المؤتمن لا يكون مستقلاً بأمره حتى يكون له أن يفعل مايشاء بمحض إرادته ويتصرف في أملاك مولاه ورعاياه كيفما يحب بمحض اختياره شأن من لا يرى نفسه مسؤولاً أمام أحد ، بل إن هذا النائب أو المؤتمن يكون مسؤولاً أمام مولاه عن كل صغير أو كبير ، تافه أو جليل من أعماله وتصرفاته ، ويكون لمولاه أن يحاسبه على كل حركة من حركاته فيجازيه بالعقاب إذا وجده قد تصرف

فيما ائتمنه عليه من أملاكه ورعاياه بالخيانة والسوء أو يجازيه بالحسنى إذا وجده لم ينحرف عن جادة الإخلاص والأمانة في تصرفه في أملاكه ورعاياه .

إن أول واجب على النائب أن يقر بسيادة من هو نائب عنه وبسلطته العليا ، فإنه بدون هذا لا يستطيع أن يفهم منزلته من حيث هو نائب عنه ولا من الممكن أن يكون في ذهنه تصور صحيح لمنصبه من حيث هو مؤتمن على ودائعه ولا من الممكن أن يؤدي واجباته وتبعاته في الأمانة على وجهها الكامل السليم .

إنه من المحال أن يكون بوسع الإنسان بحكم أي تصور آخر أن يسلك الطريق الذي يستطيع سلوكه بحكم تصور الخلافة أو النيابة ، وإذا كان طريقه الذي يسلكه بحكم تصور آخر مثل الطريق الذي إنما يستطيع سلوكه بحكم تصور الخلافة أو النيابة . فلا قيمة له لأنه على كل حال إنما يسلكه على غير إقرار بسيادة مولاه الحقيقي وسلطته العليا . وعلى هذا إذا أحسن أعماله في ظاهرها — وذلك على فرض المحال — اتباعاً لهواه ، فعليه أن لا يطلب أجره إلا من الذي قد أحسنها اتباعاً له وابتغاء لمرضاته فإنها لا قيمة لها البتة عنـــد مولاه الحقيقي .

إن الإنسان من حيث أصله ، مخلـــوق حقير ذليل وما كل ما له من الشرف والفضيلة والكرامة إلا لأجل تلك الروح التي أودعها الله فيه ولأجل أمانة الخلافة الإلهية التي قد أعطيها في الأرض . ومعنى هذا أن كرامته وفضيلته إنما تتوقفان على أن لا يلوث روحه باتباع الشيطان وسلوك طرقه وعـــلى ألا يحط نفسه من منزلة الخلافة

والنيابة إلى منزلة البغي والعصيان ، فإنه لا يعود إذاً إلا كائناً حقيراً ذليلاً كما كان من حيث أصله .

إن القوى الملكوتية تعترّف للإنسان بأنه نائب عن الله وخليفته في الأرض وهي لـــذلك تدين له بالطاعة والانقياد ، ولكـــن القوى الشيطانية لا تعترّف له بهذه الفضيلة والكرامة وهي لذلك تبغي أن تجعله مطيعاً لنفسها متبعاً لأوامرها . فالإنسان إذا قضى حياته الدنيا مؤدياً واجب الأمانه والنيابة ولم يتبـــع فيها إلا الهداية الإلهية ، فإن القوى الملكوتية لابد أن تأخذ بيده وتقوي ساعده ، ولا بد أن تنزل جنودها لتأييـــده وتقويته والـــربط على قلبه ، وهو بهذه القوى لا بد أن يهزم الشيطان ويتغلب على جنوده . ولكنه إذا قضى حياته مقصراً في أداء واجب الأمانة والنيابة واتبع فيها سبيلاً غير سبيل ربـــه ، فلا بد أن تخاذله القوى الملكوتيـــة ولا تقيم لشأنه وزناً لأنه بنفسه قد تخلى عن منصب الخلافة الإلهية . وبعد هذا عندما لا تكون هناك أية قوة توآزره وتربط على قلبه ولا يعود إلا جسداً من التراب حقيراً . فلا بد أن يستحوذ عليه الشيطان وتتغلب على أمره القوى الشيطانية ، وعندئذ يكون الشيطان قرينه ويكون جنوده أنصاره ومؤيديه . وإذن لا يتبع إلا إياهم ولايكون مصـــيره إلا مصيرهم .

إن منزلة الإنسان ، من حيث هو نائب عن الله وخليفته في الأرض أعلى وأشرف من منزلة كل شيء في السماوات والأرض ، وما كل هذه الأشياء إلا دونه حيث ما خلقت إلا ليتمتع بها ويتصرف فيها

عــلى ما تقضيه مرضاة مولاه ، ومن العــار عليه أن يطأطئ رأسه لشيء من هذه الأشياء، فإنه بذلك إنما يظلم نفسه ويتخلى بنفسه عن منصب الخلافة الإلهية . وإنما هناك كائن واحد هو الذي يجب على الإنسان أن يطأطئ له رأسه ويتزلف إليه بطاعته واتباع أحكامه ، وهو بسجوده له والتذلل إليه لايزيد نفسه إلا شرفاً وعزةً وكرامة ألا وهو الله مولاه الذي قد خلقه ونفــخ فيه من روحه وجعلــه خليفته في الأرض .

وليست النيابــة عن الله عز وجــل محصــورة بفرد من أفراده البشرية ولابطائفة من طوائفها وإنما الجنس البشري– بمجموع أفراده وطوائفــه – قد نيط به منصب الخــلافة الإلهية ، وعلى هــذا فكل فرد من أفراده يســاوي غيره من حيث هو خليفة الله في أرضه ولأجل هذا ليس لأي إنسان أن يسجد لأي إنسان آخر ولامن حق غيره ، كائناً من كان ، أن يطالبه بأن يسجد له ويطأطئ له رأسه بالطاعة والانقياد المطلق ، وكل ماله أن يطالبه به هو أن يطيع مولاه الحقيقي ويتبع أحكامه ولا يعمل في الدنيا شيئاً إلا ابتغاء مرضاته ، وفي هذا الشأن لا يكون المتبع إلا آمراً ولا يكون العاصي إلا مأموراً لأن الذي يقوم بأداء واجب الخلافه أفضل من الذي لا يقوم به ، ولكن ليس معنى فضله عليه أنه مولاه ومالكه .

إن منصب الخلافة حاصل لكل فرد من أفراد البشرية بصفته الشخصية وما هو بمنصب ذي تبعة مشتركة . لذا فإن هذا الفرد مسؤول عن تبعاته على انفراده ، فليست تبعة عمل غيره عليه ولا

ينال هو فائدته ، ولا لهذا الغير أن يبرئه من تبعاته أو يتحمل على نفسه ما يترتب من الوبال عن أعماله الفاسدة .

إن الإنسان مادام في الأرض ومادامت العلاقة قائمة بين روحه وجسده الترابي ، فإنه خليفة الله في أرضه ، وهو إنما يتخلى عن هذا المنصب ـ الخلافة ـ عندما تنقطع الصلة بين روحه وجسده الترابي ويفارق الدنيا . وهذا ما يستلزم أن يحاسب حساباً دقيقاً عن الوديعة التي ائتمن عليها ويحقق في أمره : كيف قد قام بالتبعات التي ألقيت عليه في حياته من حيث كان خليفة الله في أرضه ، فيعاقب إن كان قد جاء في هذه الوديعة وهـــذه التبعات بشيء من الغبن والخيـــانة والعصيان والبغي وإهمال الواجب ، أو ينال جزاء حسناً إن كان قد قضى حياته بالإخلاص والأمانة والطاعة والشعور بالواجب

التصور الاسلامي للحياة

وكلمة الخلافة أو النيابة هذه تشير إلى نكتة مهمة أخرى هي أن من كمال الخليفة أو ـ النائب ـ أن يبذل وسعه في أداء حق النيابة في أملاك مولاه ولا يتصرف فيها على قدر وسعه إلا كما يتصرف فيها المولى نفسه . إن ملكاً من ملوك الأرض إذا جعل أحداً مشرفاً على شؤون رعاياه بالنيابة عنه ، فإن أحسن طريق يجب على نائبه أن يتبعه هو أن لا يسير في اهتمامه بشؤون الرعايا وحفظهم والشفقة عليهم والعدل فيهم وفي التشديد عليهم عند الحاجة ، إلا سيرة الملك نفسه ولا يتصرف في أملاكـــه إلا بنفس الحكمة والسياســـة والحيطة التي يتصرف بها فيها هو نفسه .

فالإنسان حين جعل خليفة لله ونائباً عنه في أرضه ، اقتضى ذلك أنه لا يستطيع أن يؤدي ما عليه من حق خلافة الله إلا بأن يكون سلوكه في معاملة خلائق الله مثل سلوك الله تعالى نفسه ، فكما أن الله تبارك وتعالى يحفظ خلائقه ويرعاها بشأن ربوبيته الشاملة ، كذلك على الإنسان أن يحفظ ويرعى في دائرة تصرفه المحدود وما قد جعل الله تحت تصرفه وفي قبضة قدرته من خلائقه . وكما أنه جل جلاله يتصرف في ملكيته بشأنه الرحماني والرحيمي ، وكما أنه عز وجل يقيم النظام في خلائقه بكمال العدل . وكماأنه جل وعلا يظهر صفة القهر والجبر ببالغ الكرم والفضل ، كذلك على الإنسان أن لا يعامل – على نطاق محدود – ما قد جعله الله تحت حكمه وسخره له من خلائقه إلا بمثل هذا الكرم والفضل والعدل والقهر والجبر . وهذا ما جاء بيانه في جملة « تخلقوا بأخلاق الله » الحكيمة . ولكن من المحال أن ينال الإنسان هذه الدرجه العليا والمنزلة الرفيعة إلا بأن يكون على شعور تام من الحقيقة القائلة : بأنه ليس في هذه الدنيا حراً طليقاً مستقلاً بأمره . وإنما هو نائب عن صاحب هذا الكون وخالقه الحقيقي . وأن منصب النيابة هو الذي يقرر نوعية وحدود علاقته بكل شيء في السماوات والأرض ، بل وبجسده وما فيه من القوى العقلية والفكرية والجسدية.

وإن كل هذه النكات التي قد بينتها آنفاً شرحاً لمنصب النيابة أو الخلافة ، قد جاء بيانها في عدة مواضع من القرآن الحكيم بكل بسط وتفصيل . وبها تتضح كل ناحية من نواحي العلاقة بين الإنسان والدنيا . وإليك ما يتعلق بكل نكتة من هذه النكات من آيات القرآن

الانسان خليفه وما هو بمالك

قال الله تعالى :

(وهُوَ الذي جعَلَكُم خَلائِفَ الأَرْضِ ورَفَعَ بَعْضَكُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُم فِيما آتاكُم) . [الأنعام : ١٦٥] .

(قَالَ عَسىٰ رَبُّكُم أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُم ويَسْتَخْلِفَكُم في الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) [الأعراف : ١٢٩] .

(ياداوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً في الأَرْضِ فَاَحْكُم بَينَ النَّاسِ بِالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عن سَبِيلِ اللهِ . إنَّ الذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُم عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) [ص : ٢٦] .

(أَلَيسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ) [التين : ٨] .

(إنِ الْحُكمُ إلاَّ لله) [الأنعام : ٥٧] .

(قُل اللَّهُمَّ مالِكَ المُلكِ تُؤتي الملكَ مَنْ تَشاءُ وتَنْزِعُ المُلكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) [آل عمران : ٢٦] .

(إتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إلَيكُم مِن رَبِّكُم ولا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِياءَ) . [الأعراف : ٣]

(قُلْ إنَّ صَلاتي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَماتي لله رَبِّ ٱلْعَالمينَ) . [الأنعام : ١٦٢] .

فالذي تدل عليه كل هذه الآيات أن كل شيءٌ يستخدمه الإنسان ويتصرف فيه وينتفع به في هذه الدنيا ، ليس ملكاً له ، وإنما الله سبحانه وتعالى هو مالكه وصاحب الأمر والسلطة في شأنه. فليس من حق الإنسان أن يتصرف فيه كأنه هو مالكه ولا أن يستخدمه فيما يشاء وتشاء أهواؤه . وإنما هو في هذه الدنيا بمنزلة النائب عن الله ، صاحب الأمر والسلطة الحقيقية ، وأن دائرة صلاحياته محدودة بأن يتبع هدى الله ولا يتصرف في شيءٌ في هذه الدنيا إلا حسب أوامره وأحكامه ، وأنه من الضلال والبغي أن يتبع هواه أو يتخذ أحداً غير الله مالكاً وحاكماً لنفسه بتعدي حدود دائرة صلاحياته .

الشرط الأول للسعادة في الدنيا

قال الله تعالى :

(والَّذِينَ آمَنُوا بِالبَاطِلِ وكَفَرُوا باللهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُون) [العنكبوت : ٥٢] .

(ومَنْ يَرْتَدِدْ مِنكُم عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وهوَ كَافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهم في الدنيا والآخِرةِ) [البقرة : ٢١٧] .

(ومَن يَكفُرْ بالإيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وهُوَ في الآخرةِ مِن الخَاسِرِين) [المائدة : ٥] .

فالذي تدل عليه هذه الآيات أن سعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا إنما هي موقوفة على أن يعترف بسلطة وسيادة من هو نائب عنه وخليفته ولا يأتي بعمل إلا مع الشعور بأنه عبده وخليفته ، فإن أي تصرف يأتي به في أملاك الله في الدنيا بدون الشعور والاعتراف بهذه المنزلة لنفسه ، لا يكون من أوله إلى آخره إلا تصرفاً باطلاً كتصرف البغاة العصاة . ألاترى أنه من القواعد المعمول بها في الدنيا أن العاصي إذا استولى على بلد وتصرف في شؤونه على أحسن وجه فإن الحكومة الشرعية لذلك البلد لا تعترف بحسن تصرفه ولاتقدر جودة أعماله ، لأن العاصي هو العاصي قبل كل شيء وبعده في نظر صاحب السلطة الشرعية ، سواء أكان من حيث سيرته الشخصية رجلاً فاسداً أو لم يكن به بأس ، وسواء أكان يتصرف في شؤون ذلك البلد على وجه حسن أو غير حسن بعد استيلائه عليه عن طريق الخروج على صاحب الأمر والسلطة الشرعية .

انما الدنيا للانتفاع والاستمتاع

وقال الله عز وجل :

(يا أَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا في الأَرضِ حَلالاً طَيِّباً ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشيطان إِنَّه لَكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّما يأْمُرُكُم بالسُّوءِ والْفَحشَاءِ وأَن تَقُولوا على اللهِ مالا تَعلَمُون) [البقرة : ١٦٨ ـ ١٦٩] .

(ياأَيُّها الذينَ آمَنُوا لاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ ما أَحلَّ اللهُ لَكُم ولا تَعتَدُوا إنَّ اللهَ لايُحِبُّ المعتَدِين . وكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُم اللهُ حَلالاً طَيِّباً واتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُم به مُؤمِنُون) [المائدة : ٨٧ – ٨٨] .

(قُل مَن حَرَّمَ زينة الله التي أخرَجَ لِعباده والطَّيِّباتِ مِن الرِّزقِ) [الأعراف : ٣٢]) .

(يأمُرُهُم بالمعْرُوفِ ويَنْهَاهُم عَنِ المُنْكَرِ ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ ويُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ويَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأَغلالَ التي كَانَتْ عَليهِمْ) [الأعراف : ١٥٧] .

(لَيسَ عَلَيكُم جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُم) . [البقرة : ١٩٨] .

(وَرَهبَانِيَّةً ابتَدَعُوها ماكَتَبْنَاها عَلَيهِمْ إلا ابتِغَاءَ رِضوانِ الله) . [الحديد : ٢٧] .

(وَلَقَدْ ذَرَأنا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِن الجِنِّ والإنسِ لَهم قُلُوبٌ لايَفْقَهُونَ بها ولَهُم أَعْيُنٌ لايُبْصِرُونَ بهَا ولَهُم آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بها أُولئكَ كالأَنْعام بِلْ هُم أَضَلُّ ، أُولئِكَ هُمُ الْغَافِلُون) [الأعراف : ١٧٩] .

فالذي جاء بيانه في هذه الآيات أن ليس للإنسان أن يترك هذه الدنيا ظناًمنه بأنها شيءٌ يجب الاحتراز منه وليس له أن يحرم على نفسه زينتها ونعيمها ، لأن هذه الدنيا ما خلقت إلا لينتفع بها الإنسان ويستخدمها، فمن واجبه أن ينتفع بها ويستخدمها على قدر استطاعته ولكن مع رعاية الامتياز بين الصحيح والباطل، والطاهر والنجس والمناسب وغير المناسب . والله تعالى قد أعطاه عينين ليبصر بهما وأعطاه أذنين ليسمع بهما وأعطاه قلباً ليتفكر به، فهو إذا أهمل هذه الحواس والأعضاء وأبى أن ينتفع بها، أو إنما انتفع بها على وجه فاسد . فلا يبقى ثمة فرق بينه وبين أي حيوان آخر.

عاقبة الحياة الدنيا ومآلها

قال الله تبارك وتعالى :

(إنَّ وَعدَ الله حقٌ فَلا تَغُرَّنَّكمْ ٱلْحَيَاةُ الدُّنيا ولايَغُرَّنَّكُم باللهِ ٱلْغَرُورُ) [لقمان : ٣٣] .

(واتَّبع الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيه وكَانُوا مُجْرِمِين) [هود : ١١٦] .

(واضْرِب لَهُم مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا كَمَاءٍ أَنْزَلناهُ مِن السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وكَانَ اللهُ عَلى كُلِّ شيءٍ مُقْتَدِرا . المالُ والبنونَ زِينَةُ الحياةِ الدُّنيا والباقياتُ الصَّالحاتُ خَيرٌ عِند رَبِّكَ ثَواباً وخَيرٌ أملا) [الكهف: ٤٥ ـ ٤٦] .

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُم ولا أولادُكُم عَنْ ذِكرِ الله ومَن يَفْعَلْ ذلِك فأولئكَ هُم الخَاسِرون) [المنافقون : ٩] .

(ومَا أَمْوَالُكُم ولا أولادُكُم بالَّتي تُقَرِّبُكُم عِنْدَنا زُلْفَى إلا مَنْ آمَن وعَمِلَ صالِحاً) [سبأ : ٣٧] .

(إعْلَمُوا أَنَّما ٱلْحَيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزِينةٌ وتفَاخُرٌ بَينَكُم وتَكَاثُرٌ في الأموالِ والأَولاد كَمَثَلِ غَيْثٍ أعجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُم يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصفَرًّا ثم يَكُونُ حُطاماً) [الحديد : ٢٠] .

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ) [الشعراء : ١٢٨] .

(أَتُتْرَكُونَ في ما هٰهُنا آمِنين . في جَنَّاتٍ وعُيُونٍ . وزُرُوعٍ ونَخلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ وتَنْحِتُونَ مِن ٱلْجِبال بُيُوتاً فَارِهينَ) [الشعراء : ١٤٦ـ ١٤٩] .

(أَيْنَمَا تَكونُوا يُدرِكْكُمُ الموتُ ولَو كُنتُم في بُرُوجٍ مَشيَّدة) [النساء : ٧٨] .

(كُلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ الموتِ ثـمَّ إلَينا تُرْجَعُونَ) [العنكبوت : ٥٧] .

(أَفَحَسِبْتُم أنَّما خَلَقْناكُم عَبَثاً وأَنَّكُم إلينا لا تُرجَعُونَ) [المؤمنون : ١١٥] .

لقد ذكرت الآيات أولاً أن هذه الدنيا ما خلقت إلا لينتفع بها الإنسان ويتمتع بلذاتها ومباهجها وزينتها ونعيمها على قدر حاجته واستطاعته. وهنا يعرض الإنسان على حقيقة أخرى بالنسبة للحياة الدنيا، هي أنه، أي: الإنسان نفسه ما خلق لتلهيه الدنيا، وتشغله بمفاتنها ومباهجها عن الغاية الحقيقية من وراء حياته. فلا يغرنه ظاهر هذه الحياة الدنيا بأنه سوف يخلد فيها، وليعلم أحسن العلم أن هذه الدنيا وهذه الأموال وهذه الأمتعة واللذات و. . . و. . . كلها ظل زائل وما هي إلا إلى أجل مسمى ونهايتها الموت المحتوم، وإنما الشيء الوحيد الذي له البقاء والخلود في هذا العالم الفاني، هو الصلاح؛ صلاح القلب وصلاح الروح وصلاح الأعمال.

تبعة الأعمال والمسؤولية عنها

وجاء في التنزيل: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى) [طه: ١٥].

(هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [النمل: ٩٠].

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى . وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ). [النجم: ٣٩ - ٤٢].

(وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً) [الاسراء: ٧٢].

(وما تُقَدِّمُوا لأنفُسِكُم مِن خَيرٍ تَجِدُوهُ عِند الله إنَّ الله بِما تَعْمَلُونَ بَصير) [البقرة: ١١٠] .

(يَوم تجِدُ كُلُّ نَفسٍ ماعَمِلتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ومَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ) [آل عمران: ٣٠] .

(واتَّقوا يوماً تُرجَعُونَ فيهِ إلى الله ثمَّ تُوفَّى كُلُّ نفسٍ ماكَسَبَتْ وهُم لا يُظْلَمُونَ) [البقرة: ٣٨] .

(والْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأُولئكَ هُمُ الْمفْلِحُونَ . ومَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأُولئكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُم بما كَانُوا بآياتِنا يَظْلِمُونَ) [الأعراف: ٨ ـ ٩] .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرَّةٍ خيرًا يَرهْ ومَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يرَهُ) [الزلزال: ٧ ـ ٨] .

(فَاسْتَجَابَ لَهُم رَبُّهُم أنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُم مِن ذَكَرٍ أو أُنْثىٰ) . [آل عمران: ١٩٥] .

(وأنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِن قَبلِ أن يأتِي أَحَدَكُم الموتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَولا أَخَّرْتَني إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّق وأَكُن مِن الصَّالِحين . ولَنْ يُؤَخِّرَ الله نَفساً إذا جاءَ أَجَلُها) [المنافقون: ١٠] .

(وَلَو تَرَىٰ إذِ المجرِمونَ نَاكِسُوا رؤوسهم عندَ ربِّهِم رَبَّنا أبْصَرْنا وسَمِعنا فارجِعْنا نَعْمَلْ صالحاً إنّا موقنون .. فَذُوقُوا بما نسيتم لقاءَ يومكُم هذا إنَّا نَسيناكُم وذُوقُوا عَذابَ الخُلْدِ بما كُنْتُم تَعمَلُونَ) [السجدة : ١٢ ـ ١٤]

فالذي جاء بيانه في هذه الآيات أن الدنيا دار العمل والجهد والسعي وأن الآخرة هي دار القرار والجزاء على ما يأتي به من الأعمال الحسنة أو السيئة في حياته الدنيا . إن الإنسان قد أمهل في هذه الدنيا ليعمل إلى ساعة موته وأنه لن ينال بعدها مهلة للعمل . فعليه أن لا يبذل سعياً في حياته الدنيا إلا على شعور تام بأن كل عمل من أعماله وكل حركة من حركاته وكل حسنة من حسناته أو سيئة من سيئاته ذات أثر خاص ووزن خاص وأنه لا بد أن يلاقي نتائج أعماله بعد حياته الأولى إن خيراً فخير وإن شراً فشر حسب هذا الأثر والوزن ، وأنه لن ينال شيئاً في حياته الآخرة إلا جزاء على ما قام به من الأعمال أو بذل من الجهود في حياته الدنيا ، وأنه لن تضيع عليه حسنة من حسناته ولن تذهب سيئة من سيئاته دون أن ينال عليها عقابه .

التبعة الشخصية

وقد أوضح لمزيد تقوية هذا الشعور بالتبعة أن كل فرد من أفراد البشرية عليه تبعة كل عمل من أعماله بصفته الشخصية ، فليس لأحد غيره أن يشاركه فيها أو أن ينقذه من عواقب أعماله السيئة .

(عَلَيكُم أنفُسَكُم لا يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إذا اهتَدَيتُم

[المائدة : ١٠٥] .

(ولا تَكْسِبُ كُلُّ نَفسٍ إلا عليهـا ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ) [الأنعام : ١٦٤] .

(لَن تَنفَعَكُم أَرْحـامُكُم وَلا أَوْلادُكُم يَوْمَ ٱلْقِيـامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِير) [الممتحنة : ٣] .

(إنْ أَحْسَنْتُم أَحْسَنْتُم لأَنْفُسِكُم وَإنْ أَسَأْتُم فَلَها) [الإسراء :٧] .

(وَلَا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِهَـا لايُحْمَلْ مِنْهُ شيءٌ وَلَوْ كَان ذا قُرْبى) [فاطر : ١٨] .

(يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم واخْشَوْا يوماً لايَجْزي والدٌ عَن وَلَدِهِ ولا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عن وَالِدِه شيئاً) [لقمان :٣٣] .

(مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ومَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) [الروم : ٤٤] .

فهنا قد ألقيت على كل إنسان تبعة أعماله الحسنة أو السيئة بصفته الفردية بحيث لم يُترك يأمل أن أحداً غيره سينقذه من تبعة أعماله، أو يحمل عنه خطاياه وذنوبه ، أو أنه إذا تعلق بأحد وتشبث بذيله ، يستطيع أن يسلم من وبال جرائمه، كما قد أقنع بأن جريمة أحد غيره لن تؤثر أبداً في حسن أعماله، وأن أحداً غير الله ليس لمرضاته نوع من الدخل في قبول الله أو عدم قبوله عملاً من أعماله . فكما أنه لا يمكن أن يسلم الانسان من الاحتراق إذا ألقى بيديه إلى النار ، أو لا يشعر بالحلاوة إذا أكل العسل ، وكما أنه ليس لأحد غيره أن يشاركه في إصابته بالاحتراق أو يحرمه من لذة الحلاوة ، كذلك ان

كل شخص هو المنفرد بذاته في احتماله العقاب نتيجة لأعماله السيئة أو فوزه بالنعمة نتيجة لأعماله الصالحة . فعلى كل شخص أن يكون على شعور تام بتبعته الفردية في انتفاعه بالدنيا وتصرفه في شؤونها وعليه – كذلك – أن لا يقضي حياته إلا على شعور تام بأنه هو المسؤول عن كل عمل من أعماله ، لا يذوق وبال أعماله السيئة إلا هو وحده ، ولا يتمتع بثمرات أعماله الصالحة إلا هو وحده .

ولعله قد تمثلت لديك بتخليلنا هذا لتصور الإسلام للحياة الدنيا كل تلك الأجزاء التي يتركب منها هذا التصور. وعليك الآن أن تضرب صفحاً عن ناحية التجزئة والتحليل وتلقي نظرة على ناحية التركيب والتأليف ، لتعرف إلى أي مدى يتفق مع الفطرة والواقع ذلك التصور الشامل الذي يترتب ويتشكل باجتماع هذه الأجزاء المتفرقة ؟ وأين موقفه من تصورات الحضارات الأخرى للحياة الدنيا ؟ وأن الحضارة التي تقوم على أساس هذا التصور ، في أي قالب تفرغ أفكار الإنسان وأعماله ؟

التطور الفطري للحياة

اصرف نظرك قليلاً عما قد جاءت به الأديان والمذاهب الفكرية المختلفة من تصورات متعددة للدنيا وحياتها ، وانظر نظرة المستبصر الحصيف فيما حولك من الدنيا وتفكر : أين مكانتك في كل هذا الوسط ؟ تتجلى لك عدة أمور بهذه المشاهدة :

أن كل ما فيك من القوى دائرتها ضيقة ، وأن حواسك التي تعتمد عليها في علمك ، لا تتجاوز عن حدود بيئتك القريبة ،

وأن جوارحك الّتي يتوقف عليها عملك ، لا تتناول إلا أشياء قليلة جداً ، وأن هناك أشياء هي أكبر منك جسداً وأعظم منك قوة ، وما أنت بإزائها إلا كائناً حقيراً ضعيفاً ، وأن القوى العظيمة الهائلة الّتي تتحكم في هذا المعمل ، معمل الكون العظيم ، ليست منها أية قوة تقدر عليها وإنما تجد نفسك بإزائها ضعيفاً عاجزاً وأنك لست من الوجهة الجثمانية إلا كائناً متوسطاً غالباً على ما هو أصغر منك ومغلوباً مما هو أكبر منك .

على أن هناك في داخلك قوة أخرى هي الّتي قد جعلتك أعظم وأفضل موجودات العالم ، فبها تستولي على سائر الحيوانات من جنسك وتتغلب على قوتها الزائدة بدرجات عن قوتك الجثمانية ، وبها تتصرف فيما حولك من الأشياء وتستخدمها فيما تشاء ، وبها تكتشف خزائن جديدة للطاقة ، وتستخرجها ثم تستفيد منها على غير وجه واحد ، وبها توسع وسائلك لاكتساب العلم وتصل إلى أشياء هي وراء متناول قواك الطبيعية . وجملة القول أنك تسخر بها كل موجودات العالم ، وتنال مزية كونك سيدها ومطاعها .

ومن الحقيقة كذلك أن ما في هذا الكون العظيم من القوى العليا غير الآتية تحت يد قدرتك ، لا تعمل كلها إلا باعتبار أن ليست في الغالب معادية لذاتك عاتية على أوامرك ، بل هي مساعدة لك خاضعة لمصلحتك عاملة لمنفعتك . فالهواء والماء والنور والحرارة وما إليها من القوى الّتي تتوقف عليها حياتك ، لا تعمل كلها إلا تحت نظام يهدف إلى مساعدتك ومعاونتك ، وبناء على ذلك تستحق أن تقول : إنها كلها خاضعة لأمرك منقادة لمرضاتك .

أنظر في هذا العالم نظرة عميقة شاملة ، تجد أن فيه قانوناً مهيمناً يخضع له ولا ينفك عن طاعته شيء من أكبر سيارة في السماء إلى أصغر ذرة في الأرض ، وأنه على طاعته واتباع نظامه يتوقف هذا العالم في بقائه واطراده ، حتى إنك بنفسك خاضع له مجبول على طاعته . إلا أن هناك فرقاً عظيماً بينك وبين سائر الموجودات في العالم ، هو أن هذه الموجودات لا قدرة لها على مخالفة هذا القانون والخروج عن طاعته ، وأما أنت فلك القدرة على مخالفة هذا القانون والخروج عن طاعته إن شئت . لا هذا فحسب بل إن هذا القانون بنفسه يساعدك ويأخذ بيدك إذا ما أردت مخالفته والخروج على طاعته، غير أن مخالفتك له فيها عدة مضرات من المحال أن تسلم من تأثيراتها السيئة .

وإنك لتجد في هذا العالم عدة مظاهر للهدم والبناء وسلسلة غير متناهية للفناء والبقاء تحت هذا القانون المهيمن الشامل. فالقانون الذي بموجبه يخلق فيه شيء وينشأ بموجبه – هو– يهلك ذلك الشيء ويقضي عليه بالفناء والزوال ، وما فيه من شيء يعد بمنجاة من انطباق هذا القانون ونفاذه ، حتى إن الأشياء التي قد تراها بظاهر عينك بمنجاة من انطباق هذا القانون وتحسب فيها الاستمرار والبقاء والدوام إذا أمعنت فيها النظر علمت أن عملية الحركة والتغير جارية فيها أيضاً ، وما هي بمنجاة من انطباق قانون الهدم والبناء أو الفناء والبقاء. ولأن الموجودات الأخرى في العالم لا إدراك لها ولا شعور ، أو أننا على الأقل لا نعلم أن لها نوعاً من الإدراك والشعور ، لذلك فإننا لا نشعر فيها بشيء من اللذة او الألم ببقائها أو بفنائها ، وإذا كنا نشعر بشيء

من اللذة أو الألم بالبقاء أو الهدم في الأنواع الحيوانية، فإنما هو محدود ضيق. أما الإنسان، وهو كائن ذو شعور وإدراك، فيشعر بتأثيرات شديدة من اللذة أو الألم برؤية التغيرات الحاصلة حوله في هذا العالم، فتارة تبلغ لذته في الأمور المتناسبة مع طبيعته حيث ينسى أن هذا العالم فيه الهدم بجانب البناء أو الفناء بجانب البقاء، وتارة يبلغ ألمه بالأمور المتنافية مع طبيعته حيث لا يرى في هذا العالم شيئاً غير الهدم والفناء والانقراض والزوال.

ولكن مهما يكن فيك من الأحاسيس المتضاربة باللذة والألم، ومهما تكن نظريتك في الحياة الدنيا مائلة إلى الإفراط أو التفريط على انفعـــال منك بهذه الأحاسيس، فإنك على كل حـــال مجبول على استخدام هذه الدنيا والاستمتاع بها فعلاً على علاتها. إنك مجبول على الرغبة في البقاء والحياة ولتحقيق هذه الرغبة قد وضعت فيك الفطرة قوة الجوع تجبرك على العمل دوماً. وإن قانون الفطرة يحب أن يستخدمك لحفظ نوعك واطراد بقائه، ولتحقيق هذا الغرض قد وضع فيك قوة عاتية أخرى هي قوة الشهوة الجنسية تأبى عليك إلا أن تنجز مقصودها. وكذلك فان الفطرة قد وضعت فيك قوى كثيرة أخرى لتحقيق مقاصد لها أخرى، وهي كلها تجبرك على العمل شئت أو لم تشأ. وأما هل تنجز مقاصد الفطرة هذه بأسلوب جميل أو غير جميل، وعن طيب خاطر منك أو على كراهية، فإنما يتوقف كل ذلك على ما فيك من الفراسة والحكمة والتعقل. لا هذا فحسب بل الفطرة نفسها قد وضعت فيك القدرة على أن تعمل لتحقيق مقاصدها هذه إن شئت أو لا تعمل على تحقيقها إن لم تشأ، ولكن

من قانون الفطرة في الوقت ذاته ، أنه من الخير لك أن تعمل لتحقيقها عن طيب خاطر وانشراح صدر منك ، لأنك إذا أعرضت عنها وأبيت العمل لتحقيقها ، أو عملت لتحقيقها ولكن على كراهية منك ، فإنك بكل ذلك لا تضر إلا نفسك.

تصورات الأديان والمذاهب الفكرية المختلفة للحياة الدنيا

ولعمري إن إنساناً صحيحاً في فطرته واسعاً في نظره ، إذا ألقى نظرة على هذا العالم وتفكر في مكانة نفسه بالنسبة لموجوداته فلا بد أن تتمثل الحقيقة بين يديه من جملة نواحيها ، كما قد ذكرناها آنفاً . إلا أن طوائف مختلفة من الإنسانية نظرت في هذا المتحف العجيب من مختلف الزوايا والوجهات وطالما حدث أن أحداً لما أعجب بناحية خاصة من نواحيه المختلفة ، أسس في نفسه فكرة خاصة للحياة الدنيا على مقتضى تلك الناحية الخاصة ولم يشعر بحاجة إلى أن ينظر في هذا العالم من ناحية أخرى .

نظرت طائفة إلى ضعف الإنسان وعجزه وإلى جبروت القوى الفطرية الأخرى بإزائه ، فاستنتجت من ذلك أن الإنسان إنما هو كائن حقير ضعيف في العالم ، وأن ليست هذه القوى الفطرية — النافعة والضارة — بخاضعة لقانون شامل عالمي وإنما هي مستقلة أو شبه مستقلة بأمرها فلا تقوم بشيء في هذا العالم إلا بمحض إرادتها واختيارها . وقد استولت هذه الفكرة على أذهانهم بحيث خفيت على أنظارهم الوجهة التي يتمتع منها الإنسان بالشرف والفضيلة على سائر

الموجودات في العالم، وتعاموا عن الوجهات النيرة في ذاتيتهم وضحّوا بشعورهم بالعزة والكرامة والشرف في سبيل اعترافهم بضعفهم وعجزهم . فهذه هي الفكرة التي قد تولدت منها عبادة الأصنام والأوثان وعبادة الأشجار والأنهار وعبادة النجوم وما إليها من قوى الفطرة ومظاهرها الأخرى .

وطائفة أخرى نظرت إلى الدنيا من جهة أن ليس فيها إلا الهدم والخراب والفساد فحسب وأن معمل هذا الكون لا يجري إلا ليصيب الإنسان بالألم والأذى والحزن والغم والهم، وأن كل ما فيه من الروابط والعلاقات ، إنما هي شبكات نصبت لتوقع الإنسان في المصائب والآلام والكوارث والنوائب والمحن والأهوال. يقولون : إن الأمر ليس بمتوقف على الإنسان وحده ، بل إن كل ما في هذا العالم من الموجودات مكتوب عليها الفناء والزوال والضعف والاضمحلال فلا يحدث فيه شيء إلا للفناء والزوال والانقراض ، ولا يأتي عليه الربيع إلا ليخرب الخريف رونقه ويعبث بزينته وبهجته، ولا يورق ولا يثمر فيه شجر الحياة إلا ليتمتع به عفريت الموت، ولا يتزين فيه جمال البقاء إلا لتتوفر به على إله الفناء فرصة الاستمتاع واللذة. فهذه الفكرة هي التي قد أظلمت الدنيا في نظر هؤلاء القوم ، ولم تترك لهم فيها أية رغبة في الحياة ، ومن ثم لم يروا سبيل النجاة لأنفسهم إلا في أن يعتزلوا الدنيا ويبطلوا بالرياضة وكبت النفس كل ما في أنفسهم من الأحاسيس والنزوات، ويخرقوا ذلك القانون الجائر من قوانين الفطرة ، الذي قد جعل من الإنسان آلة لتسيير معمله .

وطائفة ثالثة نظرت إلى الدنيا من جهة أن فيها أسباباً وافرة للذة الإنسان وبهجته ورغده وتنعمه وترفهه ورفاهيته وقد نال فيها فرصة قصيرة للاستمتاع بها فليس الشعور بالألم والبؤس والنكد والغم والحزن إلا مما ينغص هذه اللذات ويكدر هذه المتع في الحياة ، لذا فإن الإنسان إذا أبطل هذا الشعور ، ونفى عن حياته ما يسبب فيها الألم والنكد والكآبة ، فما له في الحياة بعد ذلك إلا اللذة والمتعة والبهجة والسرور ، وأن الإنسان لا حياة له بعد حياته الدنيا ، فعليه أن يستنفد كل جهوده ليتمتع في هذه الدنيا بأكبر وأوفر ما يكون من فرص اللذة والنعيم والترف ، وأما بعد الممات ، فلا يكون له وجود ولا لهذه الدنيا ولا لمباهجها ، إذ لا بد أن يكون كل شيء إذن نسياً منسيا.

وإزاء كل هؤلاء هناك طائفة أخرى ترى في لذات الدنيا ومباهجها ومنافعها ، بل وفي الحياة الدنيا نفسها ، إثماً كبيراً وشراً مستطيراً ، وما كل علاقات الإنسان المادية بالدنيا في نظرها إلا نجاسة وقذارة لروحه. تقول: لا طهارة للإنسان ولا شرف ولا صلاح ولا خير في الانتفاع بالدنيا والاشتغال بشؤونها الخلابة والاستمتاع بزينتها ومباهجها ، وأن الإنسان إذا كان يريد الدخول في الملكوت السماوي فعليه أن يعتزل الدنيا ويتجرد من لذاتها الفانية ، وأما إن كان يزين له الشيطان وتحدثه نفسه بالاستمتاع بمتاع الدنيا وحكومتها وحياتها المزخرفة ، فعليه أن يعلم علم اليقين أن لا نصيب له في الملكوت السماوي . ثم إن هذه الطائفة لما أحست أن الإنسان مضطر بسائق فطرته إلى الانتفاع بهذه الدنيا والاشتغال بشؤونها المتنوعة وأن فكرة الدخول في الملكوت السماوي مهما كانت

رائعة آخذة بالألباب بظاهر صورتها ، فإنها ليست على كل حال من القوة والمتانة حيث يقدر الإنسان على أساسها أن يقاوم ما في نفسه من مطالب الفطرة ومقتضياتها . . . اخترعت طريقاً أخصر للدخول في الملكوت السماوي هو أن شخصاً واحداً لما قدضحى بنفسه ، فقد كفر عن كل من انتسب إليه سيآته ، وطهره من ذنوبه وأعفاه من تبعة كل أعماله .

ثم هناك طائفة أخرى لما رأت شمول قانون الفطرة وهيمنته قالت : ليس الإنســـان في هذا العالم إلا كائناً مجبوراً محضاً وأن الذي تدل عليه مشاهدات علم النفس والأعضاء والأحياء ويشهد به قانون التوارث هو أن ليس الإنسان بكائن ذي إرادة واختيار وإنما هو مكبول بقانون الفطرة بكل معنى الكلمة ، فهو إن كان يفكر في شيء مخالف لهذا القانون أو يعمله فما عليه – لكل هذا – تبعة أي عمل من أعماله .

وعلى العكس من هذا هناك طائفة أخرى ليس الإنسان في نظرها كائناً ذا إرادة واختيار فحسب ، بل ليس هو – فوق هذا – خاضعاً لإرادة عليا ، ولا مطيعاً لقوة غير مرئية ولا مسؤولاً في أعماله وتصرفاته أمام أحد غير ضميره أو قانون الحكومة الإنسانية . تقول هذه الطائفة : إن الإنسان هو صاحب هذا العالم وما فيه من شيء هو خاضع لأمره مسخر لمصلحته ومنفعته ، فله الخيـــار كل الخيار أن يستخدمها وينتفع بها كيفما يشاء وعلى قدر ما يستطيع ، وهو ليدخل التحسين على حياته والنظام والترتيب على أعماله قد فرض قيوداً على حياته

الفردية ، وأما من الوجهة الإجتماعية فهو حر طليق مستقل بأمره ، ومن اللغو والسخافة القول بأنه مسؤول أمام أحد فوقه في حياته الاجتماعية .

فهذه تصورات مختلفة وآراء متضاربة لمختلف الأديان والمذاهب الفكرية عن الحياة الدنيا ، وأكثرهـــا قد قام عليها بنيان مختلف الحضارات في الدنيا ، وإن الطرز المختلفة والأساليب المتنوعة التي نراها في بنيان هذه الحضارات المختلفة ، إنما السبب الحقيقي في اختيارها هيئة مخصوصة مستقلة عن غيرها أنها قائمة على تصـــور مخصوص للحياة الدنيا هو الذي قد اقتضاها أن تختار لنفسها هذه الهيئة المخصوصة . ونحن إذا تأملنا في كل واحد من هذه التصورات المختلفة وبحثنا في شأنه كيف أنه أنشأ حضارة من طراز مخصوص فلا جرم أن سيكون ذلك بحثاً طريفاً ، ولكن لا علاقة لهذا البحث بموضوعنا الذي نحن فيه الآن، لأننا إنما نريد إبراز خصائص الحضارة الإسلامية ومزاياها فحسب ، وإن الذي نريد بيانه هنا هو أن كل ما قد ذكرنا آنفاً من التصورات المختلفة للحياة الدنيا ، إنما هي نتيجة لنظر مختلف الطوائف الإنسانية إلى الحياة الدنيا من جهات مختلفة ، وأن ليس منها تصور قد أقيم بعد إلقاء نظرة شاملة على الكون من حيث مجموعه وتحديد مكانة الإنسان في موجوداته . لأجل هذا فإن كل تصور من هذه التصورات يبطل في نظرنا ولا يبقى له أدنى وزن في أذهاننا عندما ننظر إلى الدنيا من جهة غير جهته المخصوصة ولا يلبث أن يتكشف لنا مافيه من وجوه النقص والفساد والزيغ عندما نتأمل في الدنيا ونشاهدها بنظرة واسعة شاملة .

مزايا التصور الاسلامي

ولعله قد اتضح لك الآن أن تصور الإسلام هو التصور الوحيد الذي يتفق مع الفطرة والواقع والحقيقة من بين كل ما وجد في الماضي أو يوجد اليوم من التصورات المختلفة للحياة الدنيا ، وأنه هو التصور الوحيد الذي قد روعي فيه مابين الانسان والدنيا من العلاقة . ما الدنيا بموجب هذا التصور بشيء يستحق النبذ والازدراء والنفرة والمقت ، ولا بشيء يستحق أن يولع به الإنسان وينسى نفسه في ملذاته ومباهجه ، فلا هي شر كلها ولا هي خير كلها . ولا يصح اجتنابها ولا الانغماس في مفاتنها ، ولا هي بنجاسة كلها ولا هي بطهارة كلها . ثم إن الإنسان ليس في علاقته بها بملك في مملكته ولا بسجين في سجنه ، وان ليس الإنسان من الذلة والمهانة حيث يكون كل شيء فيها مسجوداً له ولا من الغلبة والقهر والكبرياء حيث يكون هو مسجوداً لكل شيء فيها ، ولا هو من الضعف والعجز حيث لا تكون لإرادته الشخصية قيمة ولا وزن ، ولا هو من القوة والمنعة حيث لا تكون الكلمة المسموعة ولا الحكم النافذ إلا لإرادته هو ، ولا هو حاكم مطلق وملك لا ينازع لهذا الكون ، ولا هو عبد ذلول وخادم خنوع لآلاف مؤلفة من السادة والكبراء . فما الحقيقة إلا حالة متوسطة بين هذه الأطراف المتناقضة والنهايات المتضاربة .

إلى هنا تأخذ بيدنا وتتولى إرشادنا وتوجيهنا الفطرة والعقل السليم. ولكن الإسلام يذهب إلى أبعد من هذا ويحدد تحديداً دقيقاً : ما هي مكانة الإنسان الحقيقية في هذه الدنيا ؟ وما هي نوعية ما يوجد

بين الإنسان وهذه الدنيا من العلاقة ؟ وأن الإنسان إذا استخدم هذه الدنيا وتصرف فيها فعلى أي وجه وبأي اعتقاد عليه أن يستخدمها ويتصرف فيها ؟ وهويفتح عيني الإنســان إذ يقول له : إنك لست كأحد من المخلوقات بل أنت الخليفة المسؤول لرب العالمين على وجه الكرة الأرضية ، قد سخرت لك الدنيا بكل ما فيهـا من القوى والوسائل ، فأنت الحاكم للجميع والمحكوم والمنقاد لذات الله الواحد القهار ، وأن لك فضلاً على سائر المخلوقات ولكنك لا تستحق الكرامة والشرف الحقيقي إلا بأن تكون على الطاعة للذي قد فضلك على العالمين . بجعلك خليفته وبأن تمتثل أوامره وتقف عند حدوده ، وانك ما بعثت إلى الدنيا إلا لتتصرف فيها وتتمتع بخيراتها. ثم إن الأعمال الصالحة أو السيئة التي تعملها في حياتك الدنيا هذه ، هي التي ستترتب عليها النتائج الحسنة أوالسيئة والثمرات المرضية أو غير المرضية التي ستنالها في حياتك الآخرة فمن واجبك أن تكون في كل لحظة من لحظاتك في هذه الدنيا على شعور تام بتبعتك الشخصية ، ومسؤوليتك الذاتية ولا تغفل طرفة عين عن أن الله سيحاسبك حساباً دقيقاً على ماائتمنك عليه من حيث أنت خليفته ونائب عنه في هذه الدنيا .

مما لا مجـال فيه للريب أن ليس هذا التصور بجملة تفاصيله وجزئياته متمكناً في ذهن كـل فرد من أفراد المسلمين ، وأنه لا يدركه ادراكاً واضحاً كاملاً غير طائفة قليلة من أهل العلم فيهم ، ولكن مما لامجال فيه للريب في الوقت ذاته أن هذا التصور بما أنه راسخ في أس الحضارة الاسلامية وقاعدتها التي تقوم عليهـا ، فإن سيرة

المسلم ، على خلوها من كثير من خصائصها الحقيقية ، ليست بفارغة من تأثيرات هذا التصور . أفلا ترى أن فرداً من المسلمين إذا كان قد تربى في وسط الحضارة الإسلامية ، فمهما كان عمله ناقصاً لتأثير العوامل الخارجية ، فإنه لا بد على كل حال أن يكون ملتحماً مع روحه ونازلاً من شغاف قلبه الشعور بالأنفة وعزة النفس وعدم السجود لغير الله وعدم الخوف من غير الله ، والاعتقاد بأنه ليس بمستقل في هذه الدنيا وإنما هو مسؤول عن كل عمل من أعماله ، والاعتقاد بأن الدنيا هي دار العمل وأن الآخرة هي دار الجزاء ، والاعتقاد بأن سعادته أو شقاءه في الآخرة إنما ينحصران في حسن أو قبح أعماله الشخصية في الحياة الدنيا ، والاعتقاد بأن الدنيا وكل ما فيها من اللذات والمباهج والمتع فانية زائلة وأن أعماله الشخصية ونتائجها لها وحدها الدوام والبقاء والخلود . . . فهذه الأفكار والعقائد لا بد أن تكون نازلة من سويداء قلب المسلم ملتحمة مع روحه بحيث لكل مستبصر عميق النظر أن يشعر بتأثيراتها في أقواله وأعماله وحركاته وسكناته ، مهما كانت هذه التأثيرات ضئيلة خفيفة في حد ذاتها .

ثم إنه لا بد أن يعرف كل شخص إذا درس تاريخ الحضارة الإسلامية ، أن هذه الحضارة كانت حضارة عملية بحتة مادامت على إسلاميتها ، فما كانت الدنيا في نظر أبنائها إلا مزرعة للآخرة وكانوا على الدوام يبذلون مساعيهم في أن لا ينفقوا لحظة من لحظات حياتهم الدنيا ، ما بقيت لهم ، إلا في تعهد هذه المزرعة بالسقي والري ويبذروا فيها أكثر ما يستطيعون من البذور ليكون نصيبهم أوفر

ما يكون من حصاد الحياة الآخرة وقد استفادوا من الدنيا واستمتعوا بها وتصرفوا فيها على وجه متوسط بين الرهبانية والنفعية ، مما لا نعثر له على عين ولا أثر في أية حضارة أخرى في العالم . لقد كان تصورهم للخلافة الإلهية يحثهم على أن يستمتعوا بالدنيا وينتفعوا بنعمها ولذاتها انتفاعاً كلياً ويتظاهروا بكل نشاط وحماسة في الاضطلاع بشؤونها ، ولكن مع ذلك كانت فكرة المسؤولية والتبعة تأخذ بحجزهم ولا تدعهم يتخطون ما وضع الدين من الحدود لحياتهم وصلاحياتهم . وكانوا على أوفر قسط من الأنفة وعزة النفس لما كانوا يرون في أنفسهم خلفاء الله والنائبين عنه في أرضه ، ولكن في الوقت ذاته كان هذا التصور نفسه يحول دون أن ينشأ فيهم الاستكبار والغطرسة والأبهة وشموخ الأنف بغير الحق . وكانوا لأداء واجبات الخلافة يرغبون في كل ما عسى أن يساعدهم بصدد تسيير شؤون العالم ، ولكن كانوا في الوقت نفسه يربؤون بأنفسهم عن أن يأتوا بشيء يغمسهم في اللذات والشهوات ويلهيهم عن القيام بواجبهم الحقيقي . وجماع القول أنهم كانوا ينجزون أعمال الدنيا ويسيرون شؤونها كأنهم خالدون فيها إلى أبد الآباد ، ولكن مع ذلك كانوا يحذرون من الانغماس في لذاتها كأنهم في هذه الدنيا غرباء أو عابرو سبيل .

ثم لما ضؤل في هذه الحضارة أثر الإسلامية وقل فيها عنصرها وتأثر أبناؤها بالحضارات الأجنبية ولم يبق في حياتهم شأن للإسلامية كان فيها من قبل ، أتوا بكل ما كان متنافياً مع تصور الإسلام للحياة الدنيا . انغمسوا في اللهو والطرب واللعب والترف والبذخ

وأشادوا قصوراً شامخة وأدلوا بدلوهم في الموسيقى والتصوير والنحت وما إليها من الفنون الجميلة الأخرى. وفي حياتهم الاجتماعية والمدنية جنحوا إلى التبذير والدعة ورغد العيش غير مبالين بالذوق الإسلامي. وفي السياسة والحكومة سلكوا طرقاً ما كانت من الإسلام في شيء ، ولكن على كل ذلك كان التصور الإسلامي للحياة الدنيا — وكان قد نزل من سويداء قلوبهم والتحم بأرواحهم وسيط بدمائهم — يأبى إلا أن يبرز أثره في جملة نواحي حياتهم على وجه من الوجوه وهذا الأثر هو الذي كان يميزهم عن غيرهم ويعلي شأنهم بإزائهم فملك من ملوك المسلمين — مثلاً — يشيد قصره على ضفاف نهر جمنا قريباً من مدينة دهلي ويزوده بكل ما كان للإنسان أن يتصوره في ذلك الزمان من مظاهر الأبهة ودلائل النعيم والدعة والرفاهية، ولكن يأبى عليه أثر الإسلامية إلا أن ينقش في أهنأ متفرج وأبرز مكان في ذلك القصر هذا الشعر الفارسي :

أي بند بپائي وقفل بردل هشدار

وي دوخته جشم وبائي در كل هشدار

عزم سفر مغرب ورودر مشرق

أي راه روبشت بمنزل هشدار

« حذار يامن في رجليه الغل وعلى قلبه القفل . حذار يامن عيناه مكفوفتان ورجلاه في الطين . إنك عازم على السفر إلى الغرب مع أنك متوجه إلى الشرق . حذار يامن ظهره إلى غايته التي يريدها » .

إن هذا القصر ليس في حد ذاته مما لا نظير له ، ومن الممكن أن

توجد لدى أمم الأرض الأخرى قصور أكثر منه جمالاً وعظمة ، ولكن أمم الأرض الأخرى لا نظير فيها للفكرة التي نبهت باني الفردوس على وجه الأرض على « حذار يا من ظهره إلى غايته التي يريدها » .

إن التاريخ الإسلامي غير بخيل بحوادث كثيرة تبين أن الذين كانوا يحكمون على طريق قياصرة الروم وملوك الفرس لما انتصروا على عدوهم ، خروا سجداً لله الواحد العلي العظيم بدل أن يعلنوا كبرياءهم وشدة بأسهم ، وأن الملوك الجبابرة الطغاة لما هموا بشيء يخالف الشريعة الإسلامية ، قام في وجههم عبد من عباد الله ينبههم على سوء عاقبة أعمالهم ، فهناك على الفور اقشعرت أبدانهم من خشية ربهم ، وان الفجار وقساة القلوب من الدرجة الأولى ، قد تنبهوا للحق واهتدوا إلى سبيله بشيء تافه وفجأة تبدلت حياتهم رأساً على عقب ، وان الذين كانوا كلاب الدنيا وكان حطام الدنيا الفاني هو جل همهم في حياتهم ، لما مرت بخلدهم فكرة زوال الدنيا واقتراب حساب الآخرة ، وزعوا كل ما كان في أيديهم من أموال الدنيا ومتاعها ومالوا إلى البساطة والاقتصاد في حياتهم دفعة واحدة .

وجماع القول أنك لا بد أن تجد جلاء التصور الإسلامي عند كل خطوة في سير حوادث تاريخ المسلمين القومي على رغم كل ما راج فيهم من تأثيرات الحضارات الأجنبية ، ولو على صور متنوعة ومظاهر مختلفة ، ولا بد لك أن تشعر عند رؤيته كأن نوراً قد تلألأ من بين الظلمات الكثيفة الحالكة .

الباب الثاني

غاية الحياة

أما السؤال الثاني الذي له أهميته بصدد تمحيص حضارة من الحضارات ومعرفة درجتها من الصلاح أو الفساد ، والحسن أو القبح ، والخير أو الشر ، والنفع أو الضرر ، فهو : ماهي الغاية التي تعرضها هذه الحضارة على الإنسان وتطالبه بالسعي لبلوغها في حياته ؟ . . . وهذا السؤال ذو أهمية بالغة وخطورة قصوى ، لأن الإنسان بحكم فطرته التي فطر عليها ، لا يتوجه بإراداته ومساعيه إلا إلى هدف قد جعله غاية يرنو إليها ببصره ويتمنى الوصول إليها في حياته . فعلى كون هذا الهدف صالحاً أو فاسداً تتوقف ذهنية الإنسان في صلاحها أو فسادها ، وعلى سموه أو دناءته تتوقف أفكاره وآراؤه في سموها أو دناءتها ، وأخلاقه وآدابه وطبائعه في فضيلتها أو رذالتها ، وحياته الاجتماعية والمدنية والاقتصادية في ارتفاعها أو انتكاسها ، وعلى كونه واضحاً محدداً أو مبهماً مغلقاً تتوقف إراداته ونياته في اجتماعها أو تشتتها ، وأعماله وأفعاله في انسجامها أو

فوضويتها ، ومواهبه وكفاءاته في انصرافها في سبيل واحدة أو انتشارها في سبل متفرقة متعددة . وجملة القول أن غاية الإنسان في حياته هي التي لأجلها يختار الإنسان طريقاً واحداً واضحاً من بين عدة طرق متفرقة للفكر والعمل ولا يستنفد كل جهوده العقلية والجسدية وكل وسائله المادية والمعنوية إلا فيه . وعلى هذا إذا أردنا أن نستعرض حضارة من الحضارات الإنسانية المتعددة ، ونضعها في ميزان النقد العلمي ، فإنه لا بد لنا من البحث في غايتها التي تدعو الناس إلى أن لا يطمحوا بأبصارهم إلا إليها ، ولا يبذلوا كل جهودهم وقواهم العملية إلا لبلوغها وتحقيقها .

الخصائص اللازمة لغاية اجتماعية راشدة

ولكن قبل أن نخطو خطوة في سبيل البحث والتحقيق في هذه القضية المهمة ، يجب علينا أن نحدد تحديداً واضحاً كاملاً : ما هو المراد بغاية الحضارة ؟

مما لا خفاء فيه اننا عندما ننطق بكلمة الحضارة ، لا نعني بها حضارة الأفراد الشخصية ، وإنما نعني بها حضارتهم الاجتماعية . لهـذا فإنه من المحال أن تكون غاية كـل فرد منهم ، أي غـايته الشخصية ، هي غاية الحضارة ، ولكن من اللازم — على العكس من هذا — أن تكون غاية كل حضارة هي غاية كل فرد من الأفراد المتبعين لتلك الحضارة ، بصرف النظر عما إن كان ذلك الفرد على شعور بها أو لم يكن كذلك . وعلى هذا ليست غاية الحضارة إلا التي تشترك فيها جماعة كبيرة من الناس على شعور أو على غير شعور منها

وتكون من الغلبة على غايات أفرادها الشخصية حيث لا يكون لأي منهم إلا الغاية التي هي للجماعة كلها .

ومن الشروط اللازمة لغاية اجتماعية مشتركة – كهذه – أن تكون على توافق تام وانسجام كلي مع غايات الأفراد الشخصية وتكون صالحة لتكون غاية فردية وغاية اجتماعية في آن واحد ، لأن الغاية الاجتماعية إذا كانت متنافية مع غايات الأفراد الشخصية فإنه من المحال أن تكون غاية اجتماعية بمعناها الصحيح الكامل ، لأن أية فكرة إذا أبى الأفراد أن يقبلوها على انفرادهم ، لا يمكن أن تصير هي غايتهم الاجتماعية ، وإذا صارت غايتهم الاجتماعية تحت أثر قوي غير عادي، فلا بد أن يستمر هناك صراع عنيف بين غايات الأفراد وغاية الجماعة على وجه مشعور أو غير مشعور به ، ولا بد مع زوال ذلك الأثر القوي غير العادي أو ضعفه وانتكاسه أن يرجع كل واحد من الأفراد إلى غايته الشخصية ويتخلى عن الغاية الاجتماعية فهناك لابد أن تبطل هذه الغاية الاجتماعية وتفقد الهيئة الاجتماعية قوتها لجاذبية الأفراد إلى نفسها والربط بينهم إلى أن لا تبقى لحضارتهم عين ولا أثر بعد مدة من الزمان . لهذا كله فإن الحضارة لا تكون غايتها الصحيحة إلا الغاية التي هي غاية الإنسان الفطرية ، وما المزية الحقيقية لحضارة ما إلا أن تعرض الإنسانية على غاية اجتماعية تكون في الوقت ذاته غاية شخصية لكل فرد من الأفراد .

ونحن إذا نظرنا في القضية تحت البحث من هذه الناحية ، فهناك سؤالان يقفزان إلينا قفزاً ، ومن المحال أن نتابع بحثنا بدون حلهما وهما :

١ — ماهي غاية الإنسان الشخصية بحكم الفطرة ؟

٢ — إلى أي حد تتلاءم مع غايته الشخصية هذه الغايات الاجتماعية المتعددة التي قد عرضتها مختلف حضارات العالم قديماً وحديثاً ؟ .

غاية الانسان الفطرية

إن السؤال عن غاية الإنسان الفطرية ، هو في حقيقة أمره السؤال التالي : ما هي الغاية التي للوصول إليها يكدح الإنسان ويناضل ويصارع في حياته الدنيا بسائق فطرته ؟ وما هو الشيء الذي ترغب فيه طبيعته لتحقيق ذلك ؟ إذا وجهنا السؤال إلى كل فرد من أفراد الإنسانية عما يريده ويرنو إليه بصره في حياته ، علمنا أن جواب كل واحد منهم يختلف عن جواب غيره ، وأن ليس هنالك فردان يتحدان بينهما بشأن غايتهما ورغباتهما في الحياة ، ولكننا في الوقت نفسه إذا استقصينا أجوبة جميع هؤلاء الأفراد ، وحاولنا أن نعرف القدر المشترك بينها علمنا أن الأمور التي قد جعلها الناس غاياتهم في الحياة ، ما هي بمقصودة في حدذاتها وإنما هي وسائل لبلوغ غاية مشتركة واحدة هي السعادة النفسية والطمأنينة القلبية ، أو بكلمة أخرى إن كل فرد — مهما كانت درجته من التعقل والتفكر ، وإلى أية طبقة عمرانية كان ينتسب ، وفي أي شعبة من شعب الحياة كان

يشتغل وفي أي مجال من مجالات العمل كان يصرف جهوده ومساعيه — لا يطمح ببصره من وراء كل جهوده وأعماله وأفكاره إلا إلى غاية واحدة هي أن ينال لنفسه الأمن والسعادة والمسرة والطمأنينة . فيصح — إذن — أن نقول ، إن هـــذه هي غاية الإنسان الفطرية في حياته الدنيا .

غايتان اجتماعيتان مقبولتان في ميزان النقد

أما الغايات التي قـــد عرضتها مختلف حضارات العالم ، قديمـــاً وحديثاً ، لحياة الانسان الاجتماعية ، فنحن إذا نظرنا فيها ، بكل مالها من التفاصيل والجزئيات ، وجدنا أن فيها اختلافات كثيرة لا يمكن حصرها ولا نريده هنا ، عـــلى أن لنا أن نقسمها قسمين :

١ — أما الحضارات التي لا تقوم على أساس فكرة دينية معنوية فقد عرضت على اتباعها التفوق والترفع كغاية لهم مشتركة . وهذه الغاية تتركب من عدة أجزاء من أهمها :

طلب الغلبة والسطوة السياسية .

الرغبة في التفوق عـــلى سائر أمم الأرض وشعوبها في الـــثروة وكثرة الأموال ، بصرف النظر عما إن كانت هذه الرغبة تتحقق بفتح بلادها والسيطرة على خيراتها ووسائلها أو بالاستيلاء على تجارتها وصناعتها .

الرغبة في سبق ســـائر أمم الأرض وشعوبها في مظـــاهر التقدم

العمراني باعتبار العلوم والفنون والآداب أو باعتبار العظمة والأبهة في آثار المدنية والحضارة .

إن هذه الغاية الاجتماعية في ظاهر أمرها غير متنافية مع غاية الأفراد الشخصية التي ذكرناها آنفاً ، لأنها إذا تحققت تحققت غاية كل فرد مع شيء زائد وهذا هو وجه التغرير والخداع في هذه الغاية الاجتماعية ، الــذي لأجله يضيع فيها ويتناسى في سبيل تحقيقها عشرات الملايين ومآتهــا من أفراد أمة من أمــم الأرض غايتهم الشخصية ، ولكن الذي قد ثبت بالنظر العميق والتجارب العملية هو أن هذه الغاية الاجتماعية متنافية مع غاية الإنسان الفطرية . ذلك أن الدنيا لا تكون فيها أمة واحدة تهدف إلى تحقيق غاية التفوق والترفع لنفسها ، بل تكون فيها عدة أمم في زمن واحد كلها تهدف إلى هذه الغاية وكلها تبذل أقصى ما عندها من الجهود والقوى بينها لبلوغها وتحقيقها مما يكون من نتيجته المحتومة أن هذه الأمم يقوم بينها صراع عنيف في مجالات السياسة والاقتصاد وتنشب بينهــا حروب دامية للتنافس والتزاحم حتى ليتعذر على الأفراد أن ينالوا شيئاً من الأمن والسلام والسعادة النفسية والطمأنينة القلبية في مشاغب القلق والاضطراب ، وهذا عين ما عليه الوضع في البلاد الغربية اليوم. على أننا إذا فرضنا زمناً لا تكون فيها إلا أمة واحدة هي التي تهدف إلى هذه الغاية ولا تكون بجانبها أمة أخرى لمزاحمتها ومنازعتها ، فإنه من المحال البتة أن تتحقق غاية الأفراد الشخصية بنجاحها في تحقيق غايتهــا ، لأنه من عــين مــا تقتضيه فطرة غــاية اجتماعية كهذه أنها لا تحدث الصراع والمنافسة بين الأمم والشعوب

فحسب ، بل تحدثهما كذلك بين أفراد أمة بذاتها ، ولأجلها يصبح كل فرد من أفراد تلك الأمة يهدف إلى أن يتغلب على سائر أفراد أمته ويفوقهم في الثروة والحكومة والسيادة والقوة والبطش ومظاهر الترف والتأنق والتنعم والدعة والرفاهية ويحكم القبض على مفاتيح رزقهم ويحتكر أكبر قـدر ممكن من وسائـل معيشتهم وموارد ثروتهم ، حتى لا تكون المشتهيات والملذات والمنافع إلا خالصة لنفسه ، ولا تكون الآلام والمضار والخسائر إلا لغيره ، وأن لا يكون صاحب الأمر والسلطان إلا هو وحده ولا يكون كل من سواه إلا خاضعاً لإرادته عاملاً لحسابه مسخراً لمصلحته مفتقراً إلى سدته . إن طمع أمثال هؤلاء وشرههم لا يعرف لنفسه حداً يقف عنده ولذا فهم دائماً مضطربون قلقون لا يهنأ لهم بال ولا يقر لهم قرار وفوق هذا فإن من الحقيقة أن التنافس عندما يحدث بين أبناء أمة ذاتها ، فإن كل بيت من بيوتها وكل سوق من أسواقها تنقلب إلى ميدان للصراع والاحتكاك ويتلاشى فيها الأمن والسلام والبهجة والسرور والسعادة النفسية والطمأنينة القلبية ، مهما تكدس لديها من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ومهما كانت قد حظيت به من الغلبة والحكومة والسطوة ومهما كثر عندها من مظاهر الأبهة ودلائل النعيم .

وفوق هذا وذاك فإن من عين ما تقتضيه فطرة الإنسان أن التقدم المادي إذا لم يكن فيه نصيب للروحانية والمعنوية ، فإنه لا يستطيع أن يطمئن الإنسان ويجلب إلى نفسه السعادة والقناعة ، إذ ليس الحصول عـلى الملذات الحسية إلا غاية حيوانية بحتة . وإذا صح القول بـأن الإنسان شيء زائد على الحيوان المطلق ، وجب أن يصح القول بأنه

من المحال أن يجلب الطمأنينة والقناعة والسعادة إلى الإنسان مجرد أن ينال ما تكون لذاته كافية لقضاء شهواته الحيوانية والتخفيض من غلوائها .

٢ ــ وأما الحضارات القائمة على أساس فكرة دينية معنوية ، فإنها في الغالب قد قررت « النجاة » هي غايتها التي تقصدها .

لا شك أن النجاة كغاية في الحياة يوجد فيها ذلك العنصر المعنوي الذي يمنح الإنسان السعادة النفسية والطمأنينة القلبية . ولا شك كذلك أنه كما في الإمكان أن تكون النجاة غاية للأمة أو الجماعة ، كذلك في الإمكان أن تكون غاية لكل فرد من أفرادها ولكننا إذا أمعنا النظر في هذه النكتة ووضعناها في ميزان النقد العلمي علمنا أنه من المحال أن تكون هذه الغاية غاية صحيحة ، وذلك لعدة أسباب

١ ــ إن النجاة كغاية في الحياة يكمن فيها نوع من الأثرة ، ومن مزية هذه الأثرة وطبيعتها أنها توهن الاجتماعية وتقوي الفردية ، لأنه إذا كان باستطاعة كل فرد أن ينال النجاة بأداء مجموعة من الأعمال المخصوصة ، فان هذه الغاية لا يبقى فيها شيء يرفعها من درجة الفردية إلى درجة الاجتماعية ويحرض الفرد على الاشتراك مع الجماعة لتحقيقها . ومعلوم أن روح الفردية هذه متنافية مع الغاية التي هي عين مقصود الحضارة ، من حيث هي .

٢ ــ إن مسألة النجاة لها علاقة وثيقة بمسألة طريق الحصول على النجاة ، ولصحتها أو فسادها ــ كغاية في الحياة ــ دخل كبير لاستقامة أو اعوجاج الطريق المختار لبلوغها ، فالديانات التي قد قررت الرهبانية والاعتزال عن الدنيا وسيلة للحصول على النجاة ،

لا يمكن أن تكون فيها النجاة غاية للأفراد ولا للجماعة ، ولذا قد اضطر المتدينون بمثل هذه الديانات إلى أن يفرقوا بين الدين والدنيا ويخترعوا طريقاً متوسطاً كخدمة رجال الدين أو أداء الكفارة مثلاً لنجاة رجال الدنيا ، مما قد نتج عنه أن هذه الغاية مابقيت غاية مشتركة بين الأفراد والجماعة سواء بسواء ، ولأنه مابقي غير جماعة قليلة من الناس — وهم الذين يعرفون برجال الدين — يرون فيها لأنفسهم شيئاً من الرفعة والأهمية والجاذبية يجعلهم مولعين بها أو يحافظ على ولوعهم بها بصفة مطردة ، فقد أعرض عنها كل واحد من رجال الدنيا وسعى سعيه وراء الغاية المادية البحتة التي قد ذكرناها آنفاً .

هذا من جانب ومن جانب آخر فإن الديانات التي قد قررت أن الإنسان لايستطيع أن ينال النجاة إلا باسترضاء آلهة متعددة وأرباب متفرقة ، لا يبقى أهلها مشتركين بينهم يساعد بعضهم بعضاً للحصول على النجاة ، بل هم يتفرقون قدداً ، ويتوزعون إلى طوائف تتجه كل واحدة منها إلى آلهة مختلفة ، مما يعدم فيهم ذلك الاتحاد والانسجام الذي لابد منه لتحقيق غاية مشتركة ، والذي إنما إقامته وربط جميع الأفراد في سلكه هو الوظيفة الأولى والرئيسية لكل حضارة من الحضارات . لأجل هذا فإن المتدينين بمثل هذه الديانات عندما يريدون أن يسلكوا طريق التقدم الدنيوي ويجمعوا كلمتهم ، يجدون أنفسهم بحاجة شديدة إلى غاية أخرى غير غاية « النجاة » .

على أن هناك ديانات أخرى قد قررت النجاة غايتها في الحياة ، ولكنها عندما تدعو الناس إلى حظيرتها ، لا توجه خطابها إلى الإنسان

من حيث هو ، وإنما توجهه إلى سلالة خاصة من سلالاته أو إلى أمة ساكنة في حدود جغرافية خاصة ، لأن النجاة لا تكون في نظرها إلا وقفاً على تلك السلالة الخاصة أو على الأمة الساكنة في تلك الحدود الجغرافية الخاصة .

لا شك أنه من الممكن أن تكون هذه الغاية غاية اجتماعية ناجعة في المرحلة الأولى من مراحل المدنية والحضارة ، ولكن لأنها ناقصة في ميزان العقل السليم ولأن فكرتها – وقضية النجاة على سلالة خاصة – فكرة لا يستسيغها عقل كل إنسان سليم الفطرة ، فالمتدينون بمثل هذه الديانات لا يتقدمون في طريق التقدم العقلي خطوات يسيرة ، إلا ويجدون أنفسهم مضطرين إلى نبذ هـذه الغاية وراء ظهورهم واحتقارها والتخلي عنها ليجعلوا وجهتهم إلى غاية أخرى سواها .

٣ – إن النجاة مهما كانت غاية طاهرة سامية من وجهة النظر الدينية والمعنوية ، فليس فيها من وجهة النظر الدنيوية شيء يستطيع أن ينهض بأمة من حيث مجموعها ويحدث فيهـا القوة والحرارة والحيوية والحركة التي هي من لوازم التقدم القومي ، ومن ثم فإن الأرض ما وجدت فيها أمة قد تبنت هذه الغاية كغاية اجتماعية لنفسها واقتصرت على أن تكون غاية للأفراد حتى بين الأمم التي تغنت بمحاسنها ولم تقدم ديانتها غاية أخرى سواها .

هذه هي الأسباب المهمة التي نقول على أساسها : إنه ليست الغايات المادية البحتة ولا الغايات المعنوية البحتة إلا ناقصة في ميزان النقد العلمي النزيه . وتعال لنرى الآن ما هي الغاية التي تقصدها الحضارة

الإسلامية وماذا فيها من الخصائص والمزايا التي قد جعلت منها غاية صحيحة للإنسان في حياته الفردية والاجتماعية معاً ؟

غاية الحضارة الإسلامية

إنه ليجمل بنا قبل أن نتصدى لبث هذه المسألة ، أن نبين أن لمسألة غاية الحياة علاقة وثيقة بمسألة تصور الحياة .

إن أذهاننا إذا كان فيها تصور خاص للحياة الدنيا ولمنزلتنا في في الدنيا ولمنزلة الدنيا في نظرنا ، فإن هذا التصور لا بد أن يكوّن لنا غاية خاصة في الحياة ويجعلنا نبذل كل جهودنا ومواهبنا وقوانا في سبيل تحقيقها . فنحن إن كنا نعتقد الدنيا مرعى لأنفسنا وكانت الحياة في نظرنا عبارة عن فرصة قد أتيحت لنا للأكل والشرب والتمتع بملذات الدنيا ومشتهياتها ومباهجها ، فإن هذا التصور لا بد أن يرسخ في أذهاننا ويلقي في روعنا غاية حيوانية بحتة ويجعلنا لا نصرف كل جهودنا وقوانا طيلة أيـــام حياتنا إلا في جمع أسباب اللذات الحسية والمباهج المادية . وعلى العكس من هذا إذا كنا نعتقد أنفسنا جناة بالولادة عصاة بالفطرة ، وكنا نعتقد الدنيا داراً للعذاب لم نرسل إليها إلا لنذوق وبال جنايتنا وعصياننا ، فإن هذه العقيدة لا بد أن تحدث فينا الرغبة في الفرار عن هذا العذاب ما استطعنا ونقرر النجاة هي غايتنا في الحياة . ولكننا إذا كنا نعتقد الدنيا شيئاً أرفع من المرعى ودار العذاب معاً ، وكنا نعتقد منزلتنا الإنسانية أرقى وأرفع من منزلة الحيوانات والجناة معاً ، فلا بد أن نجد أنفسنا طامحين بأبصارنا إلى غاية أسمى من طلب الملذات الحسية وطلب النجاة معاً ولا نقتنع أبداً بغاية من الغايات السافلة الدنيئة .

إننا إذا وضعنا هذه القاعدة نصب أعيننا ومع ذلك رأينا أن الإسلام قد قرر الإنسان خليفة الله ونائباً عنه في أرضه ، فلا بد أن يتوصل عقلنا — بطبيعة الحال — إلى الغاية التي تتولد — ويجب أن تتولد — من هذا التصور للحياة .

هل لنائب — من حيث هو نائب — أن يتخذ لنفسه غاية سوى أن يحاول وسعه ويستنفد جهوده لاسترضاء من هو نائب عنه وليكون في نظره خادماً مطيعاً وفياً يعرف واجبه ويؤديه على أحسن وجه يرتضيه ؟ وهل له إذا كان صادقاً مخلصاً أميناً أن يحسب أن له غاية في الحياة سوى خدمة سيده والعمل على ابتغاء رضوانه ؟ وهل إنما يقوم بأداء واجبه طمعاً في منفعة أو جزاء أو ترقية في الجاه والمنصب كأجرة على أعماله ؟ كلا ! إنه لا يطمع في شيء من كل هذا مادام يعتقد نفسه — عن إخلاص وأمانة — خادماً لسيده مطيعاً وفياً عاملاً على ابتغاء مرضاته . أما أن يرضى عنه سيده ويعطيه كل ذلك ، فهذا ما لا يرجع إلا إلى مشيئة سيده ، كما أن لسيده — بمحض مشيئته — أن يسمح له بأن يتوقع كل ذلك جزاء على إحسانه في الخدمة ، ولا بأس كذلك بأن يعلم هذا الخادم أنه إذا نال مرضاة سيده بأداء واجبه على وجهه الصحيح الكامل ، فإنه سيجزيه كذا وكذا ، ولكنه إذا جعل الجزاء هو غايته ولم يؤد واجبه إلا طمعاً فيه فهل يكون خادماً وفياً يعرف واجبه ويؤديه على أحسن وجه يرتضيه سيده ؟ . . . ولنا أن نقيس على هذا المثال ما بين الإنسان وربه ، فالإنسان إذا كان خليفة الله ونائباً عنه في أرضه ، فهل من الجائز له أن يتخذ لحياته غاية سوى ابتغاء مرضاة الله سيده ومولاه ؟

إن هذه لهي الغاية التي يقتضيها كل من العقل والفطرة على أساس هـــذا التصور للحياة ، وهي — بدون أدنى فرق — الغاية التي قـــد عرضها الإسلام على الإنسان ودعاه إلى اختيار ها لنفسه. إنك إذا تتبعت آي القرآن ، رأيت بدون ما ارتياب أن هذه الغاية هي التي قد أكدها القرآن وأبدأ وأعـــاد لإرساخها في ذهن الإنسان وإنزالها من سويداء قلبه وقد أبطل كل غاية سواها وندب على المعرضين عنها بأبلغ أسلوب وأوقع كلمات . يقول عزمن قائل :

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المسلمين) [الانعام:١٦٢، ١٦٣]

(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ . . . فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُم به وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم) [التوبة:١١١]

والتعريف الوارد في سورة البقرة للعبد المطيع هو أنه يشري ، أي يبيع نفسه لينال مرضاة الله كأن هذا هو الفرق بينه وبين العبد العاصي :

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ، والله رؤوف بِالعِباد) [البقرة : ٢٠٧] .

وقد قيل في سورة الفتح : إن المسلم هو من لم تكن صداقته ولا عداوته ولا ركوعه ولا سجوده إلا لله وحده :

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلى الكفَّار رُحماءُ بَينَهُم تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّدًا يَبتَغُونَ فضْلاً مِن الله ورضواناً﴾ [الفتح : ٢٩] .

والسبب المذكور في سورة محمد لحبوط أعمال الكفار أنهم لا يعملون شيئاً لوجه الله وإنما يبتغون به مرضاة غيره وهكذا لا يكسبون به سوى غضب الله :

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهم اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ الله وكَرِهُوا رِضوانَهُ فَأَحبَط أَعْمالَهم﴾ [محمد : ٢٨] .

وقد قيل في سورة الحج : إن العبادة إن كانت للمنافع الدنيوية واللذات العاجلة فلا فائدة منها وإنما هي سبب لشقاء الإنسان وخسرانه :

﴿ومِنَ الناس مَن يَعبُدُ الله على حرفٍ . . .﴾ [الحج : ١١] .

وقد قيل في سورة البقرة : إن الصدقة وأعمال البر إذا لم يقصد بها وجه الله وإنما قصد بها ثناء الناس وحسن قالتهم أو كان الإنسان يمنها على غيره، فهي باطلة :

﴿فَمَثَلُهُ كَمثَلِ صَفوَانٍ عَليهِ تُرابٌ فأَصابَه وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لا يقْدِرُونَ علىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ، والله لا يَهدي ٱلْقَومَ ٱلْكَافِرِينَ . ومَثَلُ الَذِينَ يُنْفِقُونَ أَموَالَهم ابْتِغَاءَ مَرْضاةِ الله

وتَثْبِيتاً مِن أنْفُسِهم كَمَثلِ جنَّةٍ بِرَبوَةٍ أَصابَها وَابِلٌ فَآتتْ أُكُلَهَا ضِعْفَينِ فَإن لم يُصِبْها وَابِل فَطَلٌّ) [البقرة : ٢٦٤-٢٦٥]

وقد أكد القرآن الكريم وكرر في غير موضع من آياته دعوة المسلمين إلى أن لا يعملوا شيئاً إلا ابتغاء وجه ربهم وحده :

(وَما تُنفِقُوا مِن خَيْرٍ فَلأَنفسِكُم ومَا تُنْفِقُونِ إلا ابتِغَاءَ وَجهِ الله) [البقرة : ٢٧٢] .

(والذِينَ صَبرُوا ابْتِغَاءَ وجْهِ رَبِّهِم وأَقامُوا الصلاةَ وأَنْفَقوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِراً وعَلانِيَةً ويدْرؤُونَ بالحَسَنَةِ السَّيِّئةَ ، أُولئكَ لَهُم عُقبَى الدارِ) [الرعد : ٢٢] .

(وسَيُجنَّبُها الأَتقَى . الذي يُؤتي مَالَه يتزَكَّى . وَمَالأَحَدٍ عِنْده مِن نِعْمَةٍ تُجزَىٰ . إلا ابْتِغَاءَ وَجهِ ربِّهِ الأَعلى . ولَسوف يَرْضى) [الليل : ١٧ - ٢١] .

(فَآتِ ذَا القُرْبى حَقَّه والمِسْكِينَ وابْنَ السَّبِيل ذٰلك خَير لِلذِينَ يُرِيدُونَ وَجهَ الله وأُولَئِك هُمُ المفلِحون. وَمَاآتَيْتُم مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فأُولَئِكَ هُمُ المُضْعِفُونَ) [الروم : ٣٩]

(ويُطْعِمُونَ الطعامَ على حبِّهِ مِسْكِيناً ويَتِيماً وأَسِيرا . إنما نُطعِمُكُم لِوجْهِ الله لا نُرِيدُ مِنكُم جزَاءً ولا شُكُورا . إنَّا نَخَاف

مِن ربِّنا يوماً عَبُوساً قَمطرِيرا . فوَقَاهُمُ الله شَرَّ ذٰلِك ٱلْيوم ولقَّاهُم نضْرةً وسُرُورا) [الدهر : ٨ – ١١] .

(لِلفُقرَاءِ ٱلمهَاجِرِينَ الذِين أُخْرِجُوا مِن دِيارهم وأموَالهم يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ الله ورضْواناً ويَنْصُرُونَ اللهَ ورَسولَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) [الحشر : ٨] .

(إنَّ الله يُحِبُّ الذِين يقَاتِلُون في سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيانٌ مَرْصوصٌ) [الصف : ٤] .

(الذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ في سَبِيْلِ الله وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ الطَّاغُوت) [النساء : ٧٦] .

وهذا التعليم قد جمعه صاحب جوامع الكلم صلوات الله عليه وسلامه في قوله الموجز التالي : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه » .

ولعله قد اتضح بكل هذا البحث أن ليس هناك إلا شيء واحد هو الذي قد قرره الإسلام غاية الإنسان في حياته ومقصوده من وراء كل مجهوداته ومساعيه وهدفه الذي يجب عليه أن يطمح إليه ببصره ، وهو ابتغاء وجه الله ونيل رضوانه فعلينا أن ننظر الآن : ما هي مزايا هذه الغاية وخصائصها التي قد جعلت منها أسمى وأكمل غاية للإنسان في حياته ؟

– التجاوب والتوافق بين الغاية الفطرية والغاية العقلية

إن تصور الإسلام للكون – وقد تجاوز حدود التصور حتى دخل حدود الإيمان واليقين – هو أن الله سبحانه وتعالى هو المالك الوحيد لهذه المملكة غير المحدودة ، مملكة الكون والوجود ، وأنه هو الذي يطيعه ويتبع أحكامه كل موجودات العالم :

(ولَهُ مَن في السمٰوات والأَرضِ ، كُلٌّ لهُ قَانِتُونَ) [الروم: ٢٦]

وأنه هو الذي يخضع لمرضاته ويأتمر بأوامره معمل الكون كله في حركاته وسكناته :

(إِنِ الحُكمُ إلاَّ لله) [يوسف: ٧] .

وأنه هو الذي يرد إليـــه كـــل أمر صغير وكبير في هـــذا العالم وفي العوالم الأخرى :

(وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمورِ) [البقرة: ٢١٠] .

وذلك هو عين الإسلام ، إذ ليس معنى «الإسلام» لغة إلا الطاعة والانقياد والخضوع ، ومن ذلك نعلم أن هذا العالم – من أقصاه إلى أقصاه – بكل ما فيه لا يدين بسائق فطرته التي فطر عليها إلا – بالإسلام – طوعاً وكرهاً :

(ولَهُ أَسْلَمَ مَنْ في السمٰواتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكرهاً) [آل عمران:٧٣]

وهـــذا القانون الشامل الذي لا يعرف التغير ولا يقبل الاستثناء كما ينطبق على سائر الموجودات في هذا العالم ، كذلك ينطبق على الإنسان . فما هو بطبيعته وجبلته التي جبل عليها إلا خاضع لأمر الله الواحد الصمد ودائن بحكمه ومشيئته :

(فَأَقِمْ وَجهَكَ لِلدِّينِ حنيفاً ، فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَليها ، لا تبْدِيل لِخلْقِ الله ، ذٰلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ) [الروم : ٣٠]

وبموجب هـــذا التصور لا غاية ولا هدف ولا مقصود لكـــل موجودات العالم – بما فيها الإنسان – إلا ذات الحق تبارك وتعالى وهي – بجميعها – لا تتجه بطبيعتها إلا إليه وحده ، شأن كل شيءٌ في اتجاهه إلى مركزه ومرجعه . فكل ما يعوز الإنسان ، من حيث هو كائن ذو عقل وشعور ، هو أن يكون على شعور بغايته الفطرية هذه ويدركها بعقله وفكره ويوجه إليها جملة إراداته ونياته وأعماله ومساعيه ، وهو إذا فعل هذا ، توافقت غايته العقلية مع غايته الفطرية التي هي غاية كل موجودات العالم كما قلنا ، وحينئذ لابد أن تساعده كل جنود العالم وكل أجزاء نظام الوجود في بلوغه غايته هذه ، بل لا بد أن يكون هو – باعتبار مرتبته العقلية – رائدها وهاديها . ولكنه – على العكس من هذا – إذا أعرض عن هذه الغاية واتخذ غايته العقلية شيئاً غيرها ، فإنما يكون مثله كمثل رجل في موكب مزدحم يسير إلى جهة الغرب ، بل إن حصانه الذي يركبه في هذا الموكب ، لا يسير هو الآخر إلا إلى جهة الغرب ، أما هو نفسه فلا يدري ، بغفلته وغباوته ، إلى أية جهة يسير الموكب بل وحصانه الذي يركبه فيجعل قلبه معلقاً بالشرق ويجعل وجهته إلى مؤخر الحصان ، ومع ذلك فهو يجذب لجام الحصان ويبذل كل جهده ليجعل الحصان

يجري إلى الوراء . وهو أحياناً قد يجذب الحصان إلى الوراء بضع خطوات ، ولكن لا يلبث الحصان أن ينستأنف سيره إلى جهة الغرب مندفعاً بقوة الموكب الجارفة وبقوة سيره الفطري . وهكذا فإن هذا الرجل مضطر إلى أن يسير إلى جهة الغرب ، جهة الموكب ، خلافاً لنيته وإرادته ، ولكن لا كمسافر موفق سعيد بل كمسافر شقي خاسر ، لأنه لا يقدر أن يصل إلى المقام الذي قرره على غفلة منه ، غاية لنفسه ، وأما المقام الذي يصل إليه في واقع الأمر ، فهو مقام غير المقام الذي قرره غاية لنفسه وأخذ أهبته لسكناه .

٢ ـ القوة الجاذبة في النظام الإسلامي

إن ذات الإله ـ الله ـ كما قلنا سابقاً ـ هي المحور الذي يدور حوله نظام الدين الإسلامي وهي المركز الذي يسعى إليه كل جزء من أجزائه . وكل ما في هذا النظام ، . . . سواء أكان من قبيل النية والعقيدة ، أو من قبيل العبادة ، والصلاة ، أو مما له علاقة بشؤون الحياة الدنيوية ـ متوجه بقضه وقضيضه إلى هذه الذات المركزية المقدسة ومشدود بأسلاك قوتها الجاذبة الهائلة . و كلمتا الدين (الطاعة) والإسلام (الانقياد والخضوع) اللتان قد سمي بهما هذا النظام الديني ، فيهما دلالة واضحة على فطرة مسماهما وحقيقته .

ليس معنى الدين أو الإسلام إلا أن ينقاد العبد لمرضاة ربه ويخضع لمشيئته ويستسلم لأوامره ونواهيه بلا اعتراض ولا تردد . قال سبحانه وتعالى :

(ومنْ أَحْسَن دِيناً مِمَّن أَسْلَم وَجْهَه لله وهُوَ محْسِن) [النساء : ١٢٤]

(وَمَنْ يُسلِم وَجْهَه إلى الله وهوَ مُحسِن فَقَد استَمْسَكَ بِالعُرْوة اَلْوُثْقَى) [لقمان : ٢٢] .

ومما له دلالته على فطرة الإسلام ، على وجه أوضح من هذا ، أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عندمـــا يستسلمان لأمر الله ويخضعان لمشيئته ويقول الابن :

(ياأَبَتِ افْعَل ماتُؤمَر) [الصافات : ١٠٢]

ويقدم نفسه للسكين ويستعد الوالد لذبح فلذة كبده ونور بصره لالشيء إلا ابتغاء مرضاة الله ، فإن الله سبحانه وتعالى يعبر عن فعلتهما هذه بكلمة « الإسلام » وفي ذلك ورد في التنزيل :

(فَلَمَّا أَسلَمَا وتَلهُ لِلجَبِين . ونَادَينَاهُ أَن يا إبراهِيمُ قدْ صَدَّقْتَ الرُّؤيا) [الصافات : ١٠٣ ، ١٠٥] .

إذن لا شيءَ في نظام الإسلام الديني إلا لله وحده . فالصلاة إذا لم تكن لوجه الله ، فما هي إلا مجرد قيام وقعود وحركة لا معنى لها ولا طائل تحتها ، والصيام إذا لم يرد به وجه الله ، فما هو إلا فاقة وجوع ، والزكاة والصدقة إذا كانتا لابتغاء وجه الله فهما من أعمال البر والإحسان وإنفاق في سبيل الله وعليهما الأجر والثواب وإلا فما هما إلا التبذير والتبديد والإسراف . والجهاد إذا كان خالصاً لوجه الله وفي سبيل الله ، فهو أعظم عبادة وعليه أجزل ثواب وأحسن جزاء ، وإلا فما هو إلا مجرد قتل النفوس وإهراق

الدماء وإحداث الفساد في الأرض . وهكذا دواليك ، فإن سائر الأعمال التي قد دعا إليها الإسلام وحث عليها عباده وأمرهم بأدائها إذا كانت لله وفي سبيل الله ولم يبتغ بها إلا وجهه ، فعليها الأجر والثواب وهي جديرة بالقبول والثناء عليها ، وإلا فما هي إلا أفعال فارغة لا ثواب عليها ولا نتيجة لأدائها . والأعمال التي قد نهى عنها الإسلام وحذر منها ، إن كان الانسان يتجنبها ويبتعد عنها ابتغاء لمرضاة الله ونيل وجهه ، فله الأجر والثواب وإلا فلا قيمة لتجنبه إياها وابتعاده عنها .

فهذه المركزية القوية والتآنس والتوافق والانسجام الشامل الذي نراه في نظام الإسلام ، ما هو إلا وليد هذه الغاية ، إذ أن هذه الغاية هي القوة الجاذبة التي قد ولدت في كل أجزاء النظام الإسلامي قوة عظيمة وميلاً شديداً إلى المركزية ، مما يصح القول على أساسه بأن هذا النظام قد بلغ من الكمال والمتانة والانسجام مالم يبلغه النظام الشمسي بموجب علم الهيئة (علم حركات الأجرام السماوية) في زماننا الحاضر . فلولا هذه الغاية لما كان في الإسلام هذا النظام ولم يوجد فيه هذا الانسجام والتوافق .

٣ ــ التوافق والتجاوب بين الفكر والعمل

إن هذه الغاية كما قد أنشأت المركزية والتوافق والانسجام في نظام الإسلام الديني ، كذلك هي تنشئ توافقاً كاملاً وانسجاماً شاملاً في أفكار الإنسان وخيالاته وإراداته ونياته وعقائده وأعماله وحركاته . وهي مع هذا التوافق توجهه بكامله إلى هدف عال ومطمح للنظر سام من المحال أن يكون هناك مطمح للنظر وهدف

للحياة أرفع منه شأناً وأرقى منه منزلة . إن الإنسان إذا كان لا يقصد في حياته إلا مجرد إرواء شهواته الطبيعية أو مجرد تحقيق أغراضه النفسية أو مجرد بلوغ مقاصده الروحية ، فإنه من المحال عليه أن يحظى بشيء من التوافق بين فكره وعمله ، لأنه لا بد أن تنشأ في كل مرحلة جديدة من مراحل الارتقاء العقلي والفكري والاكتشاف النظري والعملي آمال جديدة و رغبات متنوعة ، ولا بد — إذن — أن يقرر شيئاً جديداً هو الهدف لحياته والمطمح لنظره مع كل يوم جديد ، ومن المحال عليه البتة إذا بلغ مرتبة عليا من مراتب العلم والعقل أن يبقى مقتنعاً برغباته وأمانيه ومطالبه التي كانت قد استرعت نظره واستهوت عليه فكره في مرتبة أدنى قبل أن يبلغ هذه المرتبة العليا . وهكذا لا تفنى كل حياته إلا متنقلاً من غاية إلى أخرى ولن تستقر في ذهنه — في أية مرتبة من مراتبه — فكرة مركزية تستطيع أن تنشئ التوافق والارتكاز والانسجام والتجاوب بين أفكاره وأعماله ويستطيع هو الآخر أن يستنفد في سبيل تحقيقها كل ما عنده من القوى الجسدية والمواهب و الاستعدادات الفكرية .

فالغاية الإسلامية هي التي من شأنها ، دون أية غاية أخرى في العالم أن تكون غاية الإنسان الوحيدة في كل مرتبة من مراتبه العقلية والفكرية والعلمية مهما كانت ناضجة راقية دون أن تمسه الحاجة الى تغييرها بغيرها ، لأنها على علاقة سوية بكل مرتبة من أدنى مراتب العلم والعقل إلى أرقى مراتبها وأعلاها شأناً . وكل ما هنالك من الفرق في هذا الشأن ، إنما هو باعتبار مراتبنا — نحن — في الشعور والتعقل .

٤ ـ وحدة الجماعة الإنسانية

ثم إن هذه الغاية كما تستطيع أن تكون غاية شخصية لكل فرد من الأفراد كــذلك تستطيع أن تكون غــاية اجتماعية لكــل جماعة من الجماعات أو لكل أمــة من الأمم أو لــلأسرة الإنسانية بأجمعها ، إذ لا يوجد فيها عنصر الأثرة الفردية أو العصبية الجماعية ذلك العنصر الذي من طبيعته أن يوزع الإنسانية ويفرق كلمتها إلى مختلف السلالات والأمم أولاً ، ثم إلى مختلف الأفراد والآحاد ويغرس في نفوسهم بــذور الشقاق والنفرة والحسد والبغضــاء والمنافسة والمزاحمة بعده . وعــلى العكس من ذلك فــإن هذه الغاية ، أي الغــاية الإسلامية ، إنمــا تولي وجهــة الإنسان إلى ذات الإله الأحــد الصمد ، تلك الــذات المقدسة التي لهــا علاقة سواسية بالنوع البشري بل وبجميع الموجودات والكائنات في العالم ، والتي إذا اتجهت إليها المقاصد الإنسانية ، حدث فيها ـ من كل ناحية ومن كل زاوية للنظر ـ اشتراك كامل واتحاد شامل يكفل بإنشاء عواطف التعاون والتكافل والأخوة بــين أفراد البشرية وأممهــا وشعوبها وإزالة عواطف البغضاء والتنافس والتزاحم من بينها .

كل ما في الدنيا من الغايات المادية ، من المحال أن يتحد في سبيلها اثنان من أفراد البشرية بإخلاص وأمانة وصفاء نية ، حتى انه ليتعذر على الأخ والأخ ، والأب والابن، والأم والبنت أن تشتركا في سبيل غاية مادية ثم تسلما من التزاحم والتنافس بل من التعادي والتباغض والتحاسد . فكم من صلات الرحم وقرابات الدم قد رأيناها بأم أعيننا تنفصم ، وكم من أناس قد رأيناهم يقتلون أقاربهم الأدنين

وإخوتهم بل وآباءهم أو ينهبون أموالهم وينتهكون حرماتهم تحقيقاً لبعض أغراضهم الدنيوية المادية . وما كل ذلك إلا من آثار تلك الأثرة والنفسانية والمادية التي هي أهم عنصر تتركب منه المقاصد والغايات المادية . أما الذات الإلهية ، وهي غاية ما بعدها غاية ، فيستطيع أن يجري للوصول إليها في آن واحد أكبر عدد من أفراد البشرية دون أن يصد أحد منهم على غيره طريقه إلى الرقي والتقدم بل إن السفر إلى الذات الإلهية في نوعه سفر يساعد فيه كل واحد من المسافرين زميله ويأخذ بيده ويقوي ساعده بكامل إخلاص ومحبة ويؤثره على نفسه في الاستجمام والاستراحة ويتحمل على نفسه الصعاب والأهوال والمشاق ليجلب إليه اليسر والسهولة ، ويعتقد أنه إن ينته إلى غايته المقصودة متعباً لاهثاً غارقاً في العرق متحملاً على عاتقه أعباء غيره لينال هكذا أكبر قدر يستطيعه من مرضاة ربه فهو خير لــه بدرجات من أن يسلك طريقه بكامل دعــة دونما تعب أو مشقة .

الحقيقة أن الفكرة المركزية والعقيدة الأساسية التي يحتاج إليها العمل على إنشاء قومية عالمية أو جماعة دولية بمحو الامتيازات القائمة على الاختلاف في الألوان والأجناس واللغات والحدود الجغرافية ، هي موجــودة في هــذه الغاية بكــل معنى الكلمة ومن المحال أن تكون لحضارة عالمية ولجماعة دولية غاية أشرف وأعلى من هذه الغاية ، لأنها من جانب تحافظ على فردية الفرد ، ومن جانب آخر تصهرها من كل ماقد يكون فيها من الميول المتناقضة مع فكرة المركزية وهكذا تضمها إلى اجتماعية إنسانية خالصة .

٥ – تحقيق الآمال والأماني الانسانية كلها بالتبع

ومن أكبر مزايا هذه الغاية أنها إذا تحققت ، تحقق بالتبع كل ما للإنسان في هذه الحياة الدنيا من الآمال والأماني من الناحية الفردية أو الاجتماعية دون أن يجعلها الإنسان غايات مقصودة لذاتهـا . والقرآن الكريم في كثير من آياته قد عدد الآمال والأماني والنعم والمقاصد التي تتحقق بنفسها إذا نال الإنسان مرضاة ربه .

إن أكبر ما يتمناه الإنسان ويرغب فيه في حياته الدنيوية هو الأمن والسلام والسكينة والطمأنينة القلبية . يقول القرآن: أن أسلموا وجوهكم لله وأنيبوا إليه ولا تقصدوا بكل عمل من أعمالكم إلا مرضاته وحده ، تتحقق لكم هذه الأمنية بنفسها :

(بَلى مَنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ لله وهوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ ربهِ ولا خَوْفٌ عَلَيهِم ولا هُمْ يَحْزَنُون) [البقرة : ١١٢] .

(ألا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ ٱلْقلوبُ) [الرعد : ٢٨] .

والأمر الثاني الذي يحب الإنسان أن يناله في حياته الدنيا هو العافية والرفاه والرخاء، أي: الحياة الخالية من الهم والاضطراب النفسي والقلق الفكري . يقول القرآن: إن هذا المقصود سيحصل لكم بنفسه على أحسن وأكمل وجـه إذا آمنتم بالله واجتنبتم مايجلب إليكم سخطه ، وسلكتم طريق البر والتقوى ابتغاء لمرضاته :

(لَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنوا واتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـات من السَّماءِ والأَرْضِ) . [الأعراف : ٩٦] .

(مَنْ عَمِلَ صَالحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثى وهو مؤْمِن فَلَنُحيِينَّهُ حَياةً طيبةً ولَنَجزينَّهُم أَجْرَهُم بأَحْسَنِ مَا كانُوا يَعْمَلون) [النحل:٩٧]

والأمر الثالث الذي يبغيه الانسان وتتوق إليه نفسه بكل شدة في حياته الدنيا هو الحكومة والسيادة والغلبة والسطوة . يقول القرآن : ان كونوا من حزب الله ، وأخلصوا حبكم لله ورسوله والذين آمنوا تنالوا هذه البغية وتظفروا بهذا المتاع :

(وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولهُ والذينَ آمَنُوا فَإنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغالبُونَ) [المائدة : ٥٦] .

(ولَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرض يرِثُها عِبَادِيَ الصَّالِحُون) [الأنبياء : ١٠٥] .

(وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُم وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذينَ مِن قَبْلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينَهُم الذي ارْتَضَى لَهُم ولَيُبَدِّلَنَّهم مِنْ بَعْدِ خَوفِهِم أَمناً) [النور : ٥٥] .

ومع كل أولئك فإن الإنسان يطلب لنفسه النجاة والسعادة في حياته الآخرة . يقول القرآن الكريم : إن هذه السعادة والنجاة لا تحصل للإنسان إلا بنيله مرضاة ربه تبارك وتعالى :

(يا أَيَّتُها النفسُ المُطْمَئِنَّة إرْجِعِي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فادْخُلِي في عِبادي وادخُلي جنَّتي) [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

فالذي يدل عليه كل هذا أن الإسلام أبى أن يحتفل بأمور قد اتخذها الناس في الدنيا مقاصدهم وغاياتهم ، وإنما جعل مقصوده وغايته أمراً إذا تحقق تحققت كل هذه الغايات والمقاصد بنفسها . فالأمور التي قد جعلها الناس مقاصدهم ويتهافتون عليها ويستميتون، يسيرة ، لأن الغاية التي قد وضعها نصب عينيه هي أشرف وأعلى من كل هذه الغايات والمقاصد ، بل من الدنيا بحذافيرها ، ولأنه يعلم أنه إذا بلغ هذه الغاية ، فلا بد أن يتحقق له كل مادونها من المقاصد والغايات ، كما أنه إذا ارتقى إلى أعلى طابق في عمارة ، يجد كل طوابق تلك العمارة تحت أقدامه .

٦ ــ أكبر حافز على أعمال البر والتقوى

ومزية أخرى من مزايا هذه الغاية أنها أشرف وأطهر غاية تحفز الإنسان، وتستحث همته على اتباع أرفع مقياس أقامه الإسلام لأعمال البر والصلاح والتقوى، وعلى التقيد بأمتن ضابطة وضعها للأوامر والنواهي .

من الناس من يقول : إن البر إنما يجب أن يعمله الإنسان لأنه بر ، وإن الإثم يجب أن يجتنبه الإنسان لأنه إثم ، ولكن لا يعلم هؤلاء ماذا يعنون بقولهم هذا . إن معنى عمل البر لمجرد أنه بر في حد ذاته بصرف النظر عما له من الفوائد والثمرات المرضية، وأنه من الممكن أن يكون مقصوداً للإنسان ، ومعنى اجتناب الإثم لمجرد أنه إثم في حد ذاته بصرف النظر عما له من المضار والعواقب غير المرضية كأنه في حد ذاته شيء يمكن أن يكون قابلاً لاجتناب الإنسان واحترازه ولكن الحق أن الدنيا لا وجود فيها لبر خالص مجرد من كل ماينسب

إلى فاعله من الفوائد والمنافع ، ولا لإثم خالص مجرد من كل ما يصاب به فاعله من المضار والخسائر ، بل الصحيح أن الإنسان ما نشأت في ذهنه فكرة البر ولا فكرة الإثم إلا بعد تجارب المنفعة والمضرة ، والربح والخسارة. ولذا يقول الإنسان: إن كل فعل إذا رجع عليه بمنفعة حقيقية فهـــو بر مهما يكن فيه – في ظاهر الأمر – من نواحي المنفعة واللذة . ومن الحقيقة كذلك أن أي فعل إذا ما جرد من جملة نواحي المنفعة، ومن جملة نواحي المضرة فإننا لا نستطيع أن نحكم عليه بالبر ولا بالإثم إذ أنه في هذه الحال لم يعد إلا مجرد حركة من الحركات . لا ريب أنه بإمكان الإنسان إذا رسخت فيه ملكة البر وبلغ مرتبة عقلية عليا أن يجرد ذهنه من فكرة تصور البر والإثم ولا يعمل البر إلا لأنه بر ، ولا يجتنب الإثم إلا لأنه إثم، ولكن ما كـــل ذلك إلا مجرد ذهول عن مبدأ البر والإثم لا سلب لمبدئيته أو قل – إذا لم نتعرض لهذا البحث – إنـــه مجرد معراج لأوهام الفلاسفة وخيالاتهم اللاهوتية ماحظي بالوصول إليه ولا أكبر الحكماء والفلاسفة ، فكيف لعامة الناس أن يتخذوه غاية لهم في الحياة .

فالظاهر من كل هذا أنه من المحال التفريق بين تصور البر والإثم وبين تصور المنفعة والمضرة . من المحال أن يكون البر مقصوداً للإنسان من حيث ذاته مالم يعتقد بمنفعة مستترة في أعماقه ، ومن المحال أن يكون الإثم جديراً بالاجتناب في نظر الإنسان من حيث ذاته مالم يعتقد بمضرة خافية في باطنه .

هذا ، فإذا أردنا الآن أن نرتفع بالبر والصلاح والتقوى من أدنى مراتب الأثرة إلى أرقى منازل الإخلاص والأمانة والتجرد ونقيم على

أساسها ضابطة خلقية تكون للخواص والعوام معاً ، فإن أحسن طريق لتحقيق ذلك هو أن نقرر للمنفعة والمضرة مقياساً يكون أرفع وأعلى من المقاييس المادية والنفسانية ويعتقد الإنسان عـلى أساسه أن كل عمل من أعمال البر والصلاح والتقوى مملوء بالمنافع والثمرات الطيبة ولـو كـان في ظاهره مملوءاً بالمضرات المـادية والآلام النفسانية ، وأن كـل عمل من أعمال الإثم والشـر والفساد مملوء بالمضرات والخسائر ولو كا ن في ظاهره مملوءاً بالمنافع المادية واللذات الحسية. وهذا الطريق – عينه – هو الذي قد سلكه الإسلام وارتضاه لنفسه في دعوته الناس إلى أعمال البر والصلاح والتقوى وردعه إياهم عن أعمال الإثم والشر والفساد. فقد جعل الحصول أو عدم الحصول على المرضاة الإلهية هو المقياس للمنفعة أو المضرة والنتائج المرضية أو غير المرضية للأعمال. وهذا مقياس ظاهر لا تشوبه شائبة من المادية والنفسانية ولا يكون الإنسان الصالح على أساسه ولا بعد بذله كل ما لديه من نفس أو مال أو ذرية أو سمعة في سبيل ابتغاء وجه الله إلا على يقين تام من ربحه ومنفعته ، ولا يكون الإنسان الفاسد على أساسه ولا بعد اقتنائه أكبر مقدار ممكن من المنافع المادية والملذات الحسية والرغائب النفسانية بمعصية الله وتجاوز حدوده إلا على يقين تام من خسارته وشقائه. وهذا ما يجعل الإنسان لا يقيم أدنى وزن للمنافع أو المضرات الدنيوية العاجلة ويعده لالتزام طريق البر والصلاح والتقوى بكل إخلاص وأمانة وتجرد أحسن أو أسوأ ما كانت أحواله في ظاهر أمرها.

إلى هنا ما شرحنا إلا أمرين :

١ – ما هي الغاية التي قد قررها الإسلام لحياة الإنسان ؟

٢ ـ وما هي الأسباب والوجوه التي قد جعلت من غاية الإسلام هذه أحسن غاية وأسماها للحياة الإنسانية ؟

وعلينا الآن أن نبحث الناحية الثالثة لهذه القضية ، وهي : ما هو نصيب هـــذه الغاية في جعـــل الحضارة الإسلامية حضارة مستقلة مخصوصة، وما هي الخصائص والمزايا التي قد أكسبتها إياها ؟

تأثير تحديد الغاية في التمييز بين الطرق المتعددة

قد أشرنا سابقاً إلى أنه كما لابد من تحديد الغاية في جملة شؤون الحياة ، كذلك لا بد من تحديد الطريق للوصول إلى تلك الغاية ، وأنه لا يجوز تحديد ذلك الطريق على أساس لا يناسب تلك الغاية وذلك أن رجلاً إذا كان يهيم على وجهه في الطرق والشوارع دون أن يكون قد جعل موضعاً معلوماً غاية لسلوكه، فإننا ندعوه المجنون والشريد ، وهو إذا كان يهدف إلى موضع معلوم ولكن كان لا يسلك طريقاً محدداً معلوماً للوصول إليه ، بل كان مستعداً لسلوك أي طريق يحسبه موصلاً إليه ، فإننا ندعوه الأحمق والأبله ، لأن الذي يحاول أن يسلك عشرات الطرق المختلفة للوصول إلى غاية واحدة وفي آن واحد ، لا يستطيع أن يصل إليها أبداً بموجب حكم العقل . وكذلك إذا كان هذا الرجل يدعي أن الموضع الفلاني هو غايته وإليه ينتهي سيره، ولكن كان مع ذلك يسلك طرقاً هاديـــة إلى الجهـــة المخالفة لجهـــة ذلك الموضع ، فإننا لا نرى فيـــا رجلاً له نصيب من العقل ، فإن مثله كمثل أعرابي يسلك الطريق الموصل إلى تركستان بغية الوصول إلى مكة [1] .

---

(١) مثل في الفارسية لمثل هذا الرجل .

فمن واجب الإنسان إذا كان يبغي لنفسه النجاح والفلاح فعلاً أن ـ يحدد أولاً ـ غاية لسلوكه، ثم يجمع كل نياته وأعماله ومساعيه للوصول إليها ، وإذا كانت هناك عدة طرق للوصول إليها فعليه أن يختار منها طريقاً يكون أنسبها في نظره ويعرض عن كل طريق سواه .

إن هذا الترك والاختيار هو من عين ما يقتضيه العقل ، لأن النتيجة العقلية لتحديد الغاية واحدة لا ثانية لها وهي أن يختار الإنسان للوصول إلى غايته أحسن الطرق وأنسبها ويأبى أن يسلك أي طريق سواه . أفلا ترى أن رجلاً عاقلاً لا يسلك للوصول إلى غايته إلا طريقاً واحداً يراه أنسب الطرق وأحسنها ولا يلتفت أدنى التفات إلى عشرات الطرق المتخللة في سبيله، لا يختار لنفسه من بين عشرات شعب العلم إلا شعبة يراها أكثر من غيرها عونا له على الظفر بمقصوده ولا يرضى بإضاعة أوقاته وقواه الفكرية في سائر الشعب غير المتعلقة بمقصوده . أن تاجراً عاقلاً خبيراً بشؤون التجارة لا يختار لبذل جهوده واستثمار أمواله إلا وسيلة واحدة يراها أحسن الوسائل وأنسبها لتحقيق نجاحه ، ولا يرى بذل جهوده في كل قسم من أقسام التجارة ، واستثمار أمواله في كل حرفة من الحرف إلا ضرباً من الحماقة والسفاهة . وإذا كان لناقد أن يتناول بالبحث فعل الترك والاختيار هذا ، فإنما له أن يتناوله من جهة : هل ان الطريق المختار هو أحسن الطرق وأنسبها وأقربها للوصول إلى الغاية أم لا ؟ ولكن لا يجوز له أن يعترض على فعل الترك والاختيار نفسه .

وهذه القاعدة كما تنطبق على الشؤون الجزئية في الحياة ، كذلك تنطبق على الحياة بمجموعها . وبموجبها إذا كان الإنسان لا يقصد

مقصوده في الحياة إلا مجرد الحياة ، فله حرية تامة أن يختار لقضاء أيام حياته أي طريق يشاء ومن اللغو في نظره أن يفحص الطرق ويميز أحسنها من أسوئها وأصحها من أخطئها وأعلاها من أسفلها ، إذ له أن يقضي حوائجه وأهواءه ورغائب نفسه بأي طريق يعجبه في وقت من أوقاته. وإذا كان لأسباب خارجية أن تضطره ـ أحياناً ـ إلى اختيار والتزام طريق مخصوص ، فإن هذه الأسباب لا تستطيع بحال أن تنشئ في حياته نظاماً ثابتاً وضابطة غير متبدلة ، إذ ليس في داخله مبدأ ثابت يحفزه على التقيد بنظام أو ضابطة ، ولكنه إذا كان يهدف في حياته إلى غاية معينة أو ـ بكلمات أصح ـ كانت غاية عقلية إنسانية أرفع من الغاية الحيوانية الطبيعية نازلة منزل القبول والرسوخ من نفسه وذهنه ، فإنه لابد أن يجيل النظر في جميع الطرق المختلفة ، ثم يميز منها الطرق الصحيحة المعقولة من الطرق الخاطئة الفاسدة ، ولا بد إذا كان رجلاً عاقلاً فاهماً أن يختار لقضاء حياته طريقاً واحداً من بين الطرق المتفرقة يحسبه أحسنها وأكثرها مساعدة له على بلوغ هدفه ، ومن المحال عليه بعد تحديده غاية لحياته أن يتمتع في سلوك الطرق المختلفة بمثل الحرية التي كان له أن يتمتع بها لو كان لا يهدف في حياته إلى غاية محددة .

وسّع هذه القاعدة وضع فيها الجماعة موضع الفرد ، تجد أنها كما تنطبق على الفرد بصفته الفردية ، كذلك تنطبق على مجموعة الأفراد (الجماعة أو الأمة) . إن جماعة من الناس مادامت في مدارج المدنية الأولى ومـــا دامت لا تهدف في حياتها إلى غاية أرفع في حياته غاية محدودة معلومة ، أو ـ بكلمات أخرى ـ لم يكن

وأرقى من الغايات الحيوانية الطبيعية ، تتمتع في اختيار الطريق لقضاء حياتها بمثل الحرية التي يتمتع بها ذلك الفرد الذي لا يهدف إلى غاية محددة معلومة في حياته ، ولكنها حينما تنضج فكرتها وتبلغ مدارج عليا في الارتقاء العقلي والنهضة الفكرية، وتنشأ فيها حضارة تحدد لحياتها الاجتماعية غاية عقلية مخصوصة . تجد نفسها مضطرة إلى أن تضع لعقائدها ونظرياتها وأفكارها وأخلاقها وشؤونها الاقتصادية والاجتماعية و . . . و . . . نظاماً مستقلاً متناسباً مع غايتها العقلية وتقيد أفرادها بالتزام هذا النظام، ولا تترك لهم الحرية في اختيار عقيدة أو منهاج للعمل مخالف لهذا النظام ما داموا في دائرة هذه الحضارة .

ومن عين ما تقتضيه فطرة كل حضارة أن تتسلح بالشدة والصلابة للمحافظة على نظامها للعقائد والنظريات والأفكار والأخلاق والشؤون الاقتصادية والإجتماعية وما إليها ، لأنها إذا لانت قناتها وأصابها الوهن والانحلال في شأن هذا النظام ، أصبح من المحال أن ترزق نوعاً من الحياة ، ذلك بأن كيان كل حضارة إنما يتوقف على أن يلتزم أتباعها بنظامها للعقائد والأعمال و . . . ولا تبقى لها قائمة حقيقية إذا جعلوا أنفسهم في حل منه واستولت على أذهانهم وأفكارهم في حياتهم العملية نظريات ومناهج أجنبية . لكل هذا فمن حق كل حضارة أن تطالب أتباعها بأن يلتزموا ما وضعت لحياتهم من نظام ويقطعوا صلاتهم عن كل نظام من النظم الأجنبية الأخرى . وإذا كان من حق الناقد أن يتكلم على تلك الحضارة ، فإنما له أن يتكلم على صحة أو خطإ غايتها التي وضعتها نصب عينيها

أو على ما إن كان طريقها الذي تسلكه مناسباً أو غير مناسب لبلوغها تلك الغاية، وليس له مجال أن يقول: إن هذه الحضارة ليس من حقها أن تطالب أتباعهـــا بالتزام ما وضعت من نظام لحياتهم أو طريق للوصول إلى غايتهم .

ومما لا خلاف فيه أن الطرق والمناهج التي توضع للحياة الفكرية والعملية ، إنما يكون وضعها وتحديدها مبنياً على نوع الغاية التي وضعت للوصول إليها وأنــه من اللازم أن تختلف هذه الطرق والمناهج باختلاف غايتها . . . لما كان كل ذلك مما لا خلاف فيه لزم الاعتراف بأن عدداً من الحضارات إذا كان بعضها مختلفاً عن بعض ، فلا بد أن تكون نظمها للعقائد والأعمال مختلفة بعضها عن بعض . نعم ، من الممكن أن تكون تلك النظم متشابهة في بعض أجزائها ، ومن الممكن كذلك أن تكون قد دخلت على نظام منها جزئيات من نظام آخر ، ولكن لا يجوز أن نحكم على هذه النظم بالتوافق الكـــلي لتشابهها في بعض أجزائها ، ولا يستلزم استعارة حضارة جزئيات من حضارة أخرى أن تكون هـــي بجملتها مأخوذة من تلك الحضارة . وهذه القاعدة الأساسية تتفرع منها قاعدتان :

أولاهما : أننا إذا أردنا أن نستعرض نظام حضارة ذات غاية خاصة ، فلا يصح أن نجعل نظام حضارة ذات غاية أخرى مقياساً لهذا الاستعراض ، أي: لا يصح لنقد نظام للخضارة أن يقال بصحته وصوابه إذا وافق نظاماً آخر للحضارة وبفساده وخطئه إذا لم يوافقه .

وثانيتهما : أن أية حضارة إذا كـــان لها نظام مستقل للعقائد والأعمال، فإنه من المحال أن يستبدل بنظامها نظام آخر مع المحافظة عليها كما هي ، ومن المحال كذلك أن تدخل على نظامها أجزاء أساسية لنظام آخر . والذي يعتقد أن مثل هذا الاختلاط بين نظامين للحضارة ممكن أو صحيح . فإنه في حقيقة أمره جاهل بمبـــادئ الحضارة، ولا أهلية فيه لأن يفهم طبيعتها ومزاجها .

نصيب غايه الحضارة الاسلاميه في تشكيلها

إذا أدركت هذه المقدمات . سهل عليك أن تعرف نصيب غاية الحضارة الإسلامية في تشكيلها، أي : إبرازها عـــلى صورة حضارة مستقلة مخصوصة .

وقد ذكرنا بكل تفصيل في المباحث السالفة أن الغاية التي قد قررها الإسلام لحياة الإنسان في هذه الدنيا . مختلفة في أصلها عن غايات كل ماسواه من الديانات والحضارات في الدنيا ، وقد أثبتنا كذلك أن الاختـــلاف في الغاية لا بـــد أن يحـــدث الاختلاف الأساسي البعيد في نظام العقائد والأعمال . فالنتيجة المنطقية لكل ذلك أن غاية الإسلام قد جعلت لحضارته صورة مستقلة مخصوصة تختلف عن صور سائر الحضارات القديمة أو الحديثة في الدنيا اختلافاً أساسياً ، كما أنها قد جعلت نظامها للعقائد والأعمال مختلفاً عن نظم سائر هذه الحضارات للعقائد والأعمال اختلافاً أساسياً . يجوز أن توجد أجزاء من نظام الحضارة الإسلامية في نظام حضارة أخرى ولكن لا بالمنزلة التي توجد بها في نظام الحضارة الإسلامية ، ذلك

بأن الجزء عندمـــا يندمج في نظام من النظم ، يفقد طبيعته الـــذاتية ويصير على طبيعة ذلك النظام . وعلى هذا إذا كانت طبيعة نظام ما مختلفة عن طبيعة نظام آخـــر ، فلا بد أن يكون كـــل جزء من أجزائه مختلفاً عن كـــل جزء من أجزاء ذلك النظام ، ولو كان يشابهه في ظاهر شكله .

إن الإسلام – كما قلنا سابقاً – قد جعل الإنسان خليفة الله في أرضه ، وجعل غايته في الحياة أن يسعى سعيه لابتغاء وجهه ونيل رضوانه ، فاللازم من ذلك أن لا يتوجه الإنسان بجملة أعماله في الحياة إلا إلى هذه الغاية ولا يصرف كل ماله من القوى الفكرية والجسدية إلا في سبيل بلوغها ولا يطبع شيئاً من أفكاره ونظرياته وحركاته وسكناته إلا بطابعها . ولا يقصد بأي شيء من نومه ويقظته وأكله وشربه وكلامه وسكوته وصداقته وعداوته ومعاملاته في حياته الاقتصادية وعلاقاته في حياته الاجتماعية . . . إلا الدنو من هذه الغاية حتى تكون مسيطرة على ذهنه ، جارية في جسده ، كأنها هي روحه التي لا حياة له بدونها . والظاهر أن من كانت هذه هي غايته ، وكان لا يحيا إلا لبلوغها وتحقيقها ، من المحال أن يقضي أيام حياته كما يقضيها من لا غاية له في الحياة أصلاً ، أو كانت غايته مختلفة عن غايته .

والإسلام بعد تقريره هذه الغاية للحياة الإنسانية ، إنما يختار طريقاً واحداً من عدة طرق لقضاء الحياة في الدنيا ويلزم الإنسان أن لا يضيع أيام حياته في سلوك طريق غيره . وهو نظراً لطبيعة هذه الغاية ومزاجها يضع نظاماً مستقلاً برأسه للعقائد والأعمال ، ويطالب الإنسان

أن يقيد به نفسه، ولا يتنكب عنه بحال من الأحوال . وهو يقرر هذا النظام عن الطاعة والانقياد والخضوع ، لذلك فهو يدعوه «الدين» (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ) [آل عمران: ١٩] ومعنى الدين — كما عرفت — هو الطاعة والانقياد والخضوع وهو على أساس هذا الدين يرسم خط الامتياز بين أتباعه وغير أتباعه ، فيسمي الذين يتبعونه « المسلمين » و « المؤمنين » ويسمى الذين لا يتبعونه « الكافرين » [1] أي المنكرين والمتمردين على الطاعة . وهو يمحو بين مختلف أفراد الإنسانية كل فارق من فوارق النسل والجنس واللغة واللون والحدود الجغرافية وما إليها وإنما يفرق بينهم على أساس الكفر والإيمان . فالذي يؤمن، أي: يتبع نظامه ويسلك سبيله، ويقصدغايته، هو من أتباعه وأبنائه أينما كان مولده ومسكنه من الشرق أو الغرب ، والذي يكفر، أي: لا يتبع نظامه ولا يسلك سبيله ولا يقصد غايته ، فما هو من أتباعه وأبنائه ولو كان مسكنه تحت جدار الكعبة، وكان لحمه ودمه متركباً من تمر مكة وماء زمزم .

والإسلام كما قد أقام امتياز« الكفر » و « الإيمان » بين الناس على أساس العقائد والأعمال ، كذلك قد أقام امتيازات الحرام والحلال ، والمباح وغير المباح ، والمستحب والمكروه بين مختلف الطرق والمناهج إن كانت مساعدة للإنسان في بلوغ غايته وأداء ما

(١) إن هناك بلاغة عظيمة في استعمال كلمة « الكافر » في الشريعة ، بيانها أن المعنى الاساسي لكلمة « الكفر » لغة هو : الستر والتغطية ، يقال : كفر درعه بثوبه ، أي غطاها به ، ولبسه فوقها ، والاسلام قد جعل كلمة « الكفر » هذه ضداً لكلمة « الايمان » ومقصوده بذلك أن يشير إلى أن الذين لا يقبلون الاسلام ، ويأبون أن يتبعوا نظامه للحياة إنما يسترون فطرتهم ، ويغطون جبلتهم التي جبلوا عليها .

عليه من واجبات الأمانة والخلافة، فهي مباحة أو مستحبة على حسب مرتبتها ، وأما إن كانت مزاحمة له في بلوغ غايته وأداء ما عليه من واجبات الأمانة والخلافة ، فهي مكروهة أو محرمة على حسب مرتبتها . والذي يحترم هذا الخط الامتياز ، هو من أهل التقوى والذي لا يحترمه هو من أهل الفسق. والامتياز بين الأدنى والأعلى في حزب الله لا يقوم على أساس المال والثروة أو الجاه والمنصب أو الحسب والنسب وإنما يقوم على أساس « التقوى » يقول عز وجل : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات : ١٣] .

فهكذا إن الحضارة الإسلامية يختلف طريقها عن طرق سائر الحضارات في التصورات والنظريات والأفكار والأخلاق والآداب والطباع ، وفي الاقتصاد والاجتماع والمدنية والعمران والسياسة والحكم وما إليها من الشعب الأخرى للحياة الإنسانية . والإسلام لا ينظر للحياة الإنسانية نظرة مختلفة عن الغايات التي قد حددتها لها سائر الحضارات في الدنيا ، ولذا فإن الصورة التي يعامل بها الإسلام الدنيا وما فيها حسب نظريته وعلى مقتضى من غايته هي مختلفة عن الطرق التي تسلكها سائر الحضارات في الدنيا لتحقيق غاياتها . فكم من تصورات عقلية وأفكار ذهنية، ورغبات نفسية، وطرق مقررة لقضاء الحياة ليس اتباعها بمشروع فحسب، بل هي من لوازم الحضارة في نظر حضارات أخرى ، ولكن يأبى الإسلام إلا أن يحرمها وينهى عنها المؤمنين برسالته، لأنها تلائم ملاءمة تامة لما لهذه الحضارات من تصورات للحياة الإنسانية وتساعدها في تحقيق غاياتها ، ولكنها لا تلائم تصور الإسلام للحياة الإنسانية وتضع العراقيل في سبيل تحقيق غايته . فالفنون الجميلة ــ مثلاً ــ روح الحضارة وقوامها في نظر

كثير من الحضارات القائمة في الدنيا فهي لذلك تعتبر البارعين في هذه الفنون من أبطالها القوميين البارزين وتنظر إليهم بعين الإجلال والتقدير ، ولكن الإسلام يحرم بعض هذه الفنون ويقول بكراهية بعضها ويبيح بعضها إلى حد ما . إن قانونــه لا يبيح ترقيــة الذوق الجميل والاستمتاع بالجمال الصناعي إلا إلى حيث لا ينسى الإنسان ربه ، ولا يفتر عن العمل لابتغاء مرضاته ، ولا يتقاعس عن بذل الجهود لأداء واجبات منصب خلافته. إلى هذا الحد يبيح الإسلام ترقية الذوق الجميل . والاستمتاع بالجمال الصناعي . ولكن إذا غلب هذا الذوق شعور الإنسان بواجبه ، وإذا بلغ انهماك الإنسان في الاستمتاع بالمشتهيات والاسترسال وراء الرغبات واللذات النفسية حيث يصبح عبداً للحسن والجمال بدل أن يكون عبداً لله عاملاً على ابتغاء مرضاته. وإذا بلغ إغراقه في التمتع بالفنون الجميلة حيث يصبح منقطعاً إلى لين العيش ورغد الحياة ومتعها ونعيمها ، وإذا أصبحت نوازع نفسه ومطالبها المرذولة عاتية قوية لتأثير هذه الفنون بحيث توهن قبضة العقل على جسده ، وتصم آذان قلبه عن الاستماع إلى صوت ضميره ولا تبقى فيــه عاطفة السمع والطاعة لنــداء الواجب . فهناك يقيم الإسلام حواجز التحريم أو الكراهية في وجه الإنسان وينهاه عن التقدم في سبيل هذه الفنون . لماذا؟ لأنه لا يحب أن ينجب في المؤمنين برسالته والمنضوين تحت لوائه أفراداً كتان سين و بنادن وماني وبهزاد وتشارلي تشبلين وماري بيكفورد ، وإنما يحب أن ينجب فيهم أبطالاً من أئمة الهدى ، كأبي بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وعلي ابن أبي طالب ، وأبي ذر الغفاري ورابعة البصرية .

ولنا أن نقول مثل هذا في شؤون كثيرة أخرى من شؤون حياة الإنسان الإجتماعية والمدنية ، مما يمكن أن تقاس تفاصيله على المثال المذكور أعلاه . وبالأخص فإن الطريق الذي يسلكه الإسلام في إقامة العلاقات والروابط بين الرجال والنساء وبين الأغنياء والفقراء وبين الراعي والرعية أو بين الطبقات الإنسانية الأخرى ، مختلف اختلافاً أساسياً عن طرق كل ما وُجد أو يوجد اليوم في الأرض من الحضارات الإنسانية . فمن الخطأ مبدئياً أن نجعل نظام حضارة في العالم مقياساً نعرض عليه نظام الحضارة الإسلامية ، فنقول بصحته وصوابه إذا وافقه وبفساده أو خطئه إذا لم يوافقه والذين يفعلون هذا ، إنما ينظرون إلى السطح ويجهلون الحقيقة .

الباب الثالث

العقائد والأفكار الأساسية

الفصل الأول

الايمان : حقيقته وأهميته

والسؤال الثالث الذي نواجهه بعد كلامنا على تصور الإسلام ونظريته فيما يتعلق بقيمة الحياة وغايتها في البابين السابقين ، هو : ماهو الأساس الذي قد أقام عليه الإسلام سيرة الإنسان، أي: أعماله وأفعاله في حياته الدنيا ؟

السيرة الإنسانية وأساسها الفكري

من المعلوم أن ذهن الإنسان هو المنشأ والمصدر لكل ما يصدر عنه من الأعمال والأفعال في حياته ، وهو من هذه الجهة على إحدى حالتين :

أولاهما : أن لا تكون قد استقرت فيه فكرة أو أفكار من نوع خاص، وإنما تطرقه أفكار متفرقة. وخواطر متشتتة، وأحاسيس متنوعة بين حين وآخر، ولا يحمله على الحركة والعمل في كل مرة إلا أقوى هذه الأفكار والخواطر والأحاسيس.

وثانيتهما : أن لا يبقى مورداً لأفكار متفرقة وخواطر متشتتة وأحاسيس متنوعة ، بل تستقر فيه فكرة أو أفكار من نوع خاص بحيث لا تكون حياته العملية بجملة شؤونها وفروعها إلا منطبعة بطابع تلك الفكرة أو الأفكار بصفة دائمة ولا تصدر عنه أعمال متنوعة وأفعال متفرقة، وإنما تصدر عنه في كل حين من أحيانه أعمال مرتبة وأفعال منظمة.

أما الحالة الأولى فمثلها كمثل شارع مفتوح لكل من يشاء أن يسلكه ولا تكون لأي غاد أو رائح عليه ميزة عن غيره.

وأما الحالة الثانية فمثلها كمثل قالب لا يكون كل ما يفرغ فيه من الجواهر وغيرها إلا على صورة عينها.

والإنسان عندما يكون ذهنه في حالته الأولى ، نقول : إنه لا سيرة له في حياته ، وإن له أن يظهر بمظهر الشيطان متى يشاء أو بمظهر الملك متى يحب، ولا يبعد عنه في أي وقت من أوقاته أي لون من ألوان الأعمال والأفعال. ولكنه عندما يجتاز إلى حالته الثانية ، نقول: إن له سيرة معلومة معينة وان في حياتة النظام والإحكام والترتيب والانسجام ، ونستطيع أن نقول بكل جزم: إنه سيعمل العمل الفلاني في الوقت الفلاني.

الشرط الأول لنظام الأعمال

ويستفاد مما ذكرنا أن اختيار حياة الإنسان العملية نظاماً محكماً وترتيباً خاصاً جديراً بأن يعتمد عليه ويطمئن إليه ، إنما يتوقف على أن تكون للإنسان في حياته سيرة ثابتة معروفة ، وإنما تتوقف سيرته في ثباتها ورصانتها على أن يخرج ذهنه من حالة تشتت الأفكار وتفرق الخواطر وتستقر فيه أفكار مخصوصة معروفة المعالم والحدود وأن تكون هذه الأفكار بالغة من الرسوخ والثبات والمتانة والأصالة والرصانة بحيث لا تسمح لأفكار من نوع آخر بأن تدخل فيه وتحدث في دنياه شيئاً من الاضطراب والارتباك والفوضى . إنه على قدر ما تكون هذه الأفكار متأصلة بجذور قوية في ذهن الإنسان . يكون الإنسان قوياً متيناً في سيرته وتكون حياته مرتبة منظمة يوثق بها ويطمأن إليها . وعلى العكس من هذا فإنها على قدر ماتكون واهنة متهلهلة ، وعلى قدر ما تسمح لأفكار متضاربة وخواطر متفرقة بالدخول في ذهن الإنسان ، يكون الإنسان ضعيفاً متهلهلاً في سيرته ولا يكون لحياته العملية أي نظام أو ترتيب أوانسجام جدير بالاعتماد عليه .

معنى الايمان

فهذا الأساس الفكري لسيرة الإنسان وحياته العملية ، هو الذي يصطلح عليه القرآن بكلمة « الإيمان » ، والإيمان مادته الهمزة والميم والنون وهو إفعال من « الأمن » والأمن هو ضد الخوف ومعناه الطمأنينة وسكون القلب ، ومنه « الأمانة » التي هي ضد الخيانه .

يقال للرجل: « أمين » إذا اطمأن القلب إلى حسن معاملته ولم يخش منه أن يرتكب الخيانة ، ويقال للناقة : «أمون » إذا كانت ذلولاً لا يخاف منها العثار والتمرد .

فالمراد بإيمان الإنسان بشيء أنه قد استقر في ذهنه تصديقاً ويقيناً ولم يعد بعده يخاف أن يتسرب إلى ذهنه شيء يخالفه . والمراد بضعف إيمانه به أن قلبه لم يطمئن إليه اطمئناناً كاملاً ولذا لا يأمن أن تدخل في ذهنه أشياء تخالفه وتوهن عليه سيرته وتحدث الاضطراب والارتباك والاختلال والفوضى في حياته العملية . والمراد بقوة إيمانه به أن قد قامت سيرته بعد تصديقه إياه على أسس قوية رصينة يجوز الاعتماد عليها والاطمئنان بأن الأعمال لن تصدر عنه إلا متفقة معها بكل معنى الكلمة .

مرتبة الايمان في تأسيس الحضارة

إن الأفراد إذا كانوا متفرقين وكانوا يؤمنون بعقائد مختلفة وأفكار متفرقة وكانت أعمالهم في الحياة قائمة على أسس متضاربة متخالفة فإنه من المحال أن توجد بهم وتتركب منهم هيأة اجتماعية . كأن مثلهم في هذا الشأن كمثل أحجار متفرقة في الميدان ، لا شك أن كل حجر من هذه الأحجار متين قوي في حد ذاته . ولكنها مادامت غير مرتبطة فيما بينها بنوع من الرابطة . لا يرجى منها أن تظهر بمظهر بناء قوي متين . وعلى العكس من هذا إذا استقرت فكرة مشتركة في أذهان عدد كبير من الأفراد على سبيل الإيمان . فإن رابطة اشتراكهم في الإيمان لا بد أن تؤلف منهم جميعاً أمة أو جماعة

منظمة قوية ، كأن نفس تلك الأحجار التي كانت متفرقة في الميدان ارتبطت فيما بينها حتى صارت شيئاً واحداً . وهنا لا بد أن يحدث فيها التعاون والتعامل والتكافل ، ويكفل لهم بسرعة متزايدة في رقيهم وتقدمهم يوماً فيوماً ، كأن نوعاً من الإيمان هو الذي يحدث التشابه في سلوكهم والتجانس في أعمالهم . وبذلك لا بد أن يبرز إلى حيز الوجود نوع خاص من العمران والمدنية ، ولا بد أن تنهض أمة جديدة بسيرة جديدة وعقلية جديدة وأفكار جديدة ومنهاج للعمل جديد وتشيد صرح الحضارة على أسلوب مبتكر جديد .

وأراك قد فهمت بكل ذلك على أية مرتبة عظيمة وأهمية بالغة الفكرة الأساسية التي تستقر في أذهان أتباع حضارة ، أية حضارة على صورة اجتماعية ، أي : على صورة الإيمان .

الايمان على نوعين :

إذا عرفت الإيمان ، فتعال لنريك ما هي درجة مختلف حضارات العالم باعتبار الإيمان .

إن كلمة الإيمان في أصلها مصطلح ديني ، ولكننا ما دمنا نستعملها هنا بمعنى الفكرة الأساسية ، فمن الجائز أن نقسم الإيمان إلى قسمين :

إيمان من نوعية دينية .

وإيمان من نوعية دنيوية .

أما الإيمان من النوعية الدينية ، فإنما يكون أساساً لحضارة قائمة على الدين ، إذ لا يكون ثمة في هذه الحالة إلا إيمان واحد هو الذي

يحكم الدين والدنيا معاً . أما الحضارة التي لا تقوم على الدين ، فإن الإيمان الديني ينفصل فيهـــا عن الإيمان الدنيوي ولايبقى فيها أي تأثير للإيمان الديني في حياة الأفراد الشخصية أو الاجتماعية :

الايمان الديني

لا يكون الإيمان الديني – في أغلبه – إلا بأمور تنهض بالسيرة الانسانية على أسس روحية وخلقية كإله أوآلهة أفيضت عليها صفات مخصوصة ، أو ككتب أقرّ بأنها منزلة من السماء ، أو كهداة أسس الاعتقاد والعمل على تعاليمهم وسننهم . ومثل هذا الإيمان إذا لم يُنظر إليه من الوجهة الدينية وإنما نظر إليه من الوجهة الدنيوية البحتة فإن نجاحه في الدنيا رهين بشرطين :

١ – أن تكون الأمور التي أمر الدين أتباعه بتصديقها والإذعان لسلطتها صالحة لأن يصدقها الإنسان ويذعن لسلطانها من الوجهة العقلية .

٢ – وأن تكون أموراً يمكن أن تؤسس عليها السيرة الإنسانية على وجه صحيح كامل ، أو بكلمة أخرى تكون أموراً إذا أسست عليها السيرة الإنسانية كانت روحانيتها جديرة بأن تخرج إلى حيز الوجود نظاماً خلقياً من الدرجة الأولى وكـــانت أخلاقها جديرة بأن تعـــد الإنسان لإحراز الرقي والتقدم والسعادة والرفاهية حـــتى في حياته الدنيا مع أكمل طهارة وأوفر نزاهة .

أما الشرط الأول ، فهو لازم ، لأن الأمور التي يجب الإيمان بها إذا كانت مجرد مجموعة للأوهام ، والظنون أو كانت الأوهام والظنون فيها أكثر من الحقائق والمعقولات ، فإنما يكون استيلاؤها على ذمن الإنسان – في تحت جملته –سلطان الجهل والغباوة والحماقة ، بحيث ان الإنسان كلما تقدم في مدارج الارتقاء العقلي ، أخذ طلسم الأوهام والخرافات الباطلة يتحطم وأخذت أسس الإيمان بها تتزلزل وتتداعى شيئاً فشيئاً . وإذا حدث هذا فلا بد أن ينفصم عرى ذلك النظام الروحي والخلقي الذي كانت قد أقيمت على أساسه سيرة الأفراد في حياتهم الشخصية والاجتماعية . وأحسن مثال على هذا تلك المعتقدات التي قد عرضتها على الإنسان مختلف ديانات الشرك عن آلهتها وأربابها وهداتها . فالصفات التي قد وصفوهم بها ، والأفعال التي قد نسبوها إليهم والأقاصيص والأساطير التي قد اختلقوها عنهم يأبى العقل السليم أن يصدقها ويؤمن بإمكان صحتها ، وفي الغالب لا تكون الأمة التي تعتقد بمثل هذه الأوهام والخرافات صالحة لتنال في الدنيا نوعاً من التقدم والرقي والكمال ، لأن هذه الأوهام والخرافات تكون قد أثرت في أذهان أهلها تأثيراً سيئاً يشل عليها أحسن ما يكون فيها من قوى العمل والجد والنشاط ، فلا هي ترزق نوعاً من الارتقاء في معنوياتها ولا من الشدة والصلابة في عزائمها ولا من السعة في نظرها ولا من النور في ذهنها ولا من الجراءة في قلبها وذلك ما يسبب لها آخر الأمر ، الذل والهوان والخضوع والخنوع والنكبة والمسكنة والتابعية والعبودية لأمة غيرها إلى آخر أيام حياتها. وإذا ما انفتحت لأمة مثل هذه – لأسباب أخرى – سبل التقدم

والرقي في الدنيا ، فإنها على قدر ماتحرز من التقدم والرقي في ميادين العقل والعلم ، يزول عن قلوب أهلها الاعتقاد بآلهتهم وأربابهم وهداتهم . ومع أنها في بداية أمرها تبذل أقصى جهودها للدفاع عن عقائدها — وذلك رعاية منهـــا لمصلحة نظامها الاجتماعي — ولكن تمرد العقل والعلم على هذه العقائد يكون من الشدة بحيث لا يبقي لها أي استيلاء ولا سلطان على أذهان أكثر أفراد الأمة ، وإنما هناك طائفة قليلة منهم هـــي التي تترك لتبقى مؤمنة بهـــذه العقائد صدقاً وإخلاصاً أو حرفة وصناعة . أما بقية الأفراد فإنما يستولي على أذهانهم إيما ن آخر هو الذي قد عبرنا عنه بـ « الإيمان الدنيوي » .

أما الشرط الثاني فالسبب في لزومه أن العقائد التي لا تعد الإنسان لإحراز الرقي والتقدم في حياته الدنيا ، إنما يبقى تأثيرها محدوداً بالحياة الروحية والخلقية ولا يجاوزها بحال من الأحوال إلى الحياة المادية . وهذه العقائد أيضاً لا تخلو من إحدى حالتين على اعتبار نتائجها : إما أن الأمة المؤمنة بها لا تحرز لنفسها شيئاً من الرقي والتقدم أو إذا أحرزته لا تلبث أن تتمرد على سلطان عقائدها . ولا بد إذن أن يتخلى الإيمان الديني عن مكانته في حياة هذه الأمة ليحل محلـــه الإيمان الدنيوي ، ولا بد أن تتحرر أخلاقها وروحانيتها أيضاً من سلطان العقائد الدينية عندما يزداد انهماكها في السعي والجهد للتقدم في الحياة المادية .

وإني لا أريد بكل ذلك أن أنتقص من ديانة خاصة عمداً ، فلا أفصل القول هنا في عقائد مختلف ديانات العالم ، وكل ما أريد أن أقوله هنا هو أننا إذا درسنا مختلف ديانات العالم ونظرنا في تعاليمها

ولو نظراً يسيراً، عرفنا كيف أن عقائد هذه الديانات قـــد منعت المؤمنين بها عن التقدم في الحياة الدنيوية ، وكيف أنها ما تمكنت من مسايرة التقدم والرقي الحاصل في الدنيا في ميادين العلم والعقل وكيف أن المؤمنين بهذه العقائد ظلوا أشداء في إيمانهم مـــا بقوا في عصر الإنحطاط والتخلف وتخلوا عنه لما أحرزوا لأنفسهم شيئاً من التقدم والازدهار في حياتهم العلمية والعقلية . أما المسلمون ، فكانوا أقوياء في ايمانهم بمعتقداتهم لما كانوا أكثر أمم الأرض تقدماً وازدهاراً وقوة ومجداً ، وما دب دبيب الضعف في ايمانهم بها إلا بعد أن تخلفوا في ميادين العلم والعقل وضعفوا في صراعهم للرقي الدنيوي وتحكمت فيهم واستولت عليهم أمم أجنبية . وهم في هذا العصر على أسوإ ما يكون من أدوار انحطاطهم ، وهم لأجل هذا مبتلون ـــ ابتلاء شديداً ـــ بمرض ضعف الإيمان ، وقد كانوا على أحسن ما يكون من أدوار المجد والتقدم والقوة والغلبة في الدنيا قبل حوالي ١٠٠٠/٢٠٠٠ سنة ، ولأجل هذا كانوا على أعلى مايكون من درجات القوة والرسوخ والصلابة في ايمانهم بمعتقداتهم الدينية وعلى العكس من هذا . فإن المسيحيين في أوربا أو البوذيين في اليابان لما كانوا راسخين أقوياء في معتقداتهم الدينية ، كانوا على أسوإ ما يكون من أدوار الانحطاط والتخلف ، ولما أحرزوا لأنفسهم الرقي والتقدم في حياتهـــم العلمية والعقلية والمادية ، مـــا عادوا مؤمنين بمعتقداتهم المسيحية والبوذية الا اسماً . وهذا فرق عظيم بين معتقدات الإسلام ومعتقدات الديانات الأخرى في العالم يستطيع أن يدركه بأدنى تأمل كل من له أدنى مسكة من العقل والبصيرة .

الايمان الدنيوي

أما المعتقدات التي نعبر عنها بأمور الإيمان الدنيوي ، فليس فيها عنصر من العناصر الدينية ، فلا فيها إله ولا هداة دينيون ولا كتب سماوية ولا تعليم يقيم السيرة الإنسانية على أساس من الروحانية والأخلاق وإنما هي أمور دنيوية محضة .

إن أهم هذه الأمور وأعظمها شأناً هو « القوم » أو « الأمة » التي يتخذها سكان بقعة خاصة من بقاع العالم إلههم ثم يعكفون على عبادتها بكل إخلاص وحماسة . يؤمن القوميون أن القوم أو الأمة هي صاحبة أموالهم ونفوسهم فمن واجبهم أن يتحمسوا في خدمتها ويبذلوا مهجهم وأرواحهم في الدفاع عنها ومن عين سعادتهم أن يسترخصوا كل عزيز لديهم في سبيل تحقيق مصالحها وإعلاء كلمتها لا هذا فحسب ، بل هم يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن أمتهم هي على الحق وأنها هي وارثة الأرض تستحق أن تبسط سلطانها وسيادتها على كل بقاعها ومناطقها ، وأن كل ما فيها من الأمم والشعوب الأخرى لا تقف منها — أي من أمتهم — إلا موقف الغنائم والسبايا .

والإله الثاني من آلهة الإيمان الدنيوي هو « القانون » الذي هم الذين يضعونه بأنفسهم ثم يعكفون على عبادته . وهذه العبادة هي التي تضمن لهم المحافظة على نظامهم الاجتماعي .

والإله الثالث من آلهة الإيمان الدنيوي هو « الهوى » الذي لا يخطون في الحياة الدنيا إلا على وحي منه ، ولا يغفلون طرفة عين عن قضاء حاجاته وتحقيق مطالبه .

والإله الرابع من آلهة الإيمان الدنيوي هو « العلم والعقل » الذي يؤمنون بقداسته ايماناً يسيرون على ضوئه ويتقدمون في سبل الرقي والتقدم على حسب تعاليمه .

لا شك أن كل هذه العناصر للإيمان الدنيوي نافعة للإنسان في حياته الدنيا إلى حد ما ، ولكننا ، ولو صرفنا النظر عما لها من المرتبة باعتبار الحق والصواب ولم ننظر إليها إلا من الوجهة الدنيوية البحتة نستطيع القول بأن ليس نفعها للإنسان في حياته الدنيا حقيقياً ولا دائماً . إن أكبر مافيها من المعايب والنقائص أن ليس فيها عنصر من العناصر الروحية والخلقية ، لهذا فإن المعتقدين بها لا يلبثون بعد تجردهم عن الدين إلا يسيراً حتى ينفتح عليهم باب المفاسد والموبقات الخلقية من كل نوع . إن القانون ليس من وظيفته أن ينشئ الوازع الخلقي في قلوب الناس ، ويقيم لهم ميزاناً خلقياً صالحاً بمعنى الكلمة ، ولا فيه من القوة ما يستطيع أن يحافظ به على الأخلاق في حياتهم الشخصية والاجتماعية . لأن دائرة عمله وتأثيره وسلطانه ضيقة محدودة . وهذا يحصل بصفة خاصة فيما إذا كان الناس هم الذين يضعون هذا القانون لأنفسهم بأنفسهم ، لأنهم هم الذين يملكون الخيار التام في تغييره وتحريفه ، أي : في تضييق أو توسيع دائرة سيطرته على أنفسهم ، فهم على قدر ما رغبة في الحرية في أعمالهم ، يزدادون شعوراً بأن القيود الخلقية القديمة قد ضيقت عليهم الخناق ، ولم يعودوا قادرين على احتمالها . وغني عن البيان أن أن قيداً من القيود الخلقية إذا ما أصبح عامة الناس يرون فيه هذا الرأي ، فإن ضغط رأيهم العام لا بد أن يرغم القانون على التخفيف

من وطأته عليهم ، وهكذا فإن الأخلاق لا تلبث أن تتخلى عن كل قيودها شيئاً فشيئاً ، وهناك لا بد أن ينجرف بالناس انحلال خلقي عام على وجه خطير جداً . ومعلوم أن الانحلال الخلقي إذا ظهرت آثاره المهلكة في أمة ما ، لا تستطيع أن تتداركه بوفرة المال، ولا بسطوة الحكومة، ولا بقوة الوسائل المادية، ولا بتدابير العلم والعقل ، . إنه كدودة النخر إذا نخرت عمارة أتت عليها من القواعد بكل ما فيها من الأمتعة والأفرشة ، مهما كانت بالغة من القوة والرصانة .

على أن للقومية والنفسانية « اتباع الهوى » مفاسد ومعايب كثيرة أخرى هي من الوضوح حيث لا نحتاج لبيانها إلى كلام كثير ، بل لا حاجة لفهمها إلى بحث أو كلام أصلاً . فقد جاوزت حدود النظريات والأفكار إلى حدود المشاهدات والتجارب الحسية :

أفلا نشاهد اليوم بأم أعيننا كيف أن هذه المفاسد والمعايب قد أفضت بأرقى حضارة في العالم إلى شفا جرف هار من الهلاك والدمار ؟ وكيف أن الخوف من ظهور عواقبها المحتومة هو الذي تقشعر منه جلود أهل الأرض اليوم من أقصاها إلى أقصاها ؟

مبادئ شاملة

وهذا البحث الذي سقناه حتى الآن . من الممكن أن نستنتج منه مبادئ شاملة يجب أن نكون على ذكر منها بترتيب خاص قبل أن نتجاوز إلى المباحث المقبلة في هذا الكتاب ، وهي :

١ ــ ان أعمال الإنسان وأفعاله في انضباطها وانسجامها رهينة

بأن تكون له في حياته سيرة ثابتة معروفة ، إذ لا تكون حياته العملية بدون سيرة ثابتة معروفة كهذه إلا متشتتة متلونة لا يجوز الاعتماد عليها ولا الاطمئنان إليها .

٢ ــ وان سيرته في الحيــاة لا يقوم بنيانها إلا عــلى أساس أفكار مستقرة في ذهنه، متملكة عليه كل مافيه من القوى العملية، بحيث لا تعمل هذه القوى إلا تحت تأثيرها . وهذا الاستقرار الفكري هو المعروف بكلمة « الايمان » وأما الأفكار التي تستقر في ذهن الإنسان فهي المعروفة بكلمة « أركان الايمان » أو « أمور الايمان » أو « عناصر الايمان » .

٣ ــ إن سيرة الإنسان في تشكلها الحسن أو القبيح ، الصحيح أو الباطل ، القوي أو الضعيف ، إنما تنحصر في صحة هذه الأفكار وكيفية استقرارها في ذهن الإنسان . فإن كانت صحيحة وكان ايمان الإنسان بها قوياً ، فلا بد أن تكون سيرته في الحياة صحيحة مستقيمة ، وبالعكس . إذن لا بد لإقامة حياة الإنسان على نظام صحيح قوي من الدرجة الأولى ، من أن تؤسس سيرته على ايمان صحيح قوي .

٤ ــ كما أن خروج أعمال فرد واحد في حياته من حالة التشتت والتفــرق والفوضى وقيامها عــلى نظام وضابطة محكمة . . . يحتاج إلى الايمان ، كذلك إن خروج عدد كبير من الأفراد من حالة التشتت والتفرق والفوضى ، وانخراطهم في سلك جمعية ، أو أمة منظمة متحدة يحتاج إلى أن يستقر في أذهانهم جميعاً الايمان بفكرة مشتركة

واحدة . فالذي تقتضيه مصلحة العمران والتمدن الإنساني أن لا يبقى الايمان أمراً مقتصراً على الأفراد ، ولكن أن يصبح رابطة للاتحاد القومي .

٥ ــ إن مجموعة من الأفراد عندما تتكون لهم سيرة قومية مشتركة تحت تأثير الايمان بفكرة مشتركة بينهم ، ويحدث في أعمال حياتهم نوع من التجانس والتوافق تحت تأثير سيرتهم القومية المشتركة ، تخرج إلى حيز الوجود حضارة ذات طابع ونمط مخصوص. وعلى هذا يصح القول بأن الأفكار والعقائد التي تشكل السيرة القومية وتقويها وتغذيها ، لها دخل كبير ، بل لها الدخل الأعظم في تأسيس وتشكيل كل حضارة في الدنيا .

٦ ــ إن أمة ما في الأرض إذا كانت عناصر ايمانها مشتملة على أمور روحية ، فإن حضارتها تكون متجانسة متجاوبة مع ديانتها ولكن إذا كانت عناصر ايمانها مشتملة على أمور دنيوية ، فإن حضارتها تكون في واد وديانتها في واد ، وفي هذه الحالة المؤخرة الذكر لا يكون لديانتها أي تأثير جدير بالذكر على حياة أفرادها الشخصية أو القومية .

٧ ــ إن انفصال الحضارة من الدين ، وتحررها من سلطانه يفضي بها ــ ولا بد ــ إلى انحلال الأخلاق وانحطاطها عاجلاً أو آجلاً .

٨ ــ إن بقاء الحضارة تحت سلطان الدين إنما ينحصر في أن تكون أمور الايمان الديني مشتملة على أمور روحية صالحة لمسايرة ارتقاء

الإنسان في حياته العملية والعقلية من أدنى مراتبها إلى أعلاها ، وأن تكون في الوقت نفسه صالحة لتشكيل السيرة الإنسانية على وجه يجعل من الإنسان متديناً من الدرجة الأولى ، ودنيوياً من الدرجة الأولى في الوقت ذاته ، بل يجب أن تكون صالحة لتجعل اشتغاله بأمور الدنيا تديناً بحتاً ، واشتغاله بأمور الدين دنيوياً بحتاً .

٩ ــ إن أمة ما في الأرض ، إذا كانت حضارتها متجانسة متجاوبة مع دينها ، فإن ايمانها لا يكون ايماناً دينياً بحتاً ، ولا ايماناً دنيوياً بحتاً ، بل يكون ايماناً دينياً وإيماناً دنيوياً في الوقت ذاته ، ولذا فإن تزلزل ايمانها بعقائدها ، يكون فيه الهلاك لكل من دينها وحضارتها ، أو قل لكل من دينها ودنياها .

هذه هي المبادئ الأساسية التي يجب علينا أن ننظر على ضوئها إلى نظرية الإسلام وموقفه فيما يتعلق « بالايمان » .

والآن ، وقد عرفنا حقيقة الايمان ، وأهميته في سيرة الإنسان الفردية . ومنزلته الأساسية في بناء الحضارة الإنسانية ، علينا أن ننظر : ما هي الأمور التي قد دعا الإسلام الإنسان إلى الإيمان بها ؟ وما هو وزنها في ميزان النقد العلمي والعقلي ؟ وما هي منزلتها في نظامه ؟ وما هو الأثر الذي يحدث لها في سيرة الإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية .

الفصل الثاني

أمور الايمان في الإسلام :

إن القرآن الحكيم ، قد ورد فيه ذكر أمور الإيمان في الإسلام بتفصيل لا مجال بعده إلى نوع من الخلاف في شأنها . إلا أن الذين ماأدركوا أسلوب القرآن أو لم يتتبعوا مباحثه ، قد تورطوا في عدة أخطاء في شأن أمور الإيمان في الإسلام . فالقرآن تارة يبين أمور الإيمان كلها مجتمعة في موضع واحد ، وأخرى يؤكد الدعوة إلى جزء أو أجزاء منهامنفصلة ، مما قد ظن بعض الناس ، على أساسه ، أن أمور الايمان في الإسلام ، يجوز تجزئتها ، أي يجوز أن يؤمن الإنسان ببعضها وينكر بعضها ويحسب نفسه — على الرغم من هذا الإنكار — من الفائزين بالفلاح والسعادة . مع أن الذي يصرح به القرآن تصريحاً ، هو أن الإنسان إذا أراد لنفسه الفلاح ، والسعادة فلا بد له من الايمان بكل ما قد ذكر من أمور الإيمان ، بدون أن يفصل بعضها عن بعض ، لأنها بمجموعها لا تشكل إلا وحدة لا تقبل التجزئة والتفرقة ، ولأن إنكار واحد منها يبطل الإقرار بسائرها .

فقد قيل في موضع من القرآن :

(إنَّ الذينَ قالُوا رَبُّنَا الله ثمَّ اسْتَقَاموا تَتَنَزَّلُ علَيهم المَلائِكَة) [فصلت : ٣٠] .

فما الدعوة في هذه الآية إلا إلى الايمان بالله وحسب ، وعلى أساسه وحده قد بشر الإنسان بالفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة .

وفي موضع آخر قد ذكر الايمان بالله مع الايمان باليوم الآخر :

(مَنْ آمَنَ باللّهِ واليومِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلَهم أجْرُهُم) [البقرة : ٦٣] .

وقد أعيد هذا البحث عينه في (آل عمران)و (المائدة)و (الرعد) .

وفي موضع ثالث قد وردت الدعوة إلى الايمان بالرسل مع الايمان بالله :

(فَآمِنُوا بالله ورُسُلِهِ ، وَإن تُؤْمِنوا وتتقُوا فَلَكُم أجرٌ عَظِيمٌ) [آل عمران : ١٧٩] .

وقد أعيد هذا المبحث نفسه في (الحديد) .

وقد قيل في موضع :

(إنَمَّا المؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بالله وَرَسُولِهِ) [النور : ٦٣] .
وقد أعيد هذا المبحث نفسه في سورة (محمد) ، و (الجن) ، و (الفتح).

وفي موضع آخر قد ورد الأمر بالإيمان بالله وبمحمد ﷺ وبالقرآن :

(فآمِنُوا باللهِ ورَسُولِه والنُّورِ الّذي أنْزَلْنَاهُ) [التغابن : ٨] .

وفي موضع آخر ذكر الإيمان بالله مع الإيمان بالكتب الإلهية والقرآن واليوم الآخر :

(والمؤمنُونَ يؤمِنون بِمَا أُنْزِل إلَيكَ وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ . . والمؤمِنُونَ بالله والْيَومِ الآخِرِ) [النساء : ١٦٣] .

وقيل في موضع : إن انكار الله والملائكة والأنبياء والقرآن كفر وفسق :

(مَنْ كانَ عدُواً للهِ ومَلائِكَتِه ورُسُلِهِ وجِبرِيل ومِيْكَالَ فَإِنَّ اللهَ عدُوٌّ للكافِرِينَ . ولَقَد أنْزَلْنا إلَيْكَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ وما يكفُرُ بِهَا إلا الفَاسِقُون) [البقرة : ٩٨] .

وقيل في موضع آخر : إن المؤمنين هم من قد آمنوا بالله والملائكة والكتب الإلهية والأنبياء والقرآن :

(آمَنَ الرسُولُ بِما أُنْزِلَ إلَيهِ مِنْ رَبِّهِ والمؤمِنونَ . كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ ومَلائِكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسلِهِ) [البقرة : ٢٨٥] .

وقيل في موضع آخر : إن الايمان له خمسة عناصر هي الايمان بالله والايمان باليوم الآخر والايمان بالملائكة والايمان بالكتب الإلهية والايمان بالأنبياء :

﴿ولٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَن آمَن بالله وٱلْيَوم الآخِر واَلملائِكَة والكِتاب والنَّبِيين . . . أُولئِك الذِين صدَقُوا وأُولٰئِكَ هُمُ المتقُون﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وفي موضع قد وردت الدعوة إلى الايمان باليوم الآخر وقيل: إن إنكاره هو الخسران والشقاء :

﴿قَدْ خَسِرَ الذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللهِ﴾ [الأنعام : ٣١] .

وقد أعيد هذا المبحث نفسه في (الأعراف) و (يونس) و (الفرقان) و (النمل) و (الصافات) .

وجاء في موضع آخر : إن إنكار اليوم الآخر مع التكذيب بآيات الله ــ أي كتبه ــ مما يوجب العذاب الأليم :

﴿إنَّهُم كانُوا لايَرْجُونَ حِسَاباً وكَذَّبُوا بِآياتِنَا كِذَّاباً﴾ [النبأ : ٢٧ ـ ٢٨] .

وفي موضع ثالث قد عد الإيمان بالقرآن والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالكتب الإلهية السابقة من العقائد الأساسية :

﴿والَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولٰئِكَ عَلَى هُدَىً مِنْ رَبِّهِم وَأُولٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [البقرة : ٤ ـ ٥] .

وقيل في موضع رابع : إن التكذيب باليوم الآخر والكتب الإلهية والأنبياء مما يحبط أعمال الإنسان ويدخله النار :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرِينَ أعْمَالاً . الَّذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَياة الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً . أُولئِكَ الذينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم ولِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أعْمالُهُم فَلا نُقِيمُ لَهُم يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ وَزْناً . ذٰلِكَ جَزاؤُهُم جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا واتَّخَذُوا آياتي ورُسُلي هزوًا) [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٦].

ففي كل هذه الآيات التي ذكرناها آنفاً تكرر ذكر الايمان بالكتب الإلهية مرة . وقد صرح في القرآن بأسماء التوراة و الإنجيل والزبور وصحف ابراهيم من هذه الكتب . ولكن مما صرح به القرآن في عشرات المواضع من آياته أن الايمان بهذه الكتب لا يكفي ما لم يقترن بالايمان بالقرآن . إن الإنسان إذا كان مؤمناً بهذه الكتب ولم يكن مع ذلك مؤمناً بالقرآن. فهو كافر لا يقل في كفره عمن يكذب بجميع الكتب الإلهية . راجع (البقرة) و (النساء) و (المائدة) و (الرعد) و(العنكبوت) و(الزمر). لا هذا فحسب ، بل لا بد للإنسان إذا أراد لنفسه الفلاح والنجاة أن يؤمن بكل ما ورد في كل كتاب أنزله الله ، وهو إذا آمن ببعض كتاب من هذه الكتب ولم يؤمن ببعضه. لا يعتبر في نظر القرآن إلا كافراً .

وكذلك قد وردت الصراحة بأنه لابد من الايمان تفصيلاً بجميع الأنبياء المذكورة أسماؤهم في القرآن ومن الايمان إجمالاً بالأنبياء الذين ما وردت فيه أسماؤهم صراحة. بحيث أن الإنسان إذا كان مؤمناً بسائر أنبياء الله و رسله ولم يكن مع ذلك مؤمناً برسالة محمد

ﷺ ، فإنه لا يعد إلا كافراً . وهذا ما قد صرح به القرآن في أكثر من موضع ، وقد جعل الإقرار برسالة محمد ﷺ مع الإقرار برسالات سائر الأنبياء والرسل شرطاً لازماً للايمان . راجع : (البقرة) و (النساء) و (المائدة) و (الأنعام) و (الأعراف) و(الأنفال) و (المؤمنون) و (الشورى) و (محمد) و (الطلاق). والخطاب في أكثر هذه الآيات هو لأهل الكتاب (المؤمنين برسالة موسى وعيسى عليهما السلام) حيث قد دعوا فيها إلى الايمان برسالة محمد ﷺ ، وقيل لهم : إنكم لا تهتدون إلى صراط الله المستقيم ما لم تؤمنوا بالقرآن ومحمد .

وخلاصة ما يستفاد من كل هذه الآيات أن أركان الايمان في الإسلام خمسة :

(١) الله .

(٢) والملائكة .

(٣) والكتب الإلهية بما فيها القرآن الكريم .

(٤) والأنبياء بما فيهم محمد .

(٥) واليوم الآخر ، أي القيامة [١] .

---

(١) لا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكر «القدر خيره وشره» أيضاً من الأمور التي يجب الإيمان بها . ولكن الحقيقة أن الإيمان بالقدر هو جزء من أجزاء الإيمان بالله ، وعلى هذا قد ذكره القرآن في ضمن بيان التوحيد ، والسبب في ذكره في الحديث بصفة مستقلة أن هذا الجزء للايمان بالله مهم جداً ولكنه على أهميته قد يخفى على بعض الناس ، ولذا كانت الحاجة شديدة إلى ذكره بصفة مستقلة حتى يبقى للناس على ذكر منه ولا يتغافلوا عنه .

هذا إجمال . وسنبين في الصفحات التالية ماهي عقيدة الإسلام التفصيلية بشأن كل واحد من أركان الايمان هذه ؟ وما هي علاقة بعضها مع بعض ؟ ولماذا لا يجوز فصل بعضها عن بعض ؟ ولماذا أن إنكار واحد منها يستلزم إنكار سائرها ؟ وما هي الفائدة المقصودة بجعل كل واحد منها من أركان الايمان في الإسلام ؟

النقـــد العـــقلي

وأمور الايمان الخمسة هذه من قبيل المغيبات وراء عالم المادة والحس والمشاهدة ، فهي — على حسب تقسيمنا الايمـــان في الفصل الماضي — من أمور الايمان الديني والروحي. إلا أن المزية التي تميزها من سائر أمور الإيمان الديني والروحي في الدنيا أن الإسلام ما بنى عليها نظامه الروحي فحسب ، وإنما قد بنى عليها كذلك — نظامه للأخلاق والسياسة والمدنة ، وأن نظامه هذا لا يستمد كل قوته التي يحتاج إليها لقيامه ولقائه وتقدمه إلا من أمور الايمان هذه، كأنها له بمنزلة مصدر للقوة دائم لا ينفد مدده . فعلينا أن ننظر الآن أن أمور الايمان هذه التي لها مثل هذه الأهمية البالغة والمنزلة الرفيعة في نظام الإسلام ، ماهو وزنها في ميزان النقد العقلي ؟ وإلى أي حد هي صالحة لتكون أساساً لنظام للحياة الإنسانية شامل متطلع إلى الرقي والتقدم ومصدراً لقوته ؟

مما يجب أن نكون على أتم شعور منه قبل أن نخطو خطوة إلى تحقيق هذا السؤال أن الإسلام يجب أن يضع في هذا العالم أساس حضارة إنسانية خالصة لا تنتسب إلى قطر خاص من الأقطار ولا إلى

جنس عينه من الأجناس ولا تكون مخصوصة بأمة ذات لون خاص أو ناطقة بلغة خاصة ، وإنما يكون فلاح الإنسانية – بكاملها – هو مقصودها ، ويكــون من الممكن أن يقوم تحت تأثيرها وسلطانها نظام اجتماعي يعمل على تنمية وترقية كل ما فيه خير ومنفعة للإنسان من حيث هو إنسان وعلى محو واستئصال كل ما فيه شر ومضرة له من حيث هو إنسان . ومما لا يخفى بهذا الشأن أن حضارة إنسانية خالصة مثل هذه لا يمكن أن يؤسس بنيانها وترفع قواعدها على أمور للايمان لا تكون متعلقة إلا بنظام المادة والحس والمشاهدة ، إذ أن الأشياء الحسية والمادية لا تخلو من إحدى حالتين :

إما هي أشياء يتعلق بها أفراد الإنسانية كلهم على قدم المساواة كالشمس والقمر والأرض والهواء والنور وما إليها .

أو هي أشياء لا يتعلق بها أفراد الإنسانية كلهم على قدم المساواة كالوطن والجنس واللون واللغة وما إليها .

أما الأشياء من النوع الأول فلا تصلح أن تكون أموراً للايمان أصلاً إذ لا معنى للايمان بمجرد وجودها . أما الإيمان بها على اعتبار أن لها نوعاً من التأثير الاختياري في صلاح الإنسان وخيره ومنفعته ، فباطل بموجب حكم العقل والعلم ، وفوق هذا فإن الايمان بها لا يترتب عليه أي نفع في حياة الإنسان الروحية والخلقية والعملية .

وأما الأشياء من النوع الثاني ، فالظاهر في شأنها أنها لا تصلح لتكون أساساً لحضارة إنسانية عالمية مشتركة لأنها أساس للتفرقة والتجزئة و ما هي بأساس للجمع والتأليف .

إذن لا بد أن يوضع بناء حضارة عالمية مثل هذه على أمور للايمان تكون وراء عالم المادة والحس والمشاهدة .

ولكن مجرد كونها وراء عالم المادة والحس والمشاهدة لا يكفي في هذا الشأن ، إذ لا بد مع ذلك أن تكون على مزايا أخرى :

١ ــ أن لا تكون أوهاماً وخرافات ، وإنما تكون أموراً يميل العقل السليم إلى تصديقها والإذعان لها .

٢ ــ وأن لا تكون أموراً فارغة لا طائل تحتها وإنما تكون أموراً لها علاقة وثيقة بحياته العملية .

٣ ــ أن تكون بالغة من القوة المعنوية ما يستعين به نظام الحضارة في إقامة سيطرته على قوى الإنسان الفكرية والعملية استعانة تامة .

ونحن عندما نلقي نظرة على أمور الايمان في الإسلام من هذه الناحية ، نعلم أنها تخرج من هذه الاختبارات الثلاثة ظافرة ناجحة وذلك :

١ ــ أن الفكرة التي قد عرضها الإسلام فيما يتعلق بوجود الله والملائكة والوحي والرسالة واليوم الآخر ، ليس فيها شيء يعد مستحيلاً عقلياً لا يمكن إثباته أو يأباه العقل السليم . لا شك أن العقل المجرد ليس بوسعه أن يحيط بهذه الفكرة علماً أو أن يتوصل إلى كنهها أو يدرك حقيقتها إدراكاً صحيحاً كاملاً ، ولكن أليس من الحقيقة أن هذا هو شأن كل معنى مجرد قد صدقه وآمن بوجوده أهل الفكر وأرباب العلم في الدنيا حتى الآن ؟ إنهم ما صدقوا بالطاقة

(Energy) ولا الحياة ولا الجاذبية ولا النمو وما إليها من المعاني المجردة التي لا تأتي تحت الحس والمشاهدة بناء على أنهم قد أدركوها على حقيقتها، وإنما قد صدقوا بها بناء على أن الآثار المخصوصة المتنوعة التي يشاهدونها لابد لتوجيهها وتعليلها من وجود هذه المعاني المجردة عندهم، وأن النظريات التي قد أقاموها عن النظام الباطني لظواهر الأشياء، كلها تقتضي وجود هذه المعاني. فالمعاني المجردة التي يطالبنا الإسلام بأن نؤمن بها، ليس من الضروري لتصديقها أن تدركها عقولنا على حقيقتها وتنفذ إلى أعماقها وإنما يكفي لذلك بموجب حكم العقل، أن نعرف أن ليست الفكرة التي قد عرضها الإسلام فيما يتعلق بالكون والإنسان بمتناقضة مع العقل، وأنها في الأغلب صحيحة، وأنها تقتضي وجود تلك الأمور الخمسة التي قد عرضها الإسلام كأمور أو أركان للإيمان.

إن نظرية الإسلام هي:

(١) أن ذاتاً مقتدرة هي التي قد أقامت هذا النظام الكوني الذي يعيش فيه الإنسان.

(٢) وأن ذاتاً مقتدرة هي التي تتولى تسييره، وأن هناك ذوات متعددة أخرى تخضع لهذه الذات المقتدرة العليا وتدبر شؤون هذا الكون العظيم وفق أحكامها وأوامرها.

(٣) وأن هذه الذات المقتدرة العليا هي التي قد خلقت الإنسان وأودعت طبيعته ميلاً إلى الخير والشر معاً، ففيه الاجتماع للحكمة والسفاهة وللعلم والجهل في آن واحد، وله أن يسلك أيهما شاء:

طريق الخير أو طريق الشر ، وهو في حياته إنما يتبع من قوى الخير والشر المتضاربة وميولها المتناقضة ما يكون مستولياً على ذهنه وفكره .

(٤) وأن الخالق لكي يمد قوى الخير في تصارعها مع قوى الشر ولكي يهدي الإنسان إلى طريق الخير ويبعده عن طريق الشر ، يصطفي من عباده رسلاً يعطيهم علماً صحيحاً وينيط بهم مهمة إرشاد الناس أجمعين إلى طريق الحق والخير والرشد .

(٥) وأن ليس الإنسان بكائن غير مسؤول لا تبعة عليه ، وإنما هو مسؤول بين يدي خالقه ليجزيه على كل صغير أو كبير ، تافه أو جليل من أعماله الاختيارية إن خيراً فخير و إن شراً فشر .

فهذه النظرية بنفسها تقتضي وجود كل من « الله » و« الملائكة » و « الوحي » و « الرسالة » و « اليوم الآخر » . وليس من هذه الأمور أمر يعد مستحيلاً عقلياً ولا من الممكن أن يعبر عنه بالوهم والخرافة ، بل إننا كلما ازددنا تفكراً فيه ، ازددنا ميلاً إلى تصديقه واليقين بوجوده .

وسواء أأدركنا حقيقة « الله » أو لم ندركها ، فإنه لا بد من الاعتراف بوجوده على كل حال ، ضرورة لا ينحل بدونها لغز الكون ومعمعة حقيقته .

وإننا — كذلك — لا نستطيع أن نحدد كيفية وجود الملائكة ، ولكن لا مجال لإنكار نفس وجودهم ، ولذا فقد اعترف أهل العلم والحكمة قاطبة بوجودهم على وجه من الوجوه ، وإن كانوا لا يذكرونهم باسمهم الذي قد ذكرهم القرآن به .

أما قيام الساعة واختلال نظام الدنيا يوماً من الأيام فهو الظاهر بل هو أقرب مايكون إلى اليقين بموجب القياسات العقلية .

وأما أن الإنسان مسؤول بين يدي ربه وأنه مستحق للثواب أو العقاب على أعماله ، فهو وإن كان إثباته بدليل قاطع أمراً مستحيلاً ولكن العقل السليم بفطرته مضطر إلى الاعتراف به إلى حد أن كل النظريات التي قد أقامها الإنسان عن موته وحالته بعد موته ، فإن نظرية الإسلام هي أكثرها صحة ونتيجة وأقربها إلى القياس والفهم.

وأما الوحي ، فالظاهر في أمره أنه لا يمكن إثباته ببرهان علمي قاطع ، إلا أن الكتب التي قد عرضت على الناس كوحي من الله إذا تأملنا في معانيها وسبرنا في غور مطالبها ومباحثها علمنا أحسن علم أن أي كتاب من الكتب الإنسانية لم يترك على أفكار بني البشر وأعمالهم آثاراً أعمق ولا أوسع ولا أثبت ولا أنفع من آثارها هي . وذلك ما فيه أوضح دليل على أن مـــا في هذه الكتب شيء غير عادي لم يوجد في أي كتاب من الكتب الإنسانية .

وقل مثل هذا بالنسبة لأولئك الأطهار الذين عرضوا أنفسهم على الدنيا كرسل من الله . فهل تجد سيرة أي زعيم عادي في الدنيا أطهر وأنقى من سيرة هؤلاء الرسل صلى الله عليهم وسلم ؟

والذي يستفاد من هذا البيان أن أمور الايمان في الإسلام غير متناقضة مع العقل ، وأن العقل ليست عنـــده وسائل لإنكـــارها والتكذيب بوجودها ، وأن ليس فيها شيء يضطر الإنسان إلى رفضه والتخلي عنه بعد بلوغه أي مرحلة من مراحل الارتقاء العقلي والعلمي

بل الذي يقتضيه العقل على خلاف ذلك ، أنها أقرب ما يكون إلى الصحة والصواب .

أما الايمان والتصديق فإنهما لا يتعلقان بالعقل على قدر ما يتعلقان بالوجدان والضمير . أفلا ترى أن كل المعاني المجردة والأمور الغيبية (المغيبات) التي نؤمن بها ، إنما نؤمن بها على أساس الوجدان والضمير ، وإذا أبينا أن نؤمن بواحد منها أو كنا لا نطمئن إليه نفساً فمن المستحيل أن نجبر على الايمان به بأي دليل . فكل الدلائل والبراهين التي قد أقيمت على وجود الأثير **Ether** مثلاً ، ليس منها دليل يثبته على وجه يقيني قاطع لايترك مجالاً للشك في وجوده.. وهذه الدلائل هي التي نظراً إليها يؤمن فريق من أهل العلم والحكمة بوجود الأثير ويأبى فريق آخر منهم أن يؤمنوا به نظراً لضعف هذه الدلائل وضآلتها .

فالتصديق والايمان إنما هما مرتهنان بطمأنينة الضمير وشهادة الوجدان . وكل ما للعقل من الدخل في شأنهما ، هو أن الأمور التي يكون التصديق بها مخالفاً للعقل ، فإن صراعاً يقوم في شأنها بين العقل والوجدان ولا يكون ايمان الإنسان بها إلا ضعيفاً ، وأما الأمور التي لا يكون التصديق بها مخالفاً للقياس العقلي أو التي يساعد العقل نفسه على التصديق بها إلى حد ما ، فإن الضمير يزداد طمأنينة في شأنها وذلك ما يقوي الايمان ويزيده أصالة و رسوخاً .

ثانياً : ان هناك عدداً عظيماً من أمور الغيب (المغيبات) هي بمنزلة أمور علمية ، أي ليس لها نوع من العلاقة بحياتنا العملية ،

وذلك أن الأثير Ether والهيولى والصوت المطلق والمادة والفطرة وقانون الفطرة وقانون العلة والمعلول ... فهذه وكثير من أمثالها وإن كانت أموراً مسلماً بها أو مفروضة في دنيا العلم ولكن لا يترك الايمان بها أو عدم الايمان بها أثراً ما على شؤون حياتنا العملية. أما المغيبات التي قد عرضها الإسلام ودعا إلى الايمان بها، فما هي مثل هذه الأمور. ما هي بمنزلة أمور علمية مجردة ، بل لها علاقة وثيقة بحياتنا الخلقية والعملية ، وإنما السبب في جعل الإسلام الايمان بهـا أهم مبادئـه الأساسية ، أنها ليست بحقائق علمية بحتة ، بل إن علمها الصحيح والايمان الكامل بصحتها ليتركان على خصالنا النفسية وعلى أعمالنا الشخصية وعلى شؤوننا الاجتماعية آثاراً فعالة عميقة ، مما سنتكلم عليه بكل تفصيل في الصفحات الآتية إن شاء الله .

ثالثاً : إن القوة التي يحتاج إليها نظام الحضارة الإسلامية لإقامة سيطرته ، واستحكام سلطانه على الشعوب والأمم الإنسانية ذات المراتب العلمية والدرجات العقلية المتنوعة في كـل شعبة من شعب حياتها الدقيقة أو الجليلة ، الخافية أو البارزة . . . إن هذه القوة العظيمة لا ينالها نظـام الحضارة الإسلامية إلا بتصديق أمور الايمان في الإسلام . فاليقين بأن إلهاً سميعاً بصيراً قوياً عزيزاً رؤوفاً رحيماً هو الذي يحكمنا وأن له جنوداً لا تحصى في كل مكان وفي كل لحظة ، وأنه هو الذي قد أرسل رسوله، وأن ليست الأحكام التي قد جاء بها الرسول وأمر الناس باتباعها والتزامها مما قد اختلقه الرسول من عند نفسه ، وإنما هي من عند الله تعالى ، وإننا لا نكون على الطاعة أو المعصية لأحكامه إلا وسنرى نتائجها المرضية أو غير المرضية.

إن هـــذا اليقين يحوز في نفسه قوة هائــلة عظيمة مــن المحال أن تتأتى للإنسان بطريق غير طريق تصديق أمور الايمان في الإسلام . إن غاية ما تستطيعه القوى المادية هو أن تسيطر على جسد الإنسان وتتحكم في ظاهر أعماله . وأما التأثيرات الخلقية للتربية والتعليم ، فلا تجاوز الطبقات العليا إلى الطبقات الأخرى في المجتمع الإنساني . وأما القانون ، فإن دائرة نفوذه وسلطاته محدودة بما تنتهي إليه سلطة الحكومة القائمة بتنفيذه. وأما هذه القوة فتستولي على القلب والروح ، وتلقي القبض على العوام والخواص والعلماء والجهلاء والعقلاء والبلهاء جميعاً ولا تفتر عن عملها ولا في خلوات الغابة ولا في ظلمات الليل . وحيث لا يكون من ينهى عن اقتراف الذنب ولا من يلوم عليه حتى ولا من يراه ، فإن اليقين بأن الله عالم الغيب والشهادة وأن هدي الرسول حق وأن الساعة (القيامة) آتية لا ريب فيها يعمل ما لا يعمله ـ ولا يمكن أن يعمله جندي من الجيش أو الشرطة ولا حاكم في المحكمة ولا أستاذ في الكلية . ثم إن هذا اليقين قد جمع بين ما لا يحصى من عناصر إنسانية متضاربة حتى أخرجها بصورة أمة واحدة وأنشأ التوافق والتجانس في أفكارها وأعمالها وخصالها وعاداتها ونشر فيها عــلى اختلاف ظروفها وأحـــوالها وأوضاعها حضارة واحدة ونفخ فيها روح التضحية والفدائية في سبيل غاية عليا ومقصد نبيل ، مما لا يوجد له نظير مهما بالغنا في البحث والتنقيب.

فالذي قد أثبتناه حتى الآن ، هو أن المراد بالايمان في اصطلاح الإسلام هو الايمان بالله وملائكته وكتبه و رسله واليوم الآخر ، وأن هذه الأمور الخمسة باجتماعها تشكل « كلاً » لا يقبل التجزئة ، أي

أنها مرتبطة فيما بينها ارتباطاً وثيقاً بحيث أن إنكار واحد منها يبطل الايمان بسائرها . ثم قد أثبتنا بالنقد العلمي أن الحضارة التي يريد الإسلام إقامتها ، لا تستطيع القيام إلا على أساس هذه الأمور . ثم قد أثبتنا أن هذه الأمور التي قد دعا الإسلام إلى الايمان بها ، ليس فيها شيء يعجز ايمان الإنسان به أن يسايره في ارتقائه العلمي والعقلي .

وعلينا الآن أن نتولى الجواب على السؤال الثالث وهو : ما هي منزلة الايمان في نظام الإسلام ؟ ولماذا له هذه المنزلة ؟ والناس قد جاؤوا بغير خطإ واحد بشأن هذا السؤال حتى إنه ماسلم من الخطإ فيه كثير من أهل العلم والمعرفة ، ولذا نرى من الواجب أن نجيب عليه بشيء من البسط والتفصيل .

أهمية الايمان في نظام الإسلام

إذا سأل سائل : ماهو لب دعوة الإسلام وأصل أصولها ، فإنه من الممكن أن نجيب على سؤاله بكلمة واحدة هي : « الايمان » ، إذ ليس المقصود الوحيد من نزول القرآن ورسالة محمد ﷺ إلا الدعوة إلى « الايمان » . يقول القرآن بكل صراحة عن الذي نزل عليه ﷺ أنه مناد للايمان :

(رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا) [آل عمران : ١٩٣] .

ويقول عن نفسه : إنه لا يهدي إلا المتقين الذين هم مستعدون للايمان بالمغيبات أي : هذه العناصر الخمسة التي قد ذكرناها آنفاً للإيمان : (هدىً للمتقين

الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) [البقرة: ٢ – ٣] وهو لا يدعو بكل ما جاء به من الوعظ والتلقين والوعد والوعيد والبحث والاستدلال والقصص والحكايات إلا إلى الايمان ، وهو لا يخطو خطوة إلى تزكية النفس وإصلاح الأخلاق ووضع القوانين للحياة المدنية والاجتماعية إلا بعد مرحلة الايمان. ولما كان الايمان هو الحق والصدق والعلم والهداية والنور والبصيرة في نظر القرآن، فقد قرر عدم الايمان، أي الكفر جهلاً وظلماً وباطلاً وكذباً وظلمة وضلالاً في غير واحدة من آياته .

إن القرآن الحكيم قد جعل كل من في الأرض من أفراد الإنسانية إلى فريقين وقد رسم بينهما خطاً فاصلاً واضحاً : المؤمنين وغير المؤمنين . وإنما المؤمنون في نظره هم على الحق والصواب، وهم المتنورون بنور العلم والمعرفة قد انفتح لهم طريق الهدى والتقوى والرشد والصلاح ولهم وحدهم الفلاح والسعادة والنجاة . وأما غير المؤمنين فهم في نظره كافرون ظالمون جاهلون يتسكعون في مجاهل الظلمة والضلال، وقد انغلق على وجوههم طريق الهدى، ولانصيب لهم من التقوى والصلاح والرشد، وقد حق عليهم الخسران والضلال والشقاء . يقول عز من قائل :

(مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى والأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ والسَّمِيعِ) [هود: ٢٤] .

ويقول مخاطباً رسوله :

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم) [الشورى : ٥٢] .

﴿ وأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

أي أن طريق الايمان هو الصراط المستقيم وأنـــه من اللازم إذا أراد الإنسان لنفسه الرشد والهداية أن يترك كل سبيل غير سبيل الايمان . وقـــد صرح بأوضح ما يكون من الكلمات وأوقع ما يكون من أساليب البيـــان أن المؤمن بالله و رسوله و كتـــابه عنده نور يستطيع بـــه أن يسلك الصراط المستقيم دون أن يخشى عـــلى نفسه الضلال ودون أن يشتبه عليـــه هـــذا الصراط المستقيم فيتنكب عنـــه إلى ســـبيل من السبل الزائغة . وبذلك لا بـــد أن يصل إلى غايته ومقصوده آمناً سالمـــاً مرتاحاً . وأما الكافر (غير المؤمن) ، فما له من نور ومن الصعب عليه أن يميز الصراط المستقيم عن السبل الزائغة الأخرى ، فهو إنما يخبط في الظلام خبط عشواء ولا يعتمد في سلوكه على شيء غير الظن والحدس والتخمين ، ومعلوم أن ليس الظن والحدس والتخمين بوسيلة يقينية لسلوك الصراط المستقيم :

﴿ إنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحقِّ شَيئاً ﴾ [يونس: ٣٦ ، النجم : ٢٧]

والإمكان الغالب إذا اتبعه الإنسان انه سينحرف عن الصراط المستقيم فيتزلق إلى الحضيض تـــارة ويقع في الأشواك أخـــرى . يقول القرآن عن الفريق الأول :

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وعَزَّرُوهُ ونَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الذي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُون﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

(اتَّقُوا الله وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ويَغْفِر لَكُم) [الحديد : ٢٨] .

ويقول عن الفريق الثاني :

(ومَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاء إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلا يَخرُصُون) [يونس : ٦٦] .

(إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وإنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيئاً) [النجم : ٢٨] .

(ومَنْ أَضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيرِ هُدىً مِنَ الله إنَّ اللهلايهدِي ٱلْقَوْم الظَّالِمِينَ) [القصص : ٥٠] .

(ومَنْ لَمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُور) [النور : ٤٠] .

وهذا المبحث قد جاء بيانه على أمثل وجه وأكمله في سورة البقرة، ويتجلى به الفرق العظيم بين هذين الفريقين من بني الإنسان على أساس الفرق بين الايمان والكفر . استمع إلى قوله جل وعلا :

(لا إكْرَاهَ في الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ويُؤمِنْ بالله فَقَد اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَى لا انْفِصامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيم . الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُم الطَّاغُوتُ

يُخْرِجونَهُم مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ أُولٰئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدون) [البقرة ٢٥٦ ـ ٢٥٧] .

تقدم الايمان على العمل

ثم إن هذا الفرق بين الايمان والكفر قد أحدث فرقاً عظيماً أساسياً بين الأعمال الإنسانية، وبيانه أن الإنسان لا يكون صالحاً تقياً راشداً في نظر القرآن إلا بأن يتحلى بالايمان . وبدون الايمان لا تطلق على أي عمل من أعماله كلمة الصلاح والرشد والتقوى مهما كان بالغاً من الرشد والتقوى والصلاح في نظر أهل الدنيا. يقول جل جلاله :

(وَالَّذي جَاءَ بِالصِّدقِ وصَدَّقَ بِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْمتَّقُون) [الزمر : ٣٣] .

(هُدىً للْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون) [البقرة : ٢ ـ ٤] .

فالايمان هو الأساس الذي يقوم عليه صرح الصلاح والرشد والتقوى في نظر القرآن . إن المؤمن تنمو وتتزكى أعماله في نظر القرآن كما يخضر وينضر ويورق ويثمر ما يغرسه البستاني من أشجاره في أخصب أرض وأجود هواء (١) . وبخلاف هذا فإن القرآن لا يذكر الايمان والعمل في موضع من آياته المتعددة إلا ويقدم فيه الايمان على العمل ولا يقر عملاً مهما كان صالحاً بظاهر صورته

(١) وقد جاء بيان هذا المبحث بعين هذا التمثيل ـ تقريباً ـ في القرآن، راجع (البقرة : ٢٦٤) .

وسيلة للنجاة والفلاح إلا إذا كان قائماً على أساس الايمـــان [1] ، بل إنّك إذا أمعنت النظر في القرآن . علمت أن القرآن ما جاءت فيه تعاليم خلقية ولا أحكام قانونية إلا وأنّ الخطاب موجه فيها الى الذين قد دخلوا في حظيرة الايمان واستظلوا بظله ، ومن ثم لا تبتدئ آياته الواردة فيها هذه التعاليم والأحكام إلا بقوله :

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) .

أو يصرح فيها أثناء البيان على وجه من الوجوه بأن الخطاب فيها إنما هو للذين قد دخلوا الايمان . أما الكفار — غير المؤمنين — فما الدعوة لهم إلى صلاح الأعمال ، وإنما الدعوة لهم إلى دخول الايمان ، وقد قيل بكل صراحة : إن الذين لم يدخلوا الايمان ، لا قيمة ولا وزن ولا حقيقة لأعمالهم وإنما هي باطلة ضائعة قطعاً :

والَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن ماءً حَتَّىٰ إذا جاءَهُ لَم يَجِدْهُ شَيْئاً) [النور : ٣٩] .

(قُل هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا ، الذِينَ ضلَّ سَعْيُهُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا وهُمْ يَحْسبون أنَّهم يُحسِنُون صُنعاً . أُولٰئِكَ الذِينَ كَفَرُوا بِآيَـــاتِ ربِّهم ولقائـــه فَحبِطَت أَعمَالُهم فلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً ، ذٰلِكَ جَزَاؤُهم جَهَنَّمُ بما كَفَرُوا واتَّخذوا آياتي و رُسُلي هُزُوَا) . [الكهف : ١٠٣ ، ١٠٦] .

---

(١) راجع على سبيل المثال (البقرة : ٢٧ ـ ٨٢ — ٢٧٧) و (النساء : ١٧٣) و (المائدة : ٩) و (النحل : ٩٧) و (طه : ٧٥) و (التين) و (العصر) .

وهذا المبحث عينه قد أعيد في[المائدة : ٥] و[الأنعام : ٨٨] و[الأعراف : ١٤٧] و[التوبة : ١٧] و[هود: ١٦] و[الأحزاب : ١٩] و [الزمر : ٦٥] و [محمد : ٩] وقيل بكل صراحة في سورة [التوبة]: إن الكافر مهما كانت أعماله صالحة بظاهر صورتها فإنه لا يكون مساوياً للمؤمن أبداً :

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ الآخِرِ وجَاهَدَ في سَبِيلِ الله، لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ واللهُ لا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَم دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُون) [التوبة : ١٩ ـ ٢٠] .

الخلاصة :

بهذا البيان وبما قد ذكرنا لتأييده وتوثيقه من آيات القرآن تتجلى لنا عدة أمور هي :

١ ـ أن الايمان هو الحجر الأساسي لنظام الإسلام فلا يقوم صرحه إلا على دعامته، وأن الفرق بين الكفر والإسلام لا يقوم إلا على الفرق بين الايمان وعدم الايمان .

٢ ـ إن أول ما يدعو إليه الإسلام الإنسان هو أن يؤمن ، فالذي يستجيب لهذه الدعوة . يدخل في حظيرة الإسلام ويستظل بظله وله وحده كل ماجاء في القرآن من التعاليم الخلقية والقوانين المدنية ،

والذي يرفض هذه الدعوة ويبقى خارجـاً من دائرة الإسلام ، لا يتعلق به أي تعليم خلقي أو قانون مدني وارد في القرآن .

٣ ـ إن الايمان هو الأصل والأساس للعمل، فهو ـ أي العمل ـ لا يستحق القدر والوزن والقيمة في نظر الإسلام إلا إذا كان قائماً على أساس الايمان ، فحيث لا وجود لهذا الأساس ، لا قدر ولا قيمة ولا وزن للأعمال .

اعتراض :

ومن الناس من لا يدرك للايمان هذه الأهمية ، فيقول: إن مجرد الاعتقاد بنظريات عقلية ليس بشيء جوهري حتى يصح على أساسه تقسيم النوع البشري إلى فريقين ، وإنما الشيء الجوهري الذي يجوز أن يكون أساساً لهذا التقسيم هو الأخلاق والأعمـال إذ لا يقوم الامتياز بين الصحيح والباطـل أو بين الصواب والخطإ إلا على أساسها ، فمن كانت أخلاقه جميلة وأعماله مرضية وسيرته طاهرة فإننا لا جرم ندعوه صالحاً ونعده من طائفة المتقين سواء أكان معتقداً بالنظريات التي قررها الإسلام « أمور الايمان » أو لم يكن معتقداً بها أصلاً ، ومن لم يكن متحلياً في نفسه بهذه الصفات الجميلة ، فإنه لا أساس للفرق الاعتقادي بين الكفر والايمان في شأنه وإننا لا جرم ندعوه فاسقاً بأية عقيدة كان يؤمن أو لم يكن يؤمن بعقيدة أصلاً . وأما القول بأن الأعمال إنما يتوقف وزنهـا وقيمتها على الايمان وأنه من المستحيل أن يعتبر عمل ما صالحاً إذا كان لا يقوم على أساس الايمان ، ففيه النظر ، لأنه لا يجوز أن يعترف بدون دليل

عقلي بأن شخصاً إذا كان يؤمن بعقيدة غير عقيدة الإسلام فيما يتعلق بالله أو الرسول أو الكتاب أو اليوم الآخر فما كل أخلاقـه الجميلة وأعماله الصالحة إلا هباء منثوراً لمجرد إيمانه بتلك العقيدة إن الإسلام إذا كانت له عقيدة خاصة بشأن ما لا يراه الإنسان ولا يحسه ، فمن حقه – ولا شك – أن ينشرها ويقوم بدعوة الناس إلى اعتناقها ولكن لا يصح توسيع دائرة العقيدة إلى حدود الأخلاق وجعل فضيلة الأخلاق وصلاح الأعمال وطهارة السيرة منحصرة في الايمان بعقيدة الإسلام .

هذا ما يعترض به فريق من غير المسلمين على عقيدة الإسلام . ومن دواعي الأسف أن كثيراً من المسلمين أنفسهم قد تأثروا به ومن ثم قد أعربوا عن استعدادهم لإدخال التغيرات على عقيدة الإسلام ومبادئه الأساسية . والحقيقة أن هذا الاعتراض لا يلبث أن يزول بنفسه عن ذهن الإنسان إذا مـا أدرك حقيقة الايمان في الإسلام وعلاقته بالأخلاق والأعمال . وهذا ما نريد بيانه فيما يلي .

تحقيق الاعتراض :

إن أول مـا يجب أن نكون على ذكر منه بهـذا الشأن ، هو أن الفرق بين الصالح والفاسق من أفراد النوع البشري إنما يقوم في حقيقته على أساسين : الفطرة والاكتساب ، أما الفطرة فما حسنها أو قبحها في قدرة الإنسان ، وأما الاكتساب فيتوقف في صلاحه أو عدم صلاحه على صلاح أو عدم صلاح الأسلوب الذي يستخدم عليه الإنسان عقله وفكره واختياره وإرادتـه ، وهذان الأساسان

ـ أي الفطرة والاكتساب ـ متداخلان في حياة الإنسان على اعتبار تأثيرهما بحيث لا نستطيع التمييز بينهما وبين حدود تأثيرهما، على أننا نعلم من الوجهة النظرية أنهما يوجدان في حياة الإنسان الفكرية والعملية مستقلين منفصلين، فالحسن أو القبح إذا كان قائماً على أساس الفطرة، لا يستحق وزناً في ميزان العدل على اعتبار أصله وحقيقته، لأن الوزن إنما ينبغي أن يكون للحسن أو القبح إذا كان قائماً على أساس الاكتساب[1] . أما المساعي والجهود التي تبذل في الدنيا لإصلاح الإنسان عن طريق التعليم والتهذيب والتثقيف، فلا تتعلق كلها بالأساس الأول، أي الفطرة، إذ لا يمكن تبديل حسنه قبحاً أو قبحه حسناً، وإنما هي تتعلق بالأساس الثاني، أي الاكتساب لأن الاكتساب هو الذي من الممكن توجيهه إلى الحسن والصلاح عن طريق التعليم الصحيح أو التربية الصالحة، أو الى القبح والفساد عن طريق التعليم الفاسد والتربية الخاطئة .

وعلى هذا، فأي منهاج عسى أن يكون صحيحاً معتدلا بالنسبة لمن أراد أن يوجه قوى الإنسان الاكتسابية إلى الحسن والصلاح ويرقيها في سبيله سوى أن يحلي الإنسان بالعلم الصحيح ويضع له على ضوئه نظاماً للتربية يفرغ أخلاقه وأعماله وأفكاره ـ إلى حيث

---

(١) وهذا عين ما يشير اليه القرآن بقوله : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (البقرة : ٢٨٦) . وهذا من جهة الاكتساب وأما من جهة الفطرة ، فيقول القرآن الكريم : إن الله هو الذي قد فطر من شاء على ما شاء : (هو الذي يصوركم فى الارحام كيف يشاء) (آل عمران : ٦) والله سبحانه يعلم أحسن علم ما هو نصيب كل من الفطرة والاكتساب في صلاح أو عدم صلاح حياة الانسان : (ان الله لا يخفى عليه شيء) (آل عمران : ٥) .

لها علاقة بالاكتساب لا بالفطرة – في أحسن وأعدل مايكون من القوالب ؟ ومن اللازم في هذا الباب أن يكون العلم مقدماً على التربية . حقيقة لا يكابر في صحتها عاقل، لأن العلم هو أساس العمل ومن المحال أن يكون العمل صحيحاً مالم يكن العلم صحيحاً .

ولنأخذ بالبحث الآن العلم .

إن العلم على نوعين: علم يتعلق بجزئيات حياتنا ، وهو الذي نتلقاه في المدارس والكليات ويشتمل على عدة فنون وعلوم. وعلم هو العلم الكلي وهو المعروف في الاصطلاح في القرآن (بالعلم) – معرفاً باللام – وهو لا يتعلق بمعاملاتنا وجزئيات حياتنا وإنما يتعلق بنا (نحن)، ويأخذ بالبحث موضوع : «ماذا نحن، وما هي مكانتنا في هذه الدنيا التي نعيش فيها ؟ ومن ذا الذي قد خلقنا وهذه الدنيا ؟ وما هي العلاقة بيننا وبين هذا الخالق ؟ وما هو الصراط المستقيم لقضائنا أيام حياتنا ؟ وكيف لنا أن نتعرف على هذا الصراط المستقيم ؟ وما هي الغاية التي ستنتهي إليها حياتنا في هذه الدنيا ؟ » .

إن هذا «العلم الكلي» له حكم الأصل والأساس وما كل علومنا الجزئية إلا فروع لهذا الأصل، وعلى استقامته أو اعوجاجه تتوقف كل أفكارنا وأعمالنا وشؤون حياتنا في صحتها أو فسادها . فأيما نظام يوضع لتربية الإنسان وتهذيبه وتثقيفه، لا يقوم بنيانه إلا على أساس هذا «العلم الكلي»، وهو إن كان صحيحاً صالحاً فلا بد أن يكون نظام التربية والتهذيب هو الآخر صحيحاً صالحاً، وإن

كان فيه نوع من الفساد، فلا بد أن يفسد بفساده نظام التربية والتهذيب أيضاً .

والمعتقدات المذكورة في القرآن الكريم عن الله والملائكةوالرسل والكتب واليوم الآخر لا تتعلق كلها إلا بهذا العلم الكلي، وماشدد القرآن في دعوة الإنسان إلى الإيمان بها إلا لأن هذا العلم الكلي هو الذي يقوم عليه نظام الإسلام للتربية والتهذيب .

إن الإسلام لا يصح في نظره نظام لتربية قوى الإنسان الاكتسابية وتهذيبها وتثقيفها إلا إذا كان قائماً على أساس العلم الكلي الصحيح . أما النظم التي قد أقيمت في الدنيا بدون علم كلي أو لم يوضع بناؤها على أساس علم صحيح، فهي باطلة في نظر الإسلام، إذ أن قوى الإنسان الاكتسابية قد وجهت تحتها إلى سبل خاطئة باطلة، ومهما كانت جهوده التي تنصرف فيها تبدو صحيحة في ظاهر أمرها، فما موضع انصرافها إلا خاطئ باطل وما وجهتها إلى غاية صحيحة على اعتبار الحقيقة والواقع، وليس لها مجال أن توصل الإنسان إلى الفلاح والسعادة، وإنما هي ضائعة باطلة لا ترجع على الإنسان بنوع من المنفعة الحقيقية أبداً ومن ثم فإن الإسلام لا يدعو أي سبيل غير سبيله «صراطاً مستقيماً» ولا يكتفي بدعوة الإنسان إلى اتباع سبيله «الصراط المستقيم» وإنما يطالبه كذلك بأن يترك كل سبيل سواه .

(وأنّ هذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتّبِعُوهُ ولا تَتّبِعوا السّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) (الأنعام: ١٥٣) .

ومن ثم يقول الإسلام: إن الإنسان إذا لم يكن صحيح الإيمان، فإن جملة أعماله باطلة لا ترجع عليه بنتيجة حقيقية ثابتة:

(وَمَنْ يَكْفُرْ بالإيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وهوَ في الآخرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ) (المائدة: ٥).

إن المعتقدات التي قد عرضها الإسلام ودعا إليها، هي وحدها عين العلم وعين الحق وعين الصدق وعين الرشد وعين الهدى وعين النور عنده، وهي مادامت كذلك، فمن اللازم أن لا تكون كل المعتقدات التي تخالفها إلا عين الباطل وعين الجهل وعين الكذب وعين الضلال وعين الفساد وعين الظلمة. والإسلام لو لم يأت بمثل هذه العزيمة في مطالبة الإنسان بتركها، ولو أنه اعتبر المؤمنين بها كالمؤمنين بمعتقداته هو، فكأني به قد اعترف بأن ليست معتقداته عين الحق والصواب وأنه بنفسه ليس على يقين من كونها صدقاً وهدىً ونوراً، ولما كان ـ إذن ـ أي معنى لدعوته الناس إلى هذه المعتقدات ولوضعه نظاماً للتربية والتهذيب على أساسها فإنه لو اعترف بأن علوماً أخرى أيضاً صحيحة على مخالفتها لعلمه أوقال: إنه لا بأس بأن لا يوجد في الدنيا علم كلي أصلاً، لما بقي أي معنى لعرضه علمه الكلي على الناس ودعوته إياهم إلى الإيمان به، وكذلك أنه لو اعترف بأن الإنسان يستطيع أن ينال الفلاح والسعادة عن طريق النظم الأخرى التي قد وضعت للتربية والتهذيب على أساس العلوم المخالفة لعلمه الكلي أو بدون أي علم كلي كما له أن ينالهما عن طريق نظامه القائم على أساس علمه الكلي، لما كان وزن قطمير لدعوته الناس إلى اتباع نظامه.

وفوق هذا، إنك إذا كنت لا تزال مستحضراً في ذهنك البحث الذي سقناه في الصفحات الماضية عن حقيقة الإيمان، فإنه من السهل عليك أن تدرك : لماذا قد أكد الإسلام دعوة الناس إلى الإيمان .

إن الذين يعيشون في عالم الخيال، يستطيعون أن يشيدوا قصوراً شامخة حتى على الرمال وسطح الماء بل وفي الفضاء، ولكن الإسلام وهو دين قائم على العلم والعقل والحكمة، لا يرضى بأن يقيم بناء نظامه للتربية والتهذيب على أسس واهية متداعية. وانه قبل كل شيء آخر يقيم أسساً متينة قوية في أعماق روح الإنسان وقواه للفكر والتأمل، ثم يشيد على تلك الأسس بنياناً متماسكاً لا يتطرق إليه الوهن أبداً. يلقي في روع الإنسان ويرسخ في ذهنه أن لك رباً هو حاكمك ومالكك في الدنيا والآخرة، وليس لك بحال أن تخرج من حدود سلطته أو تخفي على علمه الواسع شأناً من شؤون حياتك وان هذا الرب قد أرسل إليك رسوله ليهديك إلى صراطه المستقيم كما قد أنزل على ذلك الرسول كتابه الذي إذا اتبعته نلت رضاه، وإذا خالفته حق عليك عذابه مهما كانت مخالفتك له خافية لا يعرفها إنسان غيرك .

والإسلام بعدما يطبع الإنسان بهذا الطابع ويلقي في روعه هذه الفكرة، يدعوه إلى تحلية نفسه بالأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة ويأمره بأمور وينهاه عن أخرى ويطالبه بطاعة تعاليمه واتباع أحكامه بقوة هذا الطابع نفسه . إنه على قدر مايكون هذا الطابع قوياً عميقاً، يكون الاتباع كاملا والطاعة صحيحة ونظام التربية والتهذيب محكماً متماسكاً، وأما إذا كان هذا الطابع ضعيفاً

أو لم يكن له وجود أصلا أو كان القلب مطبوعاً بطوابع أخرى غيره، فلا يكون تعليم الأخلاق إلا نقشاً على سطح الماء، ولا تكون أحكام الأمر والنهي إلا ضعيفة متداعية، ولا يكون نظام التربية والتهذيب إلا بيتاً كالبيوت التي يبنيها الأطفال على الرمال ولا يعرفون إلى متى تظل قائمة ومتى تنهدم وتلصق بالأرض. إن نظاماً متداعياً مثل هذا قديكون جميلا رائعاً واسعاً مرتفعاً رأي العين، ولكن بدون أن يكون له نصيب من المتانة والتماسك. وفي هذا يقول تبارك وتعالى:

(ألم ترَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ تؤتي أكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لعلَّهم يتذكَّرون. ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتُثَّتْ من فوقِ الأرضِ ما لها من قرارٍ يُثبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ويُضِلُّ اللهُ الظالمينَ ويفعلُ اللهُ ما يشاءُ) (ابراهيم: ٢٤ — ٢٦).

وفي هذا الفصل إنما تناولنا بالبحث أمور الإيمان الخمسة في الإسلام على وجه عام متوخين الإيجاز في البحث. وهانحن أولاء نحب أن نتناول بالبحث في الفصول الآتية: ماهي العقيدة التي قد عرضها الإسلام، ودعا إليها بشأن كل أمر من هذه الأمور الخمسة على حدة؟ وما هي حاجة الإنسان إلى الإيمان بها؟ وأية مصلحة قد روعيت له فيها؟ وما هي التأثيرات التي تحدثها في قوته الفكرية؟ وكيف أنها إذا استقرت في ذهنه تغير عليه سلوكه في الحياة، وتقيمه على أسس قوية صالحة؟.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثالث

الايمان بالله

إن الإيمان بالله هو أول وأهم شيء في نظام الإسلام للعقائد والأعمال، بحيث أن كل مافيه من العقائد الأخرى إنما هي فروع لهذا الأساس، وإن كل مافيه من الأحكام الخلقية والقوانين المدنية، لا تستمد قوتها إلا من هذا المركز. وذلك أن الإسلام ليس فيه شيء إلا وإن ذات الله مصدره ومرجعه. فما الإيمان بالملائكة إلا لأنهم ملائكة الله، وما الإيمان باليوم الآخر إلا لأنه يوم عدل الله وقضائه بين خلائقه، وما اتباع الأوامر ولا اجتناب النواهي إلا لأنها من عند الله.

والإسلام لولم تكن فيه هذه العقيدة، لما كان فيه شيء يعرف بالملائكة أو اليوم الآخر، ولما كانت فيه طاعة للرسل والكتب المنزلة عليهم، ولما بقي فيه معنى للفرائض واتباعها، ولما وجدت فيه الأوامر والنواهي والضوابط والقوانين حاملة لنوع من القوة المنفذة إياها، بل لما عاد الإسلام نفسه إلا إسماً بدون مسمى.

تفاصيل عقيـــدة الايمان بالله

إن هذه العقيدة، وهي بمثابة المركز أو مصدر القوة في نظام الإسلام العظيم للفكر والعمل كما عرفت، لا تنحصر في «أن الله موجود» فحسب، وإنما هي تحوز في ذاتها تصوراً صحيحاً متكاملا لصفات الله الى حيث يقدر الانسان تصوّرهـــا ومن هذا التصور لصفات الله تحصل تلك القوة التي هي محيطة بجميع قوى الإنسان الفكرية والعملية وهي حاكمة عليها.

إن مجرد ثبوت وجود الله ليس بشيء حتى يعد مزية للإسلام لا يشاركه فيها دين أو مذهب فكري آخر في الدنيا، إذ أن الأديان والمذاهب الفكرية الأخرى كذلك قد أثبتت وجود الله ولو على وجه غير الوجه الذي أثبته عليه الإسلام. وكل ماقد ميز الإسلام عن الأديان والمذاهب الفكرية الأخرى في العالم، هو أن الإسلام قد جاء بعلم صحيح كامل واضح بصفات الله عز وجل وقد استعان به – بجعله إيماناً بل أصلا لأصول الإيمان – في تزكية النفس وإصلاح الأخلاق وتنظيم الأعمال ونشر الخير والبر ومنع الشر والفساد وإقامة الحياة المدنية والاجتماعية على نحو لم يستعن به عليه دين ولا مذهب فكري آخر في الدنيا.

إن الصورة المجملة للإيمان بالله، التي يكون الإقرار بها باللسان والتصديق بها بالقلب، شرطاً أساسياً لدخول الإنسان في الإسلام، هي الإقرار بكلمة: «لا إله إلاالله»، أي أن يسلب كل شيء في السموات والأرض صفة الألوهية، ثم لا تثبت هذه الصفة وكل

مايتعلق بها من العواطف والأفكار والاعتقادات والعبادات والطاعات . . . إلا لذات واحدة هي ذات الله سبحانه وتعالى . كأن هذه الكلمة تتركب من ثلاثة عناصر :

١ ـ تصور الألوهية .

٢ ـ نفيها لكل موجودات العالم .

٣ ـ إثباتها لله وحده .

وكل ماقيل في القرآن الحكيم عن ذات الله تبارك وتعالى وصفاته، إنما هو تفصيل وشرح لهذه العناصر الثلاثة وليس غير.

فهو ـ أولا ـ قد بين للألوهية تصوراً مكتملا صحيحاً واضحاً لا نجده في أي كتاب من كتب العالم ولا في أي دين من أديانه. لاشك أن تصور الألوهية موجود في جميع الأمم والأديان في العالم، كما قلنا. ولكنه خاطىء أو ناقص في كل دين سوى الإسلام وفي كل أمة غير الأمة المؤمنة بالإسلام . فما الألوهية في بعض هذه بعض هذه الأمم والأديان إلا عبارة عن «الأولية» و«الواجبية» وما أريد بها في بعضها إلا «المبدئية» وقد جعلت في بعضها مترادفة مع «القوة» ، وهي في بعضها أداة للترهيب والتخويف، ومعناها في بعضها قضاء الحاجات وإجابة الدعوات، وهي في بعضها قابلة للتجزأة والتفرقة، وهي في بعضها متلوثة بالتجسيم والتشبيه والتناسل وهي في بعضها متمكنة في السماء وقد نزلت بعضها إلى الأرض على صورة الإنسان . وإنما الكتاب الوحيد الذي قد صحح وكمّل هذه التصورات الخاطئة والعقائد الناقصة عن الألوهية هو «القرآن» فهو الذي

قد قدس الألوهية ومجدها. وهو الذي قد بين أنه لا يجوز أن يكون الاله إلا من يكون صمداً حياً قيوماً لم يلد ولم يولد، ويكون من الأزل ويبقى إلى الأبد، ويكون قادراً حاكماً على الاطلاق، ويكون علمه محيطاً بكل شيء ورحمته واسعة لكل شيء وقوته غالبة على كل شيء ولا يوجد نقص في حكمته ولا عيب في عدالته ويكون واهباً للحياة ومهيأ لأسبابها ووسائلها، ويكون مالكاً لكل قوة من قوى النفع أو الضرر ، ويكون كل من سواه محتاجاً لعطائه فقيراً إلى حفظه ورعايته ، ويكون إليه مرجع كل مخلوق في الدنيا ، يكون هو محاسباً ومجازياً لكل من سواه .

ومع ذلك قد بين القرآن أن صفات الألوهية هذه غير قابلة للتجزأة والتوزيع حتى يجوز أن يوجد في العالم عدة آلهة يكون كل واحد منهم متصفاً بهذه الصفات كلها أو بعضها ، ولا هي طارئة وقتية أي رهينة بالزمان حتى يكون إله من الآلهة متصفاً بها حيناً ومتجرداً عنها حيناً آخر ، ولا هي قابلة للانتقال حتى توجد اليوم في إله وتوجد بالغد في إله آخر .

ثم إن القرآن بعد بيانه هذا التصور الصحيح الكامل الواضح للألوهية ، يدل بأقوى مايكون من الكلمات وأوقع مايكون من أساليب البيان أن هذا العالم ليس فيه شيء أو قوة يصدق عليها هذا التصور للألوهية ، إذ ليست كل موجودات العالم إلا مسخرة محتاجة لغيرها ، باقية حيناً وفانية حيناً آخر ، غير قادرة على دفع الضرر عن نفسها فضلا عن أن تجلب النفع أو الضرر إلى غيرها ، وما

المصدر لأفعالها وتأثيراتها في داخل ذاتها ، وإنما هي تستمد قوتها للبقاء والفعل والتأثير من غيرها .

وبعد هذا النفي فإن القرآن لا يثبت الالوهية إلا لذات واحدة هي المعروفة بـ (الله) ، ويطالب الانسان بأن لا يؤمن إلا بها وحدها ولا يسجد إلا لها ولا يعظم إلا إياها ولا يتعلق خوفاً ولا طمعاً إلا بها ولا يستعين إلا إياها ، ولا يتوكل إلا عليها ويعلم علم اليقين أنه راجع إليها ومحاسب بين يديها لا محالة وأنه لا يتوقف حسن عاقبته أو سوؤها إلا على قضائها .

المنافع المعنوية للإيمان بالله

إن الإيمان بالله إذا استقر في ذهن الإنسان مع هذا التصور الواضح الكامل لصفات الله ، يرجع عليه بعدة منافع عظيمة لا يمكن أن ترجع بها عليه أية عقيدة أخرى . فمن هذه المنافع :

١ ـ سعة النظر

إن أولى خصائص الإيمان بالله ومزاياه البارزة أنه يوسع وجهة نظر الإنسان على قدر سعة مملكة الله غير المحدودة . ألا ترى أن الإنسان مادام لا ينظر إلى الدنيا إلا على اعتبار علاقة نفسه ، فإنما يكون نظره محدوداً بالدائرة الضيقة التي تكون محدودة بها قوته وعلمه ومطالب نفسه فهو لا يبحث عن قاض لحاجاته إلا في هذه الدائرة ولا يخشى إلا الأقوياء في هذه الدائرة ولا يتكبر إلا على الضعفاء في هذه الدائرة ، ولا تكون صداقته ولا عداوته ولا محبته ولا بغضاؤه ولا تعظيمه ولا تحقيره

إلا محدودة بهذه الدائرة ، كأن نفسه هي المنظار الذي ينظر به الى كل شيء في هذا العالم، ولكنه إذا آمن بالله، يخرج نظره من هذه الدائرة الضيقة ويسع الكون كله، وهوعندئذ لا ينظر إلى الكون على اعتبار علاقة نفسه وإنما ينظر إليه على اعتبار علاقته بالله، وهناك تقوم علاقة جديدة بينه وبين سائر الموجودات في هذا الكون، فلا يرى فيه شيئاً يستطيع أن يقضي لهحاجاته أو يجلب إليه نوعاً من الضرر أو النفع أو يستحق منه التعظيم أو الازدراء. أو الخوف أو الرجاء، وعندئذ لا تكون صداقته ولا عداوته ولا محبته ولا بغضاؤه لنفسه وإنما تكون لله وحده. يرى أن الله الذي يؤمن به، ليس بخالق ولا رازق له وحده أو لأسرته أو لأمته وحسب، وإنما هو خالق السموات والأرض ورب العالمين، وأن ليست حكومته بمحدودة إلى حدود وطنه، وإنما هو مالك الأرض والسموات ورب المشرق والمغرب، وأن ليس هو وحده الذي يعبده ويطأطئ له رأسه بالطاعة ، وإنما كل شيء في السموات والأرض طوعاً وكرهاً .

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰواتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) [الاسراء : ٤٤]

وهو عندما ينظر إلى الكون على هذا الاعتبار، لا يرى فيه شيئاً غريباً على نفسه ولكن مستأنساً به متعرفاً عليه ولا تبقى مواساته ولا محبته ولا صداقته ولا خدمته محدودة بدائرته التي إنما وضع حدودها على اعتبار علاقة هذا الكون بنفسه .

إذن ... فالمؤمن بالله لا يكون ضيق النظر محدود الفكر أبداً ،

وما اصطلاح «الدولية» إلا ضيق محدود بالنسبة لسعة نظره، وهو جدير بأن يدعى «كونياً» أو «آفاقياً».

٢ ــ الأنفة وعزة النفس

ثم ان الايمان بالله يرتفع بالانسان من حضيض الذل والهوان إلى أرفع مايكون من منازل الأنفة وعزة النفس. كأن ما لم يعرف ربه يطأطىء رأسه لكل شيء في الدنيا إذا رأى فيه نوعاً من العظمة والكبرياء أو القدرة على نفعه أو ضرره، فكان ــ على هذا ــ يخافه ويمد إليه يده بالاستعانة والاستجداء ويعلق به آماله وأمانيه، ولكنه لما عرف الله ربه، علم علم اليقين أن الذين كان يمد إليهم يده ويستعينهم في قضاء حاجاته، لا يقلون منه حاجة إلى معونة ربهم:

(يبتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ) [الاسراء: ٥٧].

وإن الذين كان يدعوهم ويعكف لعبادتهم إنما هم عباد أمثاله.

(إنَّ الذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله عِبادٌ أَمْثالُكُم) [الأعراف: ١٩٤].

وإن الذين كان يرجو منهم المعونة والمساعدة، عاجزون عن نصرة أنفسهم فضلاً عن أن ينصروه ويجلبوا إليه النفع أو يدفعوا عنه الضرر:

(لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ ولا أَنْفُسَهُم يَنْصُرُون) [الأعراف: ١٩٧]

وأن ليست القوة والغلبة والعلو والسيادة في واقع الأمر إلا لله وحده:

(أَنَّ القُوَّةَ لله جَمِيعاً) [البقرة: ١٦٥] .

وان ليس له وليّ ولا نصير من دون الله :

(ومَالَكُم مِن دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ) [البقرة: ١٠٧] ،

(ومَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيم) [آل عمران: ١٢٦]

(هو الرَّزَّاق ذُو ٱلْقُوَّة المتِين) [الذاريات: ٥٨] .

(وإنْ يمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كاشِفَ لهُ إلاَّ هُوَ، وإنْ يُرِدْكَ بخَيْرٍ فَلاَ رَادّ لفَضْلِه) [يونس: ١٠٧] .

(واللهُ يُحْيِي ويُمِيتُ) [آل عمران: ١٥٦] .

(ومَا كَانَ لِنَفْسٍ أنْ تَموتَ إلاَّ بِإِذْنِ الله)[آل عمران: ١٤٥]

فالإنسان عندما يحصل له هذا العلم، يستغني عن كل قوة من قوى العالم ولا يعود يخافها، وعندئذ لا يطأطئ رأسه أمام أحد غير الله ولا يمد إليه يده بالاستعانة والاستجداء ولا يعظمه إلا ويعلق عليه آماله .

٣ ـ التذلل والتواضع

ولكن ليست هذه الأنفة التي تنشأ في الانسان لإيمانه بالله كالأنفة الزائفة التي تنشأ فيه لغطرسته بالقوة والجبروت أو الجاه والمال أو الخبرة والكفاءة، ولا هذه العزة للنفس، التي تنشأ فيه لهذا الإيمان

عزة باطلة كالتي يشعر بها في نفسه لسبب النخوة والخيلاء والكبرياء والشموخ ، وإنما هذه وهذه نتيجة لفهمه علاقته وعلاقة سائر الموجودات في العالم بالله العلي العظيم على أمثل وجه وأكمله وأحكمه ولذا لا تكون فيه الأنفة إلا مقترنة بالتواضع ولا تكون فيه عزة النفس إلا متصلة بالتذلل والخضوع . يعلم أنه أعجز ما يكون أمام قوة الله :

(وَهُوَ القاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ) (الأنعام : ١٨) .

وأنه لا قبل له بالخروج من حدود سلطة الله وملكوته :

(يا مَعْشَرَ الجنّ وَ الإنْسِ إنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنفُذوا مِنْ أقطارِ السّمواتِ وَالأرْضِ فانفُذوا لا تَنفُذونَ إلاّ بِسُلْطانٍ) (الرحمن : ٣٣)

وأنه هو والعالم كله فقير إلى الله محتاج إلى مغفرته ورحمته وأن الله غني عن كل من سواه :

(للهِ ما في السّمواتِ وَما في الأرْضِ) (البقرة : ٢٨٤) .

(وَاللهُ الغَنِي وَأنتُمُ الفُقَراءُ) (محمد : ٣٨) .

وأن ليست كل نعمة يتمتع بها في هذه الدنيا إلا من عند الله :

(وَما بِكُم مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ) (النحل : ٥٣) .

أنى لعاطفة الاستكبار والخيلاء والغطرسة والشموخ أن تجد سبيلاً إلى نفس الإنسان إذا استقرت في ذهنه عقيدة الايمان بالله على هذا النحو ؟ إلى هذا يشير قوله سبحانه وتعالى :

(وَعِبادُ الرَّحمنِ الّذينَ يَمْشونَ على الأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قالوا سَلاماً) (الفرقان : ٦٣) .

٤ ــ إبطال الآمال الكاذبة

ومن الفوائد العظيمة التي ترجع بها على الإنسان معرفته علاقة مابينه وبين ربه على الوجه الصحيح الكامل ، أنها تبطل كل مايكون فيه من الآمال الباطلة والأماني الكاذبة . إن هذه المعرفة هي التي يعرف بها الإنسان أن لا سبيل له إلى النجاة والفلاح والسعادة إلا الإعتقاد الصحيح والعمل الصالح . والذين هم محرومون من هذه المعرفة ، منهم من يظنون أن هناك عدة آلهة في هذا الكون يشاركون الله في حكمه وأنه من الممكن لهم أن يجعلوا منهم شفعاء عند الله :

(وَيَقُولونَ هؤلاءِ شُفَعَاؤُنا عِنْدَ اللهِ) (يونس : ١٨) .

ومنهم من يقولون : إن لله ابناً قد أمن لهم حق النجاة بتقديمه نفسه كفارة لذنوبهم ، ومنهم من يقولون : إن لهم من الدالة على الله ما ليس لغيرهم :

(قالَتِ اليَهودُ وَالنّصارَى نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبّاؤُهُ) (المائدة : ١٨) .

فهذه وآمال باطلة كثيرة أخرى من أمثالها تورط الناس في أوحال الإثم . وتمهد السبيل في وجوههم إلى المعاصي والذنوب لأنهم باتكالهم عليها يغفلون عن تزكية نفوسهم وإصلاح أعمالهم . أما غقيدة الإيمان بالله ، التي يدعو إليها القرآن ، فلا مجال معها لمثل هذه الآمال الكاذبة والأماني الباطلة . يبين القرآن بكل صراحة أن ليست لأية أمة في الأرض دالة على الله، وما كل من في السموات والأرض إلا عباده وخلائقه وهو خالقهم و ربهم جميعاً

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ) [المائدة : ١٨] .

وأن ليست الكرامة والفضيلة للانسان إلا على أساس تقواه

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ) [الحجرات : ١٣] .

وإن الله :

(لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ولَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ ولَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ) [الإسراء : ١١١] .

وأن ليس كل من تحسبونهم أولاداً لله أو شركاءه إلا عباده وعبيده :

(بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُون) [البقرة :١١٦]

وأن ليس لأحد كائناً من كان، أن يشفع عند الله إلا بإذنه :

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِه) [البقرة : ٢٥٥] .

وإنكم إذا كنتم لله على معصية في حياتكم فلن ينقذكم من مؤاخذته شفاعة شافع ولا نصرة ناصر:

(وإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَالٍ) [الرعد: ١١١].

٥ ـ الرجائيـــة وطمأنينـــة القلـــب

ومع ذلك فإن الإيمان بالله يربي الانسان على كيفية نفسية قائمة على الثقة والرجائية لا تخذله بحال ولا تدعه ليتغلب عليه اليأس والقنوط، إذ الايمان كنز من الآمال الصادقة لا ينفد ولا يزال يزوّد الانسان برصيد غير منقطع من قوة القلب وطمأنينة الروح، ويلقي في روعه أنه ولو طرد من كل باب من أبواب الدنيا وتقطعت به الأسباب الظاهرة وفارقته الوسائل المادية كلها، فإن الله غير خاذله أبداً، فعليه أن يظل في كل حين من أحيانه واثقاً بعفو الله راجياً في نصرته وتأييده، لأن الله الذي قد آمن به، يقول بنفسه:

(وإِذَا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لي وليُؤمِنوا بي لَعَلَّهُم يرشُدُون) [البقرة: ١٨٦].

ويقول: (وأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد) [آل عمران: ١٨٣]

فلا تخافوا منه ظلماً، ويقول:

(ورَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ) [الأعراف: ١٥٦].

فلا يساورنكم اليأس من رحمتي:

(إنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ). [يوسف :٨٧]

أما المؤمن فليس له مجال أن ييأس من رحمتي ويقطع الأمل في عفوي وتأييدي ونصرتي، بل له أن يتوب إلي ويستغفرني كلما زلت به قدمه فعمل سوءاً أو ظلم نفسه وإذن لابد أن يجدني غفوراً رحيما :

(ومَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيماً) [النساء : ١١٠] .

(قُلْ يَاعِبَادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِم لا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ . إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً) [الزمر : ٥٣] .

وإنه إذا كانت أسباب الدنيا لاتوافقه، فعليه أن يترك التوكل عليها ويتعلق بي أنا، إذن لا يأخذه خوف ولا يداهمه حزن :

(إنَّ الَّذينَ قَالُوا رَبنَا اللهُ ثُمَّ استَقامُوا تَتنَزَّلُ عَلَيهِمُ الملائِكَةُ أَنْ لا تَخافُوا ولا تَحْزَنُوا) [فصلت : ٣٠] .

وإن ذكري لهو البلسم الذي يجبر جروح القلوب ويملؤها ثقة وطمأنينة :

(أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ) [الرعد : ٢٨] .

٦ ــ الصبر والتوكل

ثم إن هذه الكيفية ـ كيفية الثقة بالله والرجاء في عفوه وكرمه

ترقى في نفس المؤمن بالله حتى تبلغ به أعلى مدارج الصبر والاستقامة والتوكل على الله حيث يصبح عزمه مماثلاً للحجر في صلابته واستحكامه. ولا تستطيع كل مصائب الدنيا وآلامها ومضارها وخسائرها وقواها المعادية أن تزل قدمه أو تزحزحه قيد شعرة عما يكون عقد عليه عزيمته .

إنه من المحال أن ينال الإنسان هذه القوة والصلابة في عزيمته بوسيلة غير وسيلة الإيمان بالله، لأن الذي لايؤمن بالله إنما يتوكل على الأسباب والوسائل المادية أو الوهمية التي لا تملك لنفسها أية قوة أبداً وما مثلها في صلابتها واستحكامها إلا كمثل بيت العنكبوت اتخذت بيتاً :

(وإنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ) [العنكبوت : ٤١]
فالظاهر أن من كانت حياته قائمة بمثل هذه الأسباب الواهنة ، فإن ضعفه أمر مقضي لا مجال فيه للريب :

(ضَعُفَ الطَّالِبُ والْمَطْلُوبُ) [الحج : ٧٣] .

أما الذي قد التجـأ إلى جناب الله ولا يتوكل إلا عليه : (فقد اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى لاانفِصَامَ لها)[البقرة : ٢٥٦]. لأنه دائماً مؤيد بقوة الله العلي العظيم :

(إن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لكُمْ وإنْ يَخْذُلْكُم فَمنْ ذَا الَّذي يَنْصُرُكُم مِن بَعْدِه ؟) [آل عمران : ١٦٠] .

ولاقبل لكل ما في الأرض من المصائب والآلام والمحن والشدائد والمضار والخسائر بأن تزحزحه عن موضع الصبر والثبات،

والاستقامة والعزيمة إذ ليس كل مايسر أو ما يحزن في نظره إلا من عند الله :

(قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ) [النساء : ٧٨] .

وهو يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لا يصيبه شيء في هذه الدنيا إلا بعلم الله وإذنه :

(قُل لَن يُصِيبَنَا إلاَّ مَاكَتَبَ اللهُ لنَا، هُو مَوْلانا وَعَلى اللهِ فلْيتَوَكلِ المؤْمِنُونَ) [التوبة : ٥١] .

إن قوة الصبر والتوكل والاستقامة هذه هي القوة فوق البشرية التي استطاع بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يواجهوا مصائب الدنيا وآلامها . ويصارعوا دولها العاتية العظيمة وأممها القوية الشرسة ويقوموا عاقدين العزيمة على تسخير العالم بدون ما أسباب مادية ظاهرة . انظر إلى ابراهيم عليه السلام كيف يجادل الملك العنيد الجبار في أرضه و وطنه . وهو عندما يلقيه في النار، يقتحمها دون أن يأخذه الهلع والفزع . وأخيراً يهجر أباه وقومه ويخرج من أرض وطنه بدون متاع دنيوي في يده قائلاً :

(إنِّي ذَاهِبٌ إلى ربِّي سيَهْدِينِ) [الصافات : ٩٩] .

وانظر إلى هود عليه السلام . كيف يتحدى قوة عاد العاتية قائلاً :

(فَكِيدُوني جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ. إني تَوكَّلْتُ على اللهِ رَبِّي

وَرَبِّكُمْ . مَامِنْ دَابَّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِناصِيتها) [هود : ٥٥ ـ ٥٦]

وانظر إلى موسى عليه السلام، كيف يجابه قوة فرعون الهائلة متوكلاً على الله ، وعندما يتهدده فرعون بقتله يقول:

(إنِّي عُذْتُ بربِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتكَبِّرٍ لايُؤْمِن بِيَوم ِ ٱلْحِسَاب) [غافر : ٢٧] .

وهو عندما يخرج من مصر ويتبعه فرعون وجنوده حتّى ليقول له أصحابه فزعين : (إنّا لَمُدْرَكون) يقول لهم بكامل طمأنينة ورباطة جأش :

(كلاَّ ! إنَّ مَعيَ رَبِّي سيهْدينِ) [الشعراء : ٦٢] .

وانظر في آخرهم إلى سيدهم وسيدنا محمد ﷺ، يأوي إلى كهف في طريقه إلى المدينة عندما يخرج من مكة بنيّة الهجرة وما معه في هذا الكهف إلا صديق واحد، حتّى يصل إليه أعداؤه ويقومون على رأس الكهف ويخشى عليه صاحبه، ولكنه لا يأخذه خوف ولا اضطراب نفسي ويقول لصاحبه :

(لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ معَنَا) [التوبة : ٤٠]

فهل من الممكن أن ينال الانسان مثل هذه القوة النفسية العظيمة والعزيمة الحديدية والاستقامة غير العادية بوسيلة غير وسيلة الإيمان بالله؟

٧ ـ الشجاعة والجرأة

ومع صفة الصبر والاستقامة هذه ، فإن الإيمان بالله ينشىء في

الإنسان صحة خلقية عظيمة أخرى هي صفة الجرأة والإقدام والبسالة والشجاعة.

إنما هناك أمران يجلبان الهلع والجبن إلى قلب الإنسان:

حبه لنفسه وأولاده وأمواله.

وخوفه لاعتقاده الباطل القائل بأن مجرد الأشياء التي يستخدمها كآلات في مايشاء من أغراضه. هي في ذاتها قادرة على نفعه وضرره.

فالايمان بالله يطهر قلب الإنسان من هذا الحب ومن هذا الخوف جميعاً.

أما بشأن الحب، فهو يلقي في روعه الاعتقاد القائل بأن الله هو أحق من غيره لأن يحبه المؤمن:

(والَّذينَ آمَنُوا أَشَدُّ حبًّا لله) [البقرة: ١٦٥].

ويرسخ في ذهنه:

(المال وَٱلْبَنونَ زينَة ٱلْحيَاةِ الدُّنيَا وَٱلْبَاقيَاتُ الصالحَاتُ خَيرٌ عنْدَ رَبِّك ثواباً وخيرٌ أملاً) [الكهف: ٤٦].

(ومَا ٱلْحيَاةُ الدُّنيَا إلاَّ متاعُ ٱلْغُرورِ) [آل عمران: ١٨٥]،

(قُلْ إنَّ الموْتَ الَّذي تفرُّونَ منْهُ فإنَّهُ ملاقِيكُمْ) [الجمعة: ٨]

(أَيْنَ ما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الموتُ ولَوْ كُنْتُمْ في بُرُوجٍ مشيَّدةٍ) [النساء: ٧٨].

فما له إذن أن لا يضحي بنفسه وما له في سبيل الحياة التي سينالها

عند ربه بعد موته مليئة بأسباب الهناء والسعادة الأبدية :

(وَلاَ تَحْسبنَّ الَّذينَ قُتِلُوا في سبيلِ اللهِ أَمواتاً ، بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فضْلِـهِ) [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠] .

وما له أن لا يسترخص كل ماله في حياته الدنيا من الأمتعة الفانية واللذات الزائلة المؤقتة في سبيل مرضاة الله الذي هو المالك الحقيقي لماله ونفسه والذي لابد أن ينعم عليه بحياة أهنأ من هذه الحياة وأمتعة ولذات أثبت وأدوم من هذه الأمتعة واللذات :

(إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤمنينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ في سبيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ) [التوبة: ١١١]

وأما بشأن الخوف فإن القرآن قد لقن المؤمن أن ليست القدرة الحقيقية على نفعه أو ضرره أو إهلاكه بيد إنسان أو حيوان أو في مدفع أو سيف أو خشب أو حجر. وإنما هي بيد الله العزيز الحكيم . فلو أن قوى العالم أجمعت على أن تجلب إليه الضرر أو تدفعه عنه فإنها لا تقدر على ذلك إلا بإذن الله :

(ومَا هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ بإِذْنِ اللهِ) [البقرة : ١٠٣]

وقد لقنه كذلك أن الموت له ساعة محددة لا يستطيع أحد أن يستقدمها أو يستأخرها :

(ومَا كَانَ لِنَفسٍ أَنْ تَمُوتَ إلا بإِذْنِ اللهِ كِتاباً مُؤجلاً) [آل عمران : ١٤٥] .

(قُلْ لَوْ كُنْتُمْ في بُيُوتِكُمْ لبَرَزَ الَّذِين كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إلى مضَاجِعِهِم) [آل عمران : ١٥٤] .

فاذا كان الأمر هكذا، فما للانسان – يلقن القرآن – المؤمن بالله أن يخاف أحداً من دون الله :

(فَــلا تَخَـافُوهُم وَخَـافُونِ إنْ كنْتُمْ مؤمِنينَ) [آل عمران : ١٧٥] .

لأن الله هو وحده الذي يجب على الانسان أن يخشاه :

(واللهُ أَحقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) [الأحزاب : ٣٧] .

وإنما الذين لا يؤمنون به هم الذين يداخلهم الفزع والخوف من الموت فيتولون عن بذل مهجهم وأرواحهم في سبيل الله لأنهم :

(يَخْشوْنَ النَّاسَ كَخَشْيةِ اللهِ أَوْ أَشَد خَشيَةً) [النساء :٧٧] .

وأما المؤمنون فإن قلوبهم تمتلىء جرأة وإقداماً عندمـا يرون جنود الأعداء، لأنهم لا يتوكلون على قوة دنيوية أو وسائل مادية، وإنما يتوكلون على الله ويرجون منه النصر والتأييد :

(الَّذينَ قالَ لَهُمُ الناسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكم فَاخشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إيمَاناً وقالُوا حسْبُنَا اللهُ ونِعم ٱلْوَكيل) [آل عمران ١٧٣]

٨ – القناعة والاستغناء

ثم إن الايمان بالله يزكي نفس الإنسان ويطهرها من الحرص والطمع والجشع والحسد والحقد والبغضاء وما إليها من العواطف الرذيلة والنزعات الركيكة التي تحمل الانسان وتحثه على سلوك الطرق بين أفراد النوع البشري، وذلك بأن الايمان يعمر قلب الإنسان قناعة واستغناء ويجعله لا يتنافس ويتحاسد ولا يتباغض مع غيره ولا يتيه على وجهه في مجاهل الظلم والعدوان، وإنما يبذل سعيه للبحث عن فضل ربه مترفعاً عن الرذائل مقتنعاً بما كتب له قليلاً كان أو كثيراً. والقرآن قد لقن المؤمن:

(قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، يختص بِرحْمتِهِ مَنْ يَشاءُ) [آل عمران: ٧٣ – ٧٤].

وقد أعلمه أن الرزق بيد الله وحده:

(اللهُ يَبسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) [الرعد: ٢٦].

وان الحكومة والسيادة والغلبة والعز والجاه والمال – كذلك كلها بيد الله:

(قُلِ اللَّهمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتي ٱلْمُلْكَ مَنْ تشَاءُ وتنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ، إنَّكَ على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ) [آل عمران: ٢٦].

(إنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) [الأعراف: ١٢٨].

وقد أعلمه كذلك أن الله هو الذي قد أقام ذلك التفاوت والتفاضل بين عباده في الرزق والعز والمال والقوة والجمال والشهرة وما إليها من المواهب الأخرى ، الذي يجري عليه نظام العالم، وأن الله هو أعلم بما فيه مصالح عباده ، فلا يصح للانسان أن يحاول إدخال التغيير على نظامه ولا من الممكن أن يرافقه التوفيق إذا ماحاول ذلك :

(واللهُ فَضَّلَ بَعضَكُم على بَعْضٍ في الرِّزْقِ) [النحل : ٧١]

(ولا تَتَمَنَّوْا مافَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُم عَلى بَعْضٍ) [النساء :٣٢]

٩ ـ إصلاح الاخلاق وتنظيم الأعمال

وأكبر هذه الفوائد وأحراها بالذكر والتنويه تلك التي يرجع بها الايمان بالله على حياة الإنسان المدنية والاجتماعية . فهو ينشىء أفراد الجماعة الإنسانية على الشعور بالتبعة ويطهر نفوسهم ويقيم أعمالهم على أساس متين من خشية الله في السر والعلانية ويصلح علاقاتهم بعضهم مع بعض ويطبعهم بطابع التزام القانون والتقيد بنظامه والقيام عند حدوده مما تنشأ به فيهم قوة داخلية غير عادية تصلح حياتهم الاجتماعية وتقيمها على أسس قوية صالحة منظمة .

ما كل ذلك إلا من معجزات الإيمان بالله لا يختص إلا به وحده . إنه لا قبل لأية قوة حاكمة في الدنيا ولا لأي تعليم أو توجيه أو تربية ، ولا لأي وعظ أو تلقين بأن تقوم بأداء مهمة إصلاح الأخلاق وتنظيم الأعمال على مثل هذا النطاق الواسع وبمثل هذه الجذور العميقة . إن القوى الدنيوية لا تنفذ إلى روح

الإنسان، وإنما تتحكم في جسده. بل لا تتحكم في جسده في كل مكان وفي كل وقت. وإن تأثير التعليم والتربية والوعظ والتلقين – كذلك – إنما يقف عند حدود العقل والفكر، وذلك على مدى قصير جداً. أما النفس الأمارة بالسوء، فلا يقتصر أمرها على أنها لا تقبل هذا التأثير. بل إنها لا تدخر وسعاً في إقامة سيطرتها على العقل نفسه.

إذن... فالايمان هو العامل الوحيد الذي ينزل بقواه الاصلاحية قوياً يتولى دائماً مهمة إرشاده إلى طريق التقوى والطاعة والانقياد في السر والعلانية ولا يترك نفسه – أشرس وأعنت ما كانت – دون أن يؤثر فيها تأديبه وتأنيبه.

إن الاعتقاد بعلم الله وقدرته هو الذي يرجع على الإنسان بهذه الفائدة العظيمة، وما هذا الاعتقاد – كما عرفت – إلا جزء من أجزاء الإيمان بالله. إن القرآن قد نبه الإنسان في غير موضع من آياته على أن علم الله واسع لكل شيء وأنه لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. يقول عز من قائل:

(وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: ١١٥].

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [البقرة: ١٤٨].

(إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) [آل عمران: ٥].

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) [الأنعام :٥٩]

(ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) [ق : ١٦] .

(ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) [المجادلة : ٧] .

(يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً) [النساء : ١٠٨] .

(أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) [البقرة :٧٧].

(إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) [ق : ١٧ ـ ١٨] .

(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) [الرعد : ١٠ ـ ١١] .

ومع كل هذا فان القرآن قد ألقى في روع الإنسان أنه لابد له من الحضور بين يدي ربه :

(واعْلَمُوا أَنَّكُم مُلاقُوهُ) [البقرة : ٢٢٣] .

(واعْلَمُوا أَنَّكُم إِلَيهِ تُحْشَرُونَ) [البقرَة : ٢٠٣] .

حيث لابد أن يحاسبه ربه على كل صغير أو جليل من أقواله وأفعاله :

(إنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ حَسِيباً) [النساء : ٨٦] .

(إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) [البروج : ١٢] .

إن هذه العقيدة، عقيدة الإيمان بالله ، التي قد عني القرآن عناية تامة بإرساخها في ذهن الإنسان على غير أسلوب واحد، هي القوة المنفاة لقانون الإسلام في حقيقة الأمر . فالحدود التي قد وضعها الإسلام بين الحرام والحلال والأحكام التي قد أمر بها في الأخلاق والاجتماع والمعاملات ، لا يتوقف نفاذها على الشرطة أو الجنود ولا على التعليم والتلقين، وإنما هو ذلك العليم الخبير الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض والذي لا يستطيع الإنسان ، إذا خالفه أحكامه. أن يستر عليه جريمته أو يسلم من محاسبته بأية حيلة من الحيل . ولذا فإن الله سبحانه ما أنزل في القرآن حكماً من الأحكام إلا وقد أعقبه بالتنبيه على مثل قوله :

(تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَعْتَدُوهَا) [البقرة : ٢٢٩] .

ومثل قوله : (واتّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أنّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) . [البقرة : ٢٣٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الرابع

الإيمان بالملائكة

المقصود الأول من الإيمان بالملائكة

إن الإيمان بالملائكة في حقيقة أمره إنما هو تكملة لازمة للايمان بالله . ولا ينحصر المقصود منه في الإقرار بوجود الملائكة ، وإنما هو كذلك أن يفهم الإنسان منزلتهم الحقيقية في نظام الوجود حتى يقوم إيمانه بالله على أساس التوحيد الخالص ويتطهر من كل رجس من أرجاس الشرك ومن كل شائبة من شوائب العبادة لغير الله .

وليس في العالم دين من الأديان ، ولا مذهب من المذاهب الفلسفية ، كما قد قلنا سابقاً ، إلا ويوجد فيه تصور إجمالي لوجود الملائكة و وظائفهم ولو على وجوه متفرقة وأشكال متنوعة ، وعلى أساس هذا التصور الخاطىء الناقص قد أقامت هذه الأديان والمذاهب الفلسفية عقائدها المتضاربة عن الملائكة . فهم عند بعضها قوى لنواميس الفطرة تقوم بتسيير الشعب المختلفة لنظام الكون ، وهم عند بعضها معبودات وآلهة يرأس كل واحد منهم قسماً من أقسام الكون كالهواء والرعد والبرق والمطر والضوء و الظلام والحرارة ،

وهم عند بعضها أرباب ينوبون عن الله ويساعدونه في تسيير نظام الكون، وهم عند بعضها أرباب الأنواع المختلفة، وهم عند بعضها مجرد عقول، وهم عند بعضها مجرد عبارة عن تصورات الله، وهم عند بعضها ذرية لله. وعلى هذا فالذين يدينون بهذه الأديان ويتبعون هذه المذاهب، منهم من يعتقد أن الملائكة أجساد مادية، ومنهم من يقول: إنهم من المعاني المجردة، ومنهم من قد أقام فيهم تصورات عجيبة أخرى. وبالجملة ما زالوا مأخوذين بالفكرة القائلة بأن الملائكة شركاء الله في ألوهيته و ربوبيته على وجه من الوجوه، ولذا قد وضعوا لهم هياكل وأصناماً، أو صوروا لهم صوراً ليعكفوا على عبادتهم ويدعوهم ويستعينوهم في حوائجهم ومشاكلهم ومصائبهم وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وبذلك قامت في الدنيا سوق الشرك و راجت بضاعته.

منزلة الملائكة في نظام الكون

والإسلام من جانب قد دعا إلى توحيد خالص كامل في وجود الله وصفاته وأفعاله، ومن جانب آخر فقد أطلع الناس على تصور صحيح كامل للملائكة، حتى ينغلق الباب الذي يدخل منه الشرك. إنه ما تعرض للبحث في حقيقة الملائكة لأن البحث فيها بحث فارغ لا طائل تحته ولا جوهر فيه ولا بوسع الإنسان أن يدركه ويستفيد منه، وإنما القضية الجوهرية المتطلبة إلى الحل والتصفية هي: ماهي منزلة الملائكة في نظام الكون؟ وهذه قد بينها القرآن وفصل فيها القول بما لم يدع فيها موضعاً للريبة والإبهام. فقال:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ -ويعني الملائكة- لَايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) [الأنبياء : ٢٦ – ٢٧] .

أي ليست الملائكة ذرية لله سبحانه وتعالى ولا شركاءه وإنما هم عباده المكرمون وعبيده الخاضعون لأمره .

وقال عنهم في سورة النازعات:

(فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) [النازعات : ٥] .

أي أن هؤلاء الملائكة وإن كانوا يدبرون شؤون هذا العالم ولكنهم لا يدبرون إلا شؤوناً قد فوّضها إليهم الله سبحانه وتعالى وانه لا قبل لهم بأن يحيدوا ولو قيد شعرة عن طريق طاعته واتباع أوامره فضلاً عن أن يشاركوه في ألوهيته و ربوبيته . وقد بين القرآن كذلك أن طبيعة هؤلاء الملائكة إنما هي الطاعة وعدم العصيان و وظيفتهم العبادة والتسبيح والتقديس ، لا يغفلون عن وظيفتهم ولا يفترون عنها ولا للحظة واحدة في الليل والنهار ، وفي ذلك قال :

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ) [الرعد :١٣] .

(وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . يَخَافُونَ رَبَّهُم مِنْ فَوْقِهِم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)

[النحل :٤٩–٥٠]

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِهِ ولا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ والنَّهَارَ لايَفتُرُونَ) [الأنبياء : ١٩ ــ ٢٠] .

(لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُم ويَفْعَلُونَ مايُؤْمَرُونَ) [التحريم : ٦]

فهذا التصور الواضح لوجود الملائكة ومنزلتهم في نظام الكون لم يترك في وجه الإنسان مجالاً للشرك وعبودية غير الله، لأن الذين كانوا مظنة للألوهية مع الله، قد ثبتوا عاجزين ضعفاء مثل الإنسان. فمن عسى أن يكون مرجعاً لعبوديته وخضوعه واستعانته وتوكله سوى ذات الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ؟

منزلة الملائكة بالنسبة للإنسان

لاهذا فحسب، بل ان القرآن قد اعتنى أكمل عناية ببيان منزلة الملائكة بالنسبة للانسان أيضاً . حتى يدرك الإنسان منزلته في مقابلهم على أكمل وأمثل مايكون من الوجوه . فحيثما قد تعرض القرآن لبيان خلق الله أبا البشر آدم وتشريفه إياه بمنصب الخلافة في الأرض، قال بكل صراحة : إن الله أمر ملائكته بأن يسجدوا لآدم ويدينوا له بالفضل والزعامة على أنفسهم، فسجدوا له كلهم أجمعين إلا إبليس[١]. وقال كذلك : إن الملائكة لما ادعوا لأنفسهم

---

(١) راجع البقرة والأعراف والإسراء والكهف وطه .

فضلاً على آدم بناء على تسبيحهم بحمد ربهم وتقديسهم له، كذب الله سبحانه وتعالى دعواهم وأثبت لهم باختبارهم واختبار آدم من العلم مالم يؤته إياهم، وقال كذلك: إن إبليس لما أبى أن يسجد لآدم ويعترف له بالفضل على نفسه زاعماً أن مادة خلقه خير من مادة خلق آدم، طرده الله سبحانه وتعالى من جنانه إلى يوم القيامة.

وكل هذا ينشىء الإنسان على شعور بعزة نفسه من جانب، ومن جانب آخر يجعل ما فيه من عواطف العبودية ونوازع الطاعة والانقياد متركزة على عبادة الله وحده، وهذا إن كان يدل على شيء فإنما يدل على أن لا شيء أفضل من الإنسان في هذا الكون بعد ذات الله سبحانه، وأن الملائكة وإن كانوا عباداً لله مكرمين، وإن كانوا أفضل من غيرهم، ولكنهم قد سجدوا للانسان واعترفوا له بالفضل على أنفسهم، فهل يجوز للانسان — على ذلك — أن يسجد لأحد غير الله ويدعوه ويعبده ويستعينه في حوائجه وملماته؟

فهكذا ان الإيمان بالله عندما يقوم على أساس العلم الصحيح بوجود الملائكة ومنزلتهم في نظام الكون، يقتلع من قلب الإنسان وذهنه كل شائبة من شوائب الشرك والعبادة لغير الله.

المقصود الثاني من الإيمان بالله

والمنزلة الثانية التي قد جاء بيانها في القرآن للملائكة هي أنهم هم الذين يتنزلون بالوحي الإلهي على الرسل والأنبياء ويبلغونهم رسالات الله وأحكامه، وانهم هم الذين يهتم الله بوساطتهم أن

لا يبلغ وحيه الأنبياء والرسل إلا نقياً طاهراً خالصاً من كل نوع من الاختلاط والالتباس والاشتباه والتدخل الخارجي .

إن هؤلاء الملائكة في حد أنفسهم مطيعون خاشعون لله مفطورون على التسليم والانقياد منزهون من كل نوع من أنواع العواطف الرذيلة والأغراض النفسانية فاعلون لكل ما يؤمرون به من فوقهم بلا اعتراض ولا تردد، ولكنهم مع ذلك قد جعلوا من القوة والمنعة والعزة والعظمة حيث لا تستطيع قوة من القوى الشيطانية أن تدخل نوعاً من الاختلال والاعوجاج على تبليغهم للوحي الإلهي واشرافهم عليه، لذا فإنهم لا يدخلون ولا يستطيعون أن يدخلوا تحريفاً أو تغييراً أو نقصاً أو زيادة من تلقاء أنفسهم على وحي الله الذي ينزلون به على أنبيائه ورسله. هذا ماقد بينه القرآن وبسط فيه القول في عدة مواضع من آياته، يقول جل جلاله:

(فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) [عبس: ١٣، ١٦] .

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) [التكوير: ١٩، ٢١] .

(عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) [الجن: ٢٦، ٢٨] .

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَبِّكَ بِالْحَقِّ) [النحل: ١٠٣] .

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ) [الشعراء : ١٩٢ – ١٩٣] .

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ المُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ) [الواقعة : ٧٧ ، ٨٠] .

والذي يستفاد من هذا أن ليس الإيمان بالملائكة ضرورياً للايمان بالله فحسب، وإنما هو ضروري للإيمان بالأنبياء والكتب أيضاً . أليس معنى الإيمان بالملائكة ما داموا هم الوسطاء بين الله ورسله في تبليغ وحيه إليهم، أن نعتقد أن الوسيلة التي قد نزل بها الوحي من الله على رسله ، كانت وسيلة صحيحة جديرة بالثقة والاعتماد خالصة من كل خيانة وتدخل خارجي ؟ أوليس من المحال أن يكون اعتمادنا على ذلك الوحي وعلى الذين قد عرضوه علينا اعتماداً كاملاً ما لم نعتمد اعتماداً كاملاً على الوسيلة التي كانت بين الله و رسله في نزول ذلك الوحي عليهم ؟

المقصود الثالث من الإيمان بالملائكة

وعلاوة على هذا ، فإن القرآن قد بين للملائكة منزلة ثالثة هي أنهم عملاء الله وخدامه في مملكته وانهم موظفوه الذين ينفذون إرادته في خلقه، كأنهم في مملكته بمنزلة الموظفين الرسميين في دول الدنيا ومملكاتها . فبواسطتهم ينزل الله عذابه أو رحمته على من يشاء من خلقه ، وبواسطتهم يقبض الأرواح عند الموت أو يمنح الحياة، وبواسطتهم ينزل المطر أو يحدث القحط، وبواسطتهم يسجل على كل إنسان ما يأتي به في حياته من الأقوال والأفعال أو

يمر بخلده من الأفكار والآراء . والإنسان مادام يعمل في ضمن المهلة التي قد كتبها له ربه، فإن هؤلاء العملاء والموظفين لايفترون عن التعاون معه في تحقيق إراداته بإذن الله على رغم علمهم بفساد هذه الإرادات ، ولكن كلما انقضت لـــه هذه المهلة ، قبض عليه هؤلاء الخدام دفعة واحدة مع أنهم كانوا هم الذين يسيرون معمل خلافته ويحققون له إراداته إلى ما قبل لحظة واحدة . فالهواء الذي كانت حياته قائمة به ، إذا به يقلب عليه دياره ويجعل عاليها سافلها، والأرض التي كان يعيش على وجهها مطمئناً اطمئنانه في حضن أمه (عيشة هادئة مطمئنة) ، إذا بها تهزه هزاً عنيفاً لا يتركه حتى يجعله كومة من التراب، وبينما كان حضرة الخليفة يتمتع بلذائذ الحياة ويترفل في نعيمها، إذا بصاحبه الموكل به يتلقى أمراً من فوقه فيلقي القيد في يديه دفعة واحدة . وهكذا قد صور القرآن أعمال الملائكة و وظائفهم أحسن تصوير وأروعه في عدة مواضع من آيـــاته .

إننا إذا رأينا من هذه الجهة ، علمنا بدون ما ريب أن الإيمان بالملائكة إنما هو جزء لا يتجزأ من الإيمان بالله، ومعناه أن الإنسان ماعليه أن يعترف بخالق هذا الكون وحاكمه فحسب، بل عليه كذلك أن يعترف بعملائه وخدامه وموظفيه، فإنه بدون ذلك لا يستطيع أن يدرك منزلته الحقيقية في سلطته ولا أن يؤدي واجبه على شعور تام بمنزلته تلك

الفصل الخامس

الإيمـــان بالرسل

حقيقة الرســالــــة

الرسالة هي العقيدة الثانية في الإسلام بعد التوحيد . فكما أن التوحيد هو أصل الدين من ناحية الاعتقاد، كذلك ان الرسالة هي أصله من ناحية الاتباع . والرسول لغةً : هو من يؤدي إلى أخذ رسالة غيره ، وهو في اصطلاح الإسلام من يؤدي إلى الناس رسالة ربهم ويهديهم إلى صراطه المستقيم بإذنه ، ومن ثم قيل للرسول «الهادي» في كثير من آيات القرآن .

فهاد قد عينه الله سبحانه وتعالى في داخل الإنسان يميز بالإلهام الإلهي بين الأفكار الصالحة والسيئة والأعمال الصحيحة والباطلة ، ويهدي الانسان الى الطريق السوي في الأفكار والاعمال وذلك كما قال الله :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا[1] . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس ٧ ، ١٠] .

ولكن لما لم تكن هداية هذا الهادي واضحة تمامـاً وكانت

---

(١) أي عرّضها ماينبغي لها أن تأتي أو تذر من خير أو شر ، طاعة أو معصية بحيث تميز رشدها من غيّها .

لاقترانها بكثير من القوى الفكرية والخارجية التي تعمل على ترغيب الانسان في أعمال الشر والمعصية وتزينها في نظره ونجذبه إليها جذباً عنيفاً غير كافية في جعل الإنسان يميز بين صراط الحق المستقيم من بين الطرق المعوجة المتعددة ويسلكه آمناً مطمئناً، فإن الحق سبحانه وتعالى أراد الرحمة بالإنسان وتدارك فيه هذا النقص من الخارج بصورة أن أرسل إليه رسله ليساعدوا هاديه الباطني بنور العلم والمعرفة ويوضحوا له بالآيات البينات ذلك الإلهام الفطري المبهم الذي يتضاءل نوره في ظلمات الجهل وهجمات القوى الضالة.

هذه هي حقيقة منصب الرسالة في الإسلام. والذين قد أسند إليهم هذا المنصب، كانوا قد مُنحوا من الله نوراً مبيناً وعلماً واضحاً وحكمة بالغة توصلوا بها، لاعلىأساس الظن والتخمين،ولكن على اساس اليقين والبصيرة، إلى حقيقة كثير من الأمور التي يختلف فيها عامة الناس وقد شاهدوا بها صراط الحق المستقيم واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار من بين الطرق المعوجة المتعددة.

الفرق بين الرسول وعامة الزعماء

ومما لا مجال فيه للريب أن الإنسان في كل زمن قد اعترف بحاجته إلى من يتولى هدايته من خارجه، وما قام قط بدعوى أن هدايته الداخلية وحدها تستطيع أن تغنيه عن كل هاد خارجي لأجل هذا قد أسند منصب الهداية والإرشاد إلى الآباء عظماء الأسرة والقبيلة والأساتذة والعلماء والمرشدين الدينيين والزعماء السياسيين والمصلحين الاجتماعيين وغيرهم ممن كان من الممكن الاعتماد على عقلهم وتجاربهم،وأسلس لهم قياده ،

وأوجب على نفسه طاعتهم في كل زمان ومكان . ولكن الذي يميز الرسول من بين كل هؤلاء الزعماء والمصلحين ويرفع عليهم شأنه هو «العلم» الذي يتلقاه الرسول من الله تعالى وبه يهدي الناس إلى صراطه المستقيم . إن هؤلاء الزعماء والمصلحين لا يكون عندهم العلم وإنما يقيمون آراءهم على أساس الظن والوهم والتخمين المحض ، وأيضاً لا تكون آراؤهم هذه سليمة من النقص خالصة من عناصر هوى النفس، لذلك فإن العقائد التي يبنونها ، والقوانين التي يضعونها ، والمناهج العملية التي يقرزونها، لا يكون فيها الحق خالصاً نقياً وإنما يكون مختلطاً مع الباطل . إلى هذه الحقيقة يشير القرآن في عدة مواضع من آياته، ومن ذلك قوله :

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ ومَا تَهْوى الأَنْفُسُ) [النجم : ٢٣] .

وقوله : (ومَا لَهُم بِهِ مِن عِلمٍ إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وإنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ اَلْحَقِّ شَيئاً) [النجم : ٢٨] .

وقوله : (بَلِ اتَّبعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيرِ عِلمٍ)[الروم : ٢٩] .

وقوله : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيرِ عِلمٍ وَلاَ هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله)[الحج :٨ـ ٩]

وبخلاف هذا فإن الرسول يؤتى من الله علماً وحكمة وبصيرة، فلا يهدي الناس على الظن وهوى النفس وإنما يهديهم إلى ذلك الصراط المستقيم الذي يراه واضحاً مشرقاً بنور العلم الذي يتلقاه من الله

تبارك وتعالى . لذا فإن القرآن حيثما ذكر فيه تشريف الله أحداً من خلقه بنبوته و رسالته ، قيل : إن الله أعطاه علماً وحكمة . أعلن إبراهيم عليه السلام رسالته بكلماته هذه :

(يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَالَمْ يَأْتِكَ، فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا) [مريم : ٤٣] .

وقال الله تعالى عن لوط عليه السلام :

(ولُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً) [الانبياء : ٧٤] .

وقال عن موسى عليه السلام :

(ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً) [القصص : ١٤] .

وقال عن داود وسليمان عليهما السلام :

(وكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وعِلماً) [الأنبياء : ٧٩] .

وقال لرسولنا الأمي العربي صلوات الله عليه وسلامه:

(ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نَصِير) [البقرة : ١٢٠] .

هذا ، ونريد الآن ــ وقد أوضحنا منصب الرسالة ومنزلة الرسول الامتيازية في مقابل عامة الزعماء في الدنيا ــ أن نتعرض للبحث في أمور أساسية متعلقة بالرسالة على حسب بيان القرآن .

العلاقة بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل

إن أول هذه الأمور وأحقها بالذكر والتنويه أنه لما كان الرسول هو الذي عنده «العلم» الذي ليس عند غيره، وقد أعطاه الله من النور والحكمة والبصيرة مالم يعطه أحداً غيره، فاللازم أن لايصح في الله سبحانه وتعالى إلا الاعتقاد الذي قد بينه الرسول وعرضه على الناس ودعاهم إلى قبوله . إن أحداً من عموم الناس إذا أقام عقيدة مافي ذات الله وصفاته وأفعاله بناء على مجرد تأمله وتفكره أو بناء على تعاليم العقلاء والحكماء الآخرين، فإن عقيدته تلك لن تصح أبداً ولن يكون من الممكن له أن يزود الانسانية بعلم حقيقي ومعرفة صحيحة بالأمور المتعلقة بما وراء الطبيعة، بتلك الأمور التي لها علاقة وثيقة بمسائل الدين الأساسية وهي وراء متناول العقل الإنساني العـــــام .

ومعنى هذا أن جملة المعتقدات وأركان الإيمان إنما هي متوقفة في صحتها على الإيمان بالرسل، ومن المستحيل عقلاً إذا قطعنا صلتنا بهذه الوسيلة أن نقيم فكرنا على أساس من العلم الصحيح . ومن ثم فإن القرآن في غير واحدة من آياته قد أكد الدعوة إلى الإيمان بالرسل . فمن ذلك قوله :

﴿وَكَأَيِّنْ مِن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيدًا وعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِها وكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق : ٨ ـ ٩] .

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً) . [النساء : ١٥٠] .

(وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرا) [النساء : ١١٥] .

فالذي قد قيل في هذه الآيات ـ وفي مئات الآيات الأخرى مثلها ـ بكل صراحة أن العلاقة بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل علاقة لا تقبل القطع والفصل أبداً ، وأن الذي لا يؤمن بالرسل ويربأ بنفسه عن اتباع تعاليمهم ، هو كافر وضال ، سواء أكان مع ذلك مؤمناً بالله أولم يكن ، لأن أية عقيدة إذا لم تكن مستندة إلى «العلم» ، لا تكون صحيحة ولو كانت هي عقيدة التوحيد .

وحدة كلمة الإنسانية

والنكتة المهمة الثانية بهذا الصدد أن الإيمان بالرسل هو العامل الوحيد الذي يستطيع أن يجمع بين بني البشر ويؤسس كلمتهم على عقيدة واحدة عينها . ان الجهل هو أساس الخلاف بينهم، فهم

عندما لا يعرفون شيئاً يذهبون في شأنه مذاهب شتى على أساس الظنون والأوهام، ولابد - إذن - أن يكون كل واحد منهم مخالفاً لغيره في رأيه وعقيدته. وذلك أن الذي يقيم رأيه في شيء على أساس الظن والقياس المحض إنما مثله كمثل رجل يمشي على وجهه في الظلمات وحيث لا يكون النور. فإن شيئاً واحداً يلمسه عشرات الأفراد ومئاتهم بأيديهم ويقيم كل واحد منهم رأيه فيه مختلفا عن رأي غيره. ولكن عندما يأتيهم النور، لا يبقى بينهم أي خلاف . ولا بد - إذن - أن يتوصلوا جميعاً إلى نتيجة عينها في شأنه. فالأنبياء لما قد أنعم الله عليهم بنعمة العلم وأعطاهم من نور الحكمة والبصيرة، كان من المحال أن يوجد نوع من الاختلاف في آرائهم أو في تعاليمهم أو في طرقهم ومناهجهم للدعوة والإرشاد لذا فإن القرآن يؤكد بكل صراحة أن الأنبياء كلهم جماعة واحدة تعليمهم واحد ودينهم واحد ودعوتهم إلى صراط مستقيم واحد، وانه لا بد للمؤمن أن يؤمن بهم جميعاً دون أن يفرق بينهم في إيمانه، وأن الذي يكذب واحداً منهم ، كأنه يرتكب جريمة تكذيبهم جميعاً ويخلع عن عنقه ربقة الإسلام والإيمان ، لأن التعليم الذي يكذبه، ماهو بتعليم نبي واحد فحسب، وإنما هو - عينه - تعليم جميع الأنبياء . يقول جل جلاله :

(يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صالحاً إنّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيم . وإنَّ هٰذه أُمَّتُكُم أُمَّةً واحِدَةً وأنَا رَبُّكُم فاتَّقُون، فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُم زُبُرا، كُلُّ حِزْب بِما لَدَيهِم فَرِحُون) [المؤمنون: ٥١، ٥٣] .

(إنَّا أوْحَيْنا إلَيْكَ كَما أوْحَينا إلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأوْحَيْنَا إلى إبْرَاهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسْبَاطِ وَعِيسى وأيُّوبَ ويُونُسَ وهَارُونَ وسُلَيْمانَ وآتَيْنَا دَوادَ زَبُورا ورُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيما) [النساء: ١٦٣ - ١٦٤] .

والذي يستفاد من هاتين الآيتين وآيات كثيرة أخرى في القرآن أن الأنبياء جميعاً إنما كانوا يدعون إلى دين واحد وانهم قد أرسلوا إلى إلى كل أمة من أمم الأرض :

(ولِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُول) [يونس: ٤٧] .

(ولِكُلِّ قَوْمٍ هَـادٍ) [الرعد: ٧] .

فأما الأنبياء الذين قد قصهم القرآن علينـا وصرح بأسمائهم، فيجب الإيمان بهم صراحة، وأما الأنبياء وهـداة الأمم الذين ما قصهم القرآن علينا ولم يصرح بأسمائهم، فالاعتقاد الصحيح بالنسبة لهم أن لم تكن دعوتهم جميعاً إلا إلى دين واحد هـو الإسلام. ولكن الناس من بعدهم حرفوا تعاليمهم وغيروهـا وهكذا جعلوا لأنفسهم أدياناً شتى بالاختلاف بينهم .

إننا لا نستطيع أن نسمي بوذا وكرشنا وزرادشت وكنفيوشس وغيرهم من عظماء الأمم أنبياء الله لأن القرآن ماقصهم علينا ولم يصرح بأسمائهم، ولكننا - مع ذلك - نعتقد اعتقاداً عاماً أن أنبياء الله قد ظهروا في الهند والصين واليابان وإيران وافريقيا وأوروبا وسائر البلاد في الدنيا، وانهم جميعاً ما دعوا الناس إلا إلى الإسلام الذي دعا إليه محمد ﷺ. وإننا - لهذا - لا نكذب أحداً

من هداة الأمم وإنما نكذب الطرق الخاطئة والمناهج الباطلة التي راجت رواجها في هذه الأمم منحرفة عن صراط الإسلام المستقيم.

وهذا التعليم عن الأنبياء لا يوجد في أي كتاب من كتب الدنيا ولا في أية ملة من مللها كما هو موجود في القرآن، وذلك مافيه أسطع دليل وأظهر برهان على صدق دعوة القرآن وخلود رسالته وهو مع ذلك يتضمن للانسانية رسالة عامة ودعوة خالدة إلى الأخوة البشرية والوحدة العالمية.

اتبــــاع الرسول وطــاعته

ومن النتيجة المحتومة لعقيدة الرسالة أن يتبع الإنسان ذلك الطريق الذي سلكته أنبياء الله و رسله لا في العقائد والعبادات فحسب ولكن في كل شأن من شؤون الحياة العملية، لأن نور العلم والبصيرة الذي كان قد أنعمه الله عليهم، كانوا يعرفون به الفرق بين الطرق الصحيحة والباطلة على وجه اليقين ولأجله ماكانوا يتركون شيئاً أو يتبعونه أو يأمرون به أو ينهون عنه إلا من عند الله. أما عامة الناس فلا يوفقون لمثل هذا النجاح في التمييز بين الصحيح والباطل ولو بعد تجاربهم إلى سنوات بل إلى قرون طويلة، وإذا كانوا قد يحرزون فيــه شيئاً من النجاح ، فإنه لا يكون قائماً عــلى أساس اليقين وإنمــا يــكون قائمــاً على أساس الظــن والتخمين والقياس والاستقراء المحض ولذا يكون في كل حين من أحيانه مظنة للخطإ والنقص والتغير والتبدل. وبخلاف هذا فإن الطريق الذي سلكته الأنبياء في شؤون الحياة ودعوا الناس إلى سلوكه، إنما

سلكوه على أساس «العلم» فما كانت مظنة لنوع من الخطأ أو النقص أو التغير والتبدل، ومن ثم يأمر القرآن مرة بعد مرة باتباع الأنبياء وطاعتهم ويدعو طريقهم الـــذي سلكوه « شريعة » ومنهاجاً و «صراطاً مستقيما» ويؤكد الدعوة إلى ترك اتباع غيره لأن طاعتهم هي عين طاعة الله . واتباعهم هو عين اتباع مرضاة الله . وفي ذلك يقول عز من قائل :

(ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلا لِيُطَـــاعَ بِإذْن الله) [النساء : ٦٤]

(قُل إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحبِبْكُم الله ويَغفِرْ لَكُم ذُنُوبكُم والله غَفُورٌ رَحِيم، قُل أَطِيعُوا الله والرَّسُولَ فَإنْ تَوَلَّوا فَإنَّ الله لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) [آل عمران : ٣١ ــ ٣٢] .

(ياأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله ورَسُوله ولا تَوَلَّوْا عَنه وأَنْتُم تَسمعُون ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعنَا وهُم لا يَسْمَعُون إنَّ شَرَّ الدَّواب عِندَ الله الصُّمُّ الْبُكمُ الَّذِينَ لا يَعقِلُون) [الأنفال : ٢٠ ، ٢٢] .

(ومَا كَانَ لِمُؤمِنٍ ولا مُؤمِنةٍ إذَا قَضَى الله ورَسُوله أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُم الخيرَةُ مِن أَمْرِهم ومَن يَعْصِ الله ورَسُولَه فَقَد ضَلَّ ضَلالاً مُبينا) [الأحزاب : ٣٦] .

(فَإنْ لَم يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَم أنَّما يَتَّبِعُونَ أَهوَاءهُم وَمَن

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ) [القصص : ٥٠]

وهناك في القرآن، إلى جانب هذه الآيات، آيات كثيرة أخرى قد جاءت فيها الدعوة بكل تأكيد إلى طاعة الرسول واتباع سبيله وقد قيل بكل صراحة في سورة الأحزاب :إن حياة الرسول فيها أسوة حسنة لمن كان يرجوالله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً .

أهميــة عقيــدة الرسالة

ومع هذه الأحكام الواضحة لطاعة الرسول واتباع سبيله ، فإن عقيدة الرسالة في حقيقة أمرها هي روح حضارة الإسلام وحياتها وقوتها للبقاء وأساسها الذي تقوم عليه خصائصها ومميزاتها .

هناك ثلاثة أمور هي بمثابة الأساس في كل حضارة، أو نظام للمدنية :

(١) منهــاج الفكر .

(٢) مبادىء الأخلاق .

(٣) القوانين المدنية .

أما منهاج الفكر فإنما يؤخذ من تعاليم أولئك المفكرين والحكماء الذين يستولون لسبب من الأسباب على عقلية طائفة أو طوائف إنسانية كبيرة .

وأما مبادىء الأخلاق فإنما تؤخذ من أولئك الزعماء والمصلحين الاجتماعيين الذين يسودون أمماً مخصوصة .

وأما القوانين المدنية فإنما يضعها أولئك الخبراء والمقننين الذين يعتمد على خبرتهم ومهارتهم في مختلف شعب الحياة .

والنظام المدني الذي يخرج إلى حيز الوجود بهذه الوسائل الثلاث توجد فيه - ولا بد - ثلاثة عيوب :

١ - إن العناصر التي تتهيأ بهذه الوسائل الثلاث ، يتركب منها خلط عجيب لا يقعد مزاجه إلا في عدة قرون ، وعلى ذلك لا يزال فيه ما لا يستهان بعدده من مظاهر الارتباك والتشتت والاضطراب وذلك أن المفكرين والحكماء يكون عددهم فوق الحصر ومع ذلك يكون كل واحد منهم مختلفاً عن غيره في طريق فكره ، وهم في الغالب إنما يكونون من الذين لا صلة لهم بالشؤون العملية في الحياة الإنسانية ، بل يكون أكثرهم معروفين بانقطاعهم عن الدنيا ومقتهم للحياة المدنية ، فهذا هو المصدر الذي يستمد منه أهل الدنيا منهاجهم للفكر .

وأما طائفة الزعماء والمصلحين الاجتماعيين ، التي يؤخذ منها العنصر الثاني فتوجد فيها أيضاً ما لا يحصى من الخلافات الشديدة باعتبار الأفكار والآراء والعقليات الفردية ، وإذا كان هنالك شيء يتفق عليه ويشترك فيه كل أفراد هذه الطائفة ، فإنما هو أنهم لا يعيشون إلا في دنيا الخيال ولا ينفعلون إلا بالعواطف والنزوات المتطرفة بحيث لا تكون لهم أيضاً علاقة بالشؤون العملية الحقيقية في الحياة إلا قليلا .

وأما طائفة الخبراء المقننين ، التي يؤخذ منها العنصر الثالث ، فيكون أفرادها أيضاً مختلفين بينهم أشد الاختلاف ، وإنما الشيء

الوحيد الذي يجمع بينهم هو أنهم أعوز مايكونون إلى العواطف الإنسانية اللطيفة . وفي الغالب يكون إسرافهم في الميلان إلى الفعالية قد جعلهم أفظاظاً غلاظ القلوب.

من الظاهر أنه صعب جداً أن يحصل امتزاج صحيح معتدل بين مثل العناصر المتضاربة . وانه لابد لهذا التضارب أن يلعب دوره في كل نظام للمدنية يتركب من مثل هذه العناصر .

٢ - إن العناصر الثلاثة التي تحصل بهذه الوسائل، لا تقوى على الحياة طويلاً . ولا تقدر على التوسع إلا قليلا . ذلك بأن الأمم المختلفة تنطبع بآثار مختلف المفكرين والزعماء والمقننين وبذلك يحدث في مناهجها للفكر ومبادئها للأخلاق وقوانينها للمدنية مالا يأتي تحت الحصر من الاختلافات الشديدة الأساسية . ومن الواقع كذلك أن أمة عينها لا تبقى في كل عصورها وأدوارها منفعلة بأولئك المفكرين والزعماء والمقننين الذين تنفعل بهم في أول عهدها، بل لا يزال هؤلاء المؤثرون يتغيرون، كما لا تزال تتغير آثارهم مع تغير الأدوار والعصور ، وذلك ماتصبح به كل أمة في الأرض مختلفة عن أية أمة أخرى في حضارتها وبهذا الاختلاف بين الأمم يحدث ذلك الاختلاف الذي هو في حقيقة أمره هوى للبرق المحرق لأسباب الأمن والسلام في الأرض، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن نظام الحضارة والمدنية لا يزال على كيفية التغير والتبدل في كل أمة حيث هي، فهو لذلك لاينمو ولا يتقدم في طريق سوي وخط مستقيم . وإنما يبقى في كل حين من أحيانه

عرضة لتغيرات أساسية تميل به إلى الارتقاء والتقدم تارة وإلى التغير والانقلاب أخرى .

٣ـ إن أي مبدإ من مبادىء هذه العناصر الثلاثة لا يكون على جانب من القداسة . وذلك أن الطرق التي تأخذها كل أمة من مفكريها لفكرها ، وأن المبادئ التي تأخذها من زعمائها لأخلاقها ، وأن القوانين التي تأخذها من مقننيها لمدنيتها ، لا تكون كلها إلا نتيجة للاجتهاد الإنساني ، أمر لايكون خافياً ولا على أفراد تلك الأمة نفسها . فالنتيجة اللازمة لذلك أنهم لا يتبعون تلك الطرق في الفكر ولا تلك المبادىء في الأخلاق ولا تلك القوانين في المدنية اتباعاً كاملاً ولا يتكيفون في اتباعهم لها بكيفية الإيمان والاخلاص ولا في أرقى منازل الاتباع ، ويعلمون أحسن علم أن العناصر الأساسية لحضارتهم فيها إمكان للخطأ والنقص وانها في حاجة إلى الإصلاح والتعديل . ثم إن التجارب العملية هي الأخرى لاتزال تثبت فيها شيئاً فشيئاً ، كثيراً من مكامن الضعف والخطأ والنقص ، وبذلك تحدث في تلك الأمة حالة كحالة الارتياب والتذبذب . وهكذا فإن أي طريق من طرق الفكر أوأي مبدأ من مبادىء القانون . لايجد في وجهه مجالاً ليحكم عليها سيطرته ويقيم نظامها للمدنية على أساس قوي بكل معنى الكلمة .

أما الحضارة التي تقوم على أساس الإيمان بالرسل ، فتكون طاهرة من هذه المعايب والنقائص الثلاثة :

أولاً : لأن عناصرها الثلاثة لا تنبع كلها إلا من مصدر واحد ، نشخص واحد هو الذي يحدد المنهاج لفكرها ، و هو الذي يقرر المبادىء

لأخلاقها، وهو الذي يضع القوانين لمدنيتها. وهو كما يكون رئيساً لعالم الفكر. كذلك يكون في الوقت نفسه رئيساً لعالم الأخلاق وعالم الأعمال. فلا يلقي على مسائل هذه العوالم الثلاثة كلها إلا نظرة شاملة. ويكون فيه امتزاج معتدل بين الفكرية والعواطف اللطيفة والحكمة البالغة في معالجة هذه المسائل وهداية الإنسانية في شأنها.

يأخذ مقداراً متناسباً من كل واحد من هذه العناصر الثلاثة ويدخله في مزيج الحضارة بحيث لا يكون فيه نقص ولا زيادة ولا يكون مغايراً أو مخالفاً للعناصر الأخرى، وبذلك لا يكون مزاج هذا المزيج – الحضارة – إلا في غاية من الاعتدال والاستقامة وهذا الأمر في حقيقة أمره فوق استطاعة الإنسان وقدرته فمن المحال أن يتم بدون هداية وتوجيه من فاطر السموات والأرض.

ثانياً: لا يكون عنصر من عناصرها مختصاً بزمن محدود ولا بأمة عينها. فالمنهاج الذي يقرره الرسول للفكر. والمبادىء التي يحددها للأخلاق والقوانين التي يضعها للمدنية. لا تكون كلها مبنية على العواطف القومية. ولا على الخصائص الزمنية وإنما تكون مبنية على الحق والصدق، والحق والصدق فوق قيود الشرق والغرب والأسود والأبيض والسامي والآرامي والقديم والجديد. لأن الحق والصدق هو حق وصدق في كل ناحية من نواحي الأرض وفي كل أمة من أممها. وفي كل دورة من دورات الزمان على حد سواء كالشمس.. هي الشمس في اليابان وجبل طارق وهي كما كانت الشمس قبل الآن بألف سنة كذلك ستبقى الشمس بعد آلاف من السنين.

فإذا كان لحضارة أن تكون حضارة عالمية إنسانية خالدة، فإنما هي الحضارة التي أقامها رسول الله، إذ هي وحدها صالحة لمسايرة كل بقعة من بقاع الأرض وكل أمة من أممها وكل زمان من أزمانها بدون أن تدخل على مبادئها وأسسها شيئاً من التغيير والتحويل.

ثالثاً: إن هذه الحضارة على أتم مايكون من جوانب القداسة والاحترام، فالذي يتبعها يعتقد بل يوقن إيقاناً جازماً بأن مؤسسها هو رسول الله ﷺ الذي عنده «العلم» من الله ولا مجال للريب والشبهة في علمه

(ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيه) [البقرة : ٢] .

وأنـه لا دخل في أقواله ولافي أفعاله للظن والقياس والتخمين ولا لهوى النفس، وأن كـل ما يأتي بـه من قول أو فعل إنما يأتي به على وحي من الله فلا إمكان لأن يضل عن صراط الله المستقيم ويسلك من دونه سبيلا معوجة خاطئة

(مَاضَلَّ صَاحِبُكُم ومَا غَوَىٰ . ومَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ . إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ) [النجم : ٢ ، ٥]

وحين يرسخ هذا الإيقان القوي والاعتقاد الجازم في ذهن من يتبع الرسول ويلتحم مع روحه وينزل من شغاف قلبه . . يتبع الرسول عـلى أكمل طمأنينة وأوثق ثقة دون أن يخالج نفسه ريب أو تذبذب في صدق سبيل الرسل أو يمر بخلده إمكان أن توجد في الدنيا سبيل هي الحق من دونها أو هي أحسن وأحق منها بالاتباع على الأقل .

فالظاهر أن حضارة مثل هذه تكون بالغة النهاية في الاستحكام والخلود والمتانة ولا بد أن يوجد فيها من النظام والضابطة مالايوجد

مثله في أية حضارة أخرى، ولا بد أن يكون طريقها للفكر ومبادؤها للأخلاق وقوانينها للمدنية على أكبر جانب يتصور من جوانب الاستحكام والقوة والصلابة والقداسة والاحترام .

هذه هي الحضارة التي وضعت الأنبياء والرسل أسسها، مازالوا إلى قرون متطاولة يمهدون لها الأرض في مختلف بقاع العالم، وأخيراً لما أن تمهدت لها الأرض على أكمل وجه وأمثله جاء خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ ليكمل بناءها ويعمم رسالتها .

الخصائص المميزة للرسالة المحمديــة

وكل ماقلناه حتى الآن ، إنما كان عن عموم الأحكام في باب الرسالة. على أن هناك أموراً أربعةلهاعلاقة برسالة محمدﷺ خاصة .

لا ريب أن لافرق هناك البتة بين محمدﷺوسائر الأنبياء السابقين باعتبار منصب الرسالة، ولذا فقد شدد القرآن في النهي عن التفريق بينهم في الإيمان :

(لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه) [البقرة : ٢٨٥] .

فهم من حيث المبدأ مشتركون في أنهم جميعاً مبعوثون من الله وكلهم قد أوتوا العلم والحكمة وكلهم لا يدعون إلا إلى طريق مستقيم عينه، وكلهم هداة الإنسانية وزعماؤها، وكلهم من واجب الإنسان أن يكون لهم على طاعة، وفي حياة كلهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . . . إلا أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى محمداً ﷺ ميزة خاصة على سائر أنبيائه ورسله في عدة أمور

فعلا. وماهذه الميزة بميزة سطحية لا يكون لاعتبار الإنسان وعدم اعتباره إياها تأثير في سلوكه وأعماله في الحياة، بل لها منزلة أساسية في نظام الإسلام الديني وفعلا لا يقوم بناء سائر المعتقدات والقوانين والطاعات في الإسلام إلا عليها. لذا فإن أي شخص في الدنيا لا يكمل إيمانه بالرسالة مالم يؤمن بمحمد ﷺ جاعلا نصب عينيه هذه الميزة الخاصة لرسالته ﷺ.

الفرق بين رسالة محمد ﷺ والأنبياء السابقين

وقبل أن نتعرض للبحث في هذا الموضوع ، يجمل بنا أن نكون على بينة من الأمور التالية :

١ ـ انه لما يستفاد من إشارة القرآن ، والروايات المأثورة والقياس العقلي أنه كان عدد الأنبياء المرسلين من الله يجاوز الآلاف يقول جل وعلا :

(وإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خَلا فِيهَا نَذِير) [فاطر : ٢٤] .

ومن البدهي أن النوع البشري قد خلا فيه من الأمم مالم يحط به، ولم يستطع أن يحيط بـــه علم التاريخ إحصاءً ، وعلى هذا إذا كان قد خلا في كل أمة رسول واحد على الأقل، وجب أن يكون عدد الأنبياء مجاوزاً الآلاف على الأقل . وهذا ماتؤيده أقوال لرسول الله ﷺ جاء فيها أن كان عدد الأنبياء ١٢٤ ألفاً، إلا أن الذين قد قصّهم القرآن علينا وصرح بأسمائهم من بينهم ، من الممكن أن نعدهم على الأنامل، ونحن إذا أضفنا إليهم هداة الأمم الذين ماصرح القرآن بأسمائهم ولا أشار إلى رسالتهم بطرف خفي أو

جلي، فإن عددهم لا يجاوز العشرات على أية حال . فامحاء أسماء آلاف مؤلفة من الأنبياء وانقراض آثار تعاليمهم هكذا ، إن كان يدل على شيء ، فإنما يدل على أنه ما كانت رسالتهم إلا لأزمان محدودة، ولأمم خاصة ولم يكن عندهم شيء يحفظ أسماءهم ويفيض الثبات والخلود على آثار تعاليمهم .

٢ - ثم إن الأنبياء وهداة الأمم الذين نعرف أسماءهم قد غطت أحوالهم وتعاليمهم حجب كثيفة من الأساطير والخرافات والتحريفات بحيث ليس علمنا بهم شيئاً يذكر إزاء جهلنا بهم، وبحيث إذا وضعنا في ميزان النقد التاريخي الخالص مايوجد اليوم من آثارهم وأحوالهم وتعاليمهم، صارفين النظر عن الاعتقاد الظني ، فإننا لا نجد لأنفسنا بداً من الاعتراف بأن ليس فيها شيء يستحق الذكر ويجوز الاعتماد عليه . لا نستطيع أن نحدد زمانهم ولا أن نعرف أسماءهم على وجه الصحة واليقين، بل لا نستطيع أن نقول على وجه قاطع ماإن كان لهم وجود في الدنيا في واقع الأمـــر أم لا . إن المؤرخين قـــد شكوا حتى بالنسبة لأشهرهم كبوذا وزرادشت : هـــل حقيقة كانوا شخصيات تاريخية أم أنهم مجرد شخصيات خيالية ؟ ثم ان المعلومات التي عندنا عن سيرتهم وتراجم حياتهم ، هي بمكان من الاجمال والابهام لانستطيع معه أن نتأسى بهم في أية شعبة من شعب الحياة . ولنا أن نقول مثل هذا بالنسبة لتعاليمهم ، فإن الكتب والتعاليم التي تعزى إليهم اليوم ليس منها كتاب ولا تعليم متصل الإسناد إليهم ، وهناك شهادات متضافرة قوية ، من داخلية وخارجية ، على أن قد لعبت بها يد

التحريف والتبديل ، وهذا ما فيه دلالة كافية على أن سائر الأنبياء وهداة الأمم الذين مضوا قبل محمد ﷺ ، قد انتهت رسالتهم وانقضى عهد زعامتهم وهدايتهم .

٣ـ إنــه من الثابت بالنسبة لجميع الرسل السابقين تقريباً أن تعاليمهم إنما كانت مختصة بأقوامهم وأممهم التي بعثوا فيها وإليها . وهذا ما قد صرح به بعضهم تصريحاً ، وقد أثبتته الوقائع التاريخية بالنسبة لبعضهم . إن ابراهيم وموسى وكنفيوشس وزرادشت وكرشنا ما جاوز تعليم أحد منهم حدود وطنه الذي ظهر فيه . وهذا ما عليه حال سائر الأنبياء والرسل الذين بعثوا فيالأمم الآرية والسامية وأما بوذا والمسيح فلا شك أن أتباعهما قد قاموا بتبليغ تعاليمهما إلى الأمم الأخرى في العالم ، ولكنهما بأنفسهما ما حاولا ذلك ولم يقولا قــط : إن رسالتنا للعالم كله ، بل إن الإنجيل قــد ورد فيه قول للمسيح عليــه السلام معناه : أنه مــا جاء إلا لهداية بني إسرائيل

٤ ـ إذن فإن محمداً ﷺ هو الوحيد من بين جميع الأنبياء وهداة الأمم، الذي عندنا معلومات وافية مستندة يقينية عن سيرته وتعليمه لا مجال للشك في صحتها، حتى إنه ليجوز القول بأن ليست في الدنيا أية شخصية أخرى توجد عنها اليوم مثل هذه المعلومات الوافية مع صحتها وجدارتها بالاعتماد عليها، حيث إن متشككاًإذا أبدى شكه في صحتها، فلا بد له أن يسلم إلى الحرق كل مايوجد في الدنيا اليوم من ثروة المعلومات التاريخية، إذ لابد بعد الشك في صحة مثل هذه الثروة المستندة بأن ليس علم التاريخ كله إلا مجموعة للأكاذيب والأباطيل لا يجوز الاعتماد على لفظة منها .

٥ ــ وكذلك أن محمداً ﷺ هو الوحيد من بين جميع الأنبياء وهداة الأمم، الذي لا تزال سيرته وأحوال حياته ماثلة أمام أنظارنا بجملة تفاصيلها وجزئياتها . لا يقف الأمر عند الأنبياء وهداة الأمم فحسب، بل ليست هناك أية شخصية من بين سائر الشخصيات التاريخية الأخرى، توجد سيرتها وأحوال حياتها سالمة محفوظة مدونة في كتب التاريخ بمثل هذه التفاصيل والجزئيات، وكل ماهناك من الفرق بين عهدنا وعهد الرسول ﷺ ، فإنما هو أنه ﷺ كان في ذلك العهد موجوداً في الدنيا بحياته الجسدية ، وما هو كذلك اليوم . فإذا لم تكن الحياة مشروطة بالحياة الجسدية ، جاز لنا القول بأنه ﷺ لا يزال حياً وسوف يبقى حياً مابقيت في الدنيا سيرته، وللدنيا اليوم أن تشاهد سيرته وأحوال حياته في كتب السيرة والأحاديث عن كثب كما كان لها أن تشاهدها في عهده . فيصح القول على هذا أنه إذا كان من الممكن اتباع أحد من الأنبياء وهداة الأمم على أكمل وجه وأمثله ، فإنما هو محمد ﷺ ليس غير .

٦ ــ ولنا أن نقول هذا بالنسبة لتعليمه ﷺ أيضاً . ليس هناك ــ كما قلنا فوقاً ــ أحد من الأنبياء ولا هداة الأمم لا يزال كتابه وتعليمه الذي جاء به موجوداً في الدنيا على صورته الصحيحة الأصلية ويجوز عزوه إليه على وجه اليقين والطمأنينة، اللهم إلا محمداً ﷺ ، فإنه من فضل الله عليه أن القرآن ، كتابه الذي جاء به، لا يزال موجوداً محفوظاً في الدنيا بعين الكلمات التي عرضه بها على الناس في زمانه، كما أن تعاليمه الأخرى ــ ماعدا القرآن ــ التي نطق بها لسانه، هي أيضاً لا تزال محفوظة مدونة في الكتب

على صورتها الصحيحة الأصلية. وسوف تبقى محفوظة إلى أبد الآباد إن شاء الله تعالى. فعلى هذا إذا كان من الممكن اتباع تعليم أحد من الأنبياء على أساس اليقين والطمأنينة والثقة، فإنما هو تعليم محمد صلى الله عليه وسلم.

٧ ــ إننا إذا نظرنا في كل مايوجد اليوم في الدنيا من أحوال الأنبياء وهداة الأديان السابقين وتعاليمهم، وجدنا أن كل مافيها من النماذج الطاهرة والمثل العليا للحق والصدق والخير والصلاح والأمانة والعفاف والاخلاص وفضيلة الأخلاق ونزاهة الأعمال، هي مما يوجد في سيرة محمد ﷺ وتعليمه، وكذلك اننا لا نجد في تعليم وسيرة أحد من الزعماء والمصلحين الذين ظهروا في بقعة من بقاع الأرض بعد محمد ﷺ، شيئاً من الحق والصدق والخير والصلاح إلا نجده في تعليم وسيرة محمد ﷺ. ومع هذا وهذا فإنه لا بد أن نجد في تعليم وسيرة محمد ﷺ ثروة وافرة من علم الحق والعمل الصالح وأصول الخير ومبادئ الفضيلة لا نجدها ــ ولا يمكن أن نجدها أبداً ــ في تعليم وسيرة أحد من الأنبياء والهداة والزعماء والمرشدين والمصلحين السابقين واللاحقين. وفوق كل هذا فإنه من الحقيقة أن الإنسان لا يستطيع أن يتصور شيئاً سليماً عن العلم الإلهي والأخلاق الفاضلة. والشؤون الدنيوية هو خارج من دائرة الإسلام، كأن تعليم محمد ﷺ وسيرته جامعان لكل نوع من الفضائل والمكارم والحسنات والخيرات، لأن كل ماكان من الحق، فقد بينه محمد ﷺ إما بأقواله أو بأفعاله حتى كشف الغطاء عن الصراط الذي كان هو الصراط المستقيم وعرضه على الدنيا أشرق أبلج

لا يضل سالكه، ولأن كل ما كان من الممكن أن يكونِ من المبادىء القيمة لاستقامة الأخلاق ونزاهة الأعمال، فقد عرضه محمد ﷺ بما لا مزيد عليه من الإيضاح والبيان .

٨ ــ إن محمداً ﷺ هو الوحيد من بين جماعة الأنبياء وهداة الأديان قام بدعوى أن رسالته لبني البشر كلهم مادام لهم وجود على وجه الكرة الأرضية، كما أن ذلك عين ما حصل فعلا: أرسل الرسائل في حياته إلى ملوك الأرض وعظماء الأمم وانتهت دعوته إلى كل ناحية من نواحي الأرض وإلى كل أمة من أممها . وهذه ميزة لمحمد ﷺ لا يشاركه فيها أحد غيره . فمن الأنبياء وهداة الأديان من لم يقم بدعوى العالمية ولا قُدِّرت لدعوته أصلا، ومنهم من قدرت لدعوته العالمية، ولكنه بنفسه ما قام بدعواها ولا بذل شيئاً من الجهد في تحقيقها . إذن فإن محمداً ﷺ هو الوحيد الذي قام بدعوى العالمية و بذل لتحقيقها الجهود وأخيراً نالها فعلا .

٩ ــ إن الأنبياء لا يرسلون في الدنيا إلا لأحد الأسباب الثلاثة الآتية :

(أ) ــ أن لا يكون قد جاء في أمة رسول لهدايتها وتعليمها وكانت الحاجة تقتضي مجيئه بموجب عموم القاعدة المذكورة في قوله سبحانه و تعالى :

(ولِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) [الرعد : ٧] .

(ب) ــ أن يكون قد جاءها رسول ولكن اندثرت آثار رسالته ووقع التحريف والتبديل في تعليمه و كتابه المنزل عليه من الله وامحت

معالم سيرته وأعماله حتى لم يعد بوسع الناس أن يتبعوه ويتأسوا بحياته ويقتدوا بهداه .

(ج) – أن يكون تعليم الرسول السابق أو الرسل السابقين ناقصاً وبحاجة إلى التكميل والزيادة . ليس ولا يجوز عقلاً أن يكون لبعثة رسول في الأرض سبب رابع بعد هذه الأسباب الثلاثة [1] . ومن المحال أن يكون قد جاء أمة رسولها وكانت سيرته وآثاره وتعاليمه حية محفوظة على صورتها الأصلية ولم تكن بحاجة إلى شيء من الزيادة أو التكميل ولكن مع ذلك يرسل إلى تلك الأمة رسول جديد . ذلك أن ليس منصب الرسالة مجرد فضيلة أو جائزة حتى ينعم به على أحد مكافأة له على حسن أعماله ، وإنما هو خدمة مخصوصة يسند إلى أحد القيام بأدائها تحقيقاً لغاية مخصوصة على مقتضى من حاجة مخصوصة ، كما أن ليس هذا المنصب من التفاهة وقلة الأهمية حيث يُنشأ لمجرد تذكير الناس وتنبيههم على تعليم رسول سابق ، لأن جماعة المجددين وعلماء الحق أكثر من الكافي للاضطلاع بهذه الوظيفة ، فالذي يقتضيه العقل الإنساني العام على وجه قاطع أنه لا يجوز أن يأتي رسول جديد إلى أمة في الأرض مالم يدع إلى ذلك أحد من الأسباب الثلاثة المذكورة أعلاه . وقد ثبت مما ذكرنا فوقاً أن كلا من هذه الأسباب الثلاثة قد ارتفع برسالة محمد ﷺ .

---

(١) على أنه من الممكن أن يضاف إلى هذه الأسباب الثلاثة سبب رابع هو أن يرسل مع رسول الله رسول آخر لتأييده وتصديقه في دعواه للرسالة وقد ورد له بعض أمثلة في القرآن ، ولكننا في هذا المقام قد ضربنا عنه صفحاً ، لأن الرسول المصدّق أو المؤيّد إنما تكون رسالته تكملة لرسول آخر وهو إنما يرسل كوزير له ، يشد أزره ويشاركه في أمره .

إن دعوته ﷺ للنوع البشري كله فلا حاجة الآن إلى أن يأتي إلى كل أمة في الأرض رسول خاص بها، ولا يزال كتابه الذي نزل عليه حياً محفوظاً في الدنيا على صورته الأصلية، فما الدنيا بحاجة إلى كتاب جديد أو هداية سماوية جديدة. ولا يزال تعليمه، مع جملة آثار رسالته على أكمل وأمثل ما يكون من وجوه الكمال والشمول، حتى لم يعد شيء من علم الحق خافياً على الدنيا، ولا هناك نقص أو تقصير يمكن أن يشار إليه في دعوة الدنيا إلى هداية أو أسوة حسنة في صلاح الأعمال ومكارم الأخلاق، فلا حاجة إلى شيء ليضاف إليها ويتدارك به نقصها.

فما دام لا يوجد في الدنيا اليوم سبب من هذه الأسباب الثلاثة وفيها (أي في هذه الأسباب الثلاثة) انحصرت الدواعي إلى رسالة محمد ﷺ، فلا بد من الاعتراف بأن الرسالة قد انتهت سلسلتها وانغلق بابها بعد رسالة محمد ﷺ، والحقيقة أن هذا الباب لو ترك مفتوحاً حتى اليوم، لكان معناه أن الله قد يصدر عنه العبث(١) سبحانه وتعالى عما يقول فيه الظالمون والكافرون.

هذه هي المزايا الخاصة لرسالة محمد ﷺ قد بينها القرآن وفصل فيها القول وأعاد وأبدأ في عرضها على أعين الناس في كثير من آياته.

---

(١) إن بعثة نبي في الدنيا بدونما حاجة إليه مخالفة للحكمة، ومن اللازم أن يوصد هذا الباب بعد كمال أمر النبوة حتى تجتمع الدنيا وتظل مجتمعة على اتباع نبي واحد، لأنه إذا بقي مفتوحاً فلابد أن يتفرق الناس، ويختلفوا بينهم على اساس الإيمان والكفر مع بعثة كل نبي جديد.

الدعوة العـــــــامة

يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

(قُلْ ياأَيُّهَا النَّاسُ إنّي رَسُولُ اللهِ إلَيكُم جَميعاً الّذي لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأَرْضِ لا إلٰه إلاّ هُوَ يُحْيِي ويُميتُ فَآمِنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يُؤْمِنُ باللهِ وكَلِماتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهْتَدُون) [الأعراف: ١٥٨].

(ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلاّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا ونَذِيرًا ولٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون) [سبأ: ٢٨].

(ياأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُم الرَّسُولُ بالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُم فآمِنُوا خَيرًا لَكُم وإنْ تَكْفُرُوا فإنَّ اللهَ مافي السَّمٰواتِ والأَرْض) [النساء: ١٧٠].

(ومَا أَرْسَلنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) [الأنبياء: ١٠٧].

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِين نَذِيرًا) [الفرقان: ١].

فهذه الآيات يستفاد منها مايأتي من الأمور:

١ ـ أن ليست دعوة محمد ﷺ محدودة بزمن من الأزمان أو بأمة من الأمم أو بناحية من نواحي الأرض، وإنما هو ﷺ زعيم الإنسانية وإمامها الأعظم مادامت السموات والأرض.

٢ – وأن النوع البشري بأجمعه مكلف للايمان برسالته وتصديقه واتباعـــه .

٣ – وأن ليس للنوع البشري أن ينال الرشد والهداية إلى صراط الله المستقيم مالم يؤمن برسالته ﷺ .

وكل هـــذه الأمور الثلاثة من أركان الإيمـــان في الإسلام ، لأن الحضارة الإنسانيةالعالمية التي يعبر عنها بالإسلام ، لاتقوم عالميتها وآفاقيتها إلا على أساس هذه العقيدة ، بحيث إذا قلنا أن الرشد والاهتداء إلى صراط الله المستقيم ممكن بدون الإيمان برسالته ﷺ ، فإن دعوة الإسلام تتجرد من عالميتها وعمومها .

كمال الدين :

والميزة الثانية التي قد بينها القرآن لرسالة محمد ﷺ ، يتضمنها قوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ) [التوبة : ١٣٣] .

وقوله تعالى :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً) [المائدة : ٣] .

ففي هاتين الآيتين دلالة واضحة على أن كل ماكان من نوع « الهدى » وكل ماكان من نوع « دين الحق » قد جاء به محمد النبي الأمي العربي ﷺ ، وانه لم يعد الدين – من حيث جنسه – إلا

منحصراً في رسالته ﷺ ، وأن نعمة الهداية التي كانت تنزل إلى الإنسانية جزءاً جزءاً بواسطة الأنبياء السابقين . قد نزلت بجملتها وبلغت كمالها بواسطته ﷺ، فلا ثمة شيء – الآن – من الهدى أو الدين أو علم الحق تحتاج الإنسانية لمعرفته إلى رسول أو نبي جديد .

والنتيجة اللازمة المنطقية لكمال الدين وتمام النعمة هكذا أن تنقطع صلة الإنسانية عن سائر الرسالات والنبوات السابقة في طاعتها واتباعها وأن تتوقف سلسلة الرسالة والنبوة بالنسبة للمستقبل . وهذان الأمران – نسخ الأديان السابقة وانتهاء سلسلة النبوة – من الخصائص الامتيازية لرسالة محمد ﷺ ، ولذا قد بينهما القرآن وفصّل فيهما القول بأوضح مايكون من الكلمات .

نسخ الأديان السابقة

المراد بنسخ الأديان السابقة أن كل ماجاء به الأنبياء السابقون وعرضوه على الإنسانية ودعوها إلى اتباعه ، قد نسخ برسالة محمد ﷺ . لا شك أن الإيمان بنبوتهم وصدق دعوتهم على وجه الإجمال لازم لا بد منه ، إذ ما كانوا جميعاً إلا دعاة إلى الإسلام، وما التصديق بدعوتهم إلا تصديق بالإسلام ، ولكن مع ذلك فقد انقطعت عنهم صلة الإنسانية في طاعتها واتباعها فعلا وإنما ارتبطت برسالة محمد ﷺ وتعليمه وأسوته الحسنة، لأن الذي يقتضيه المبدأ – أولاً – أن لا تعود الإنسانية بحاجة إلى الناقص بعد أن جاءها الكامل ، – وثانياً – أن قد لعبت يد التحريف والإهمال بتعاليم وسيرة الأنبياء السابقين ، مما لم يعد من الممكن لأجله أن تتبعهم الإنسانية

فعلا، ومن هنا فإن القرآن حيثما يأمر بطاعة الرسول واتباع أحكامه وأوامره لا يأتي بكلمتي: «الرسول» و «النبي» إلا معرفتين باللام لتكونا خاصتين بمحمد ﷺ. يقول تعالى مثلاً:

(أَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُون) [آل عمران: ١٣٢]

ويقول تعالى مثلاً:

(أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأَمْرِ مِنْكُم)[النساء:٥٩]

ويقول:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله) [النساء: ٨٠].

ولأجل هذا فإن القرآن يأمر بالإيمان بمحمد ﷺ وطاعته واتباع شريعته حتى الأمم المؤمنة برسالة نبي من الأنبياء السابقين، وفي ذلك يقول تعالى:

(ياأَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جاءَكُم رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُم كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُم تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَابِ ويَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ، قَدْ جاءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ، وكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بإِذْنِهِ ويَهْدِيهِم إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) [المائدة: ١٥ - ١٦].

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَه مَكْتُوباً عِنْدَهُم فِي التَّوراةِ والإِنْجِيلِ يأْمُرُهُم بِالمَعْرُوفِ ويَنْهَاهُم عَنِ

الْمُنكَرِ ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ويُحرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ويَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُم والأَغْلالَ التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وعَزَّرُوهُ ونَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيكُم جَمِيعاً الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّموات والأَرْضِ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي ويُمِيتُ فآمِنُوا باللهِ ورَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يُؤمِنُ باللهِ وكَلِمَاتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ) [الأعراف : ١٥٧ ـ ١٥٨] .

والقرآن ماصرح في هذه الآيات بأن الأديان السابقة قد نسخت برسالة محمد ﷺ فحسب ولكن قد بين مع ذلك معنى نسخ هذه الأديان وسببه ونتائجه المنطقية وقال أن ليست السعادة والنجاة والفلاح والهداية منحصرة الآن إلا في طاعة محمد ﷺ واتباع شريعته إذ ليس دين محمد ﷺ في حقيقة أمره إلا إصلاح وإكمال لنفس الدين الذي كان قد أرسل به إلى الأمم المؤمنة بالتوراة والإنجيل وغيرها من أمم الأرض الأخرى .

ختم النبوة

وكذلك قد وردت الصراحة في القرآن بالنتيجة اللازمة المنطقية لكمال الدين وتمام النعمة، وهي ختم النبوة وانتهاء سلسلة الرسالة. يقول عز من قائل:

(ماكَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ولٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) [الأحزاب : ٤٠] .

وهذا الإعلان عن انتهاء سلسلة النبوة من الوضوح والجلاء حيث لا يستطيع أحد أن يتأول لبقاء باب النبوة مفتوحاً ما لم يكن في قلبه مرض وفي عقله زيغ، وسواء أقرأنا الخاتم في «خاتم النبيين» بفتح التاء أو بكسرها، فما النتيجة في كلا الوجهين إلا واحدة هي أن باب النبوة قد انسد إلى أبد الآباد في علم ذلك العليم الخبير الذي لا يحصل شيء في الأرض ولا في السماء على خلاف علمه.

الأجزاء اللازمة لعقيدة الرسالة المحمدية

وهذه العقائد الثلاث – كمال الدين، ونسخ الأديان السابقة، وختم النبوة – من أركان الإيمان في الإسلام وهي أجزاء لازمة لعقيدة الرسالة المحمدية، ذلك بأن الذي تقوم عليه دعوة الإسلام في عمومها هو أن النوع البشري قد جاءه بصورة الرسالة المحمدية دين كامل قد كمّل فيه كل ما كان ناقصاً في الأديان السابقة ولم يترك فيه نقص قد تشعر الإنسانية بحاجة إلى تداركه وتكميله في أي زمن من الأزمان، وإن كل ما هو «الإسلام» وكل ما هو «الحق»، قد جاء به محمد ﷺ وعرضه على الدنيا، فلا ثمة شيء من جنسها ليأتي إلى الدنيا ويتوقف على الإيمان به إسلام الإنسان وكونه من أهل الحق في أي زمن من الأزمان، وأن كل ما قد قرره محمد ﷺ كفراً وباطلاً، هو كفر وباطل إلى أبد الآباد، فلا لشيء منه أن يتحول إسلاماً وحقاً، ولا لأي فرق جديد بين الإسلام والكفر أن يقوم على أساس غير ما بيّنه ﷺ بأقواله وأفعاله.

هذا هو الأساس القوي المحكم الذي قد أقيم عليه بناء الحضارة الإسلامية العالمية الخالدة . وما أقيم عليه بناء هذه الحضارة إلا ليتمكن أفراد النوع البشري كلهم أجمعون إلى أبد الآباد من الاجتماع على كلمة واحدة وحضارة واحدة: على كلمة يكونون على شعور تام من كونها كاملة خالدة، وعلى دين يكون محيطاً بالحق والهدى من جملة نواحيهما ولا يكون شيء من جنسهما خارجاً من دائرة سلطانه، وعلى حضارة تكون في مأمن من حدوث ثغرة في بنائها لفرقة جديدة مصطنعة بين الكفر والإسلام .

هذا ماتعتمد عليه دعوة الإسلام العامة في بقائها وخلودها ويتوقف عليه بناؤها في تماسكه واستحكامه، ولنا أن نعرف على هذا أن الذي يقول بصحة اتباع الأديان السابقة حتى بعد ظهور الإسلام برسالة محمد ﷺ، إنما يريد في حقيقة أمره أن يسلب الإسلام حقه في الدعوة العامة، لأن الاستهداء مادام ممكنا حتى بطرق أخرى غير الإسلام، فما دعوة الإنسانية كلها إلى الاستظلال بظل الإسلام إلا حركة لا معنى لها ولا طائل تحتها . وأن الذي يقول بجواز الحذف والزيادة والتبديل والتحريف في تعليمه ﷺ على حسب الحاجات المتجددة والظروف المتبدلة في كل زمان، إنما يريد في حقيقة أمره أن يحرم الإسلام حقه في الدوام والاستمرار والخلود لأن ديناً، أيما دين، إذا كان ناقصاً يحتاج إلى الحذف والزيادة والتبديل والتحريف وكان مع ذلك يدعي أنه هو المصدر الوحيد للهداية والإرشاد ، فلا يكون في دعواه إلا كاذباً مفترياً، وان الذي يقول أن الباب لا يزال مفتوحاً في الإسلام

لبعثة الأنبياء بعد محمد ﷺ ، إنما يريد في حقيقة أمره أن يقضي على قوة الإسلام وتماسكه واستحكامه ، لأنه لا معنى لبقاء باب النبوة مفتوحاً بعد محمد ﷺ سوى أن تظل جمعية الإسلام مهددة بخطر التشتت والتفرق في كل حين من أحيانها ويظل يخرج من الإسلام كل من كان مؤمناً بالقرآن و رسالة محمد ﷺ كلما قام في الدنيا رجل بدعوى نبوته الجديدة ، فما فتح باب النبوة في الإسلام إلا فتح لباب الفتنة والاختلاف والتفرق . والحقيقة أن أخطر وأفتك سلاح من الأسلحة الممكنة لهدم الإسلام واستئصال شأفته ، هو أن يقوم بين المسلمين أحد بدعوى النبوة . أليس الأساس الذي أقيم عليه نظام الاتحاد والاجتماع في الإسلام، هو أن كل من آمن بالقرآن ورسالة محمد ﷺ ، هو مسلم وأن المسلمين كلهم أفراد أمة واحدة أو أعضاء جسد واحد إذا اشتكى واحد منهم تداعى سائر أعضائه بالسهر والحمى . وقل لي بالله أن الأمر اذا كان هكذا، ومع ذلك قام بين المسلمين أحد قائلا أن الإيمان بالقرآن ورسالة محمد ﷺ لا يكفي للنجاة والفلاح، بل لا بد لكم إذا ابتغيتم لأنفسكم الفلاح والنجاة أن تؤمنوا بنبوتي أيضاً ، لأن من لم يؤمن بنبوتي فهو كافر ولو كان مؤمناً بالقرآن و رسالة محمد ﷺ ثم فرّق بين المسلمين على هذا الأساس وجعل الأمة المؤمنة برسالة محمد ﷺ طرائق قدداً ، وقطع الصلات بين الذين كان القرآن قد آخى بينهم بقولہ: (إنما المؤمنون إخوة)[الحجرات : ١٠] ومزق جمعهم في الصلاة والتزاوج والتوارث، بل وفي العيادة والتعزية

والصلاة على الموتى . فمن ذا يكون أعدى من هذا الظالم لكلمة الإسلام وقوميته وحضارته ونظامه للجماعة ؟

ولعله قد سهل عليك بهذا البحث أن تعرف مدى أهمية عقيدة كمال الدين ونسخ الاديان السابقة وانتهاء سلسلة النبوة مع عقيدة الرسالة المحمدية وانه لماذا من الضروري أن تكون هذه العقيدة من اركان الإيمان لبقاء الإسلام واستحكامه وخلوده وانتشاره العام .



الفصل السادس

الإيمـــان بالكتاب

المراد بالكتاب في اصطلاح الإسلام هو الكتاب المنزل من الله سبحانه وتعالى على رسوله لهداية عباده وإرشادهم وإصلاحهم كأنه باعتبار هذا المفهوم ذلك البلاغ الرسمي أو الكلام الرباني حسب الاصطلاح الاسلامي الذي يرسل الرسول إلى الدنيا لبيانه وتفسيره وتحقيق مطالبه .

إننا في هذا المقام لا نريد أن نتناول بالبحث : بأي معنى وبأية كيفية ان الكتاب هو كلام الله ؟ لأن البحث في ذلك إنما هو بحث في مسألة من مسائل علم الكلام أو الإلهيات ، مما لاعلاقـــة له بمـــا نحن فيه من الموضوع في هذا الكتاب . وإنمـــا الذي نريد أن نتناوله بالبحث في هذا المقام هو : ماهو نصيب الإيمان بالكتاب في تأسيس الحضارة الإسلامية وحفظها ؟ ولهذا يكفي أن تعرف أن الذي يريد الله تبارك وتعالى أن يلقنه عباده ويعلمه إياهم بواسطة رسوله ، يلقي مبادئه وأمهات مسائله على قلب الرسول بحيث لا يكون في ألفاظه ولا في معانيه ومطالبه دخل ما لعقل الرسول أو فكره أو إرادته

أو رغبته الشخصية، فهو لهذا يكون كلام الله لفظاً ومعنى ولا يكون كلام الرسول البتة .

أما الرسول فيقوم بتبليغه الناس بأكمل صدق وأعظم أمانة ، ثم يعتني ببيان إجماله وإيضاح معانيه وتفسير مطالبه بما يؤتيه الله من نور الحكمة والبصيرة ويؤسس على مبادئه ومطالبه نظام الأخلاق والاجتماع والحضارة والمدنية ويحدث الانقلاب بتعاليمه وسيرته الطاهرة في أفكار الناس وآرائهم وميولهم وعواطفهم وينفخ فيهم بتربيته وتوجيهه العملي روحاً من الإخلاص والتقوى ويزكي نفوسهم ويطهر أعمالهم وينظم صفوفهم، وبذلك يخرجون إلى الدنيا كمجتمع جديد بعقلية جديدة وأفكار جديدة وميول جديدة وأخلاق جديدة وآداب جديدة وقوانين جديدة، ثم انه يترك فيهم كتاب الله مع آثار تعليمه وسيرته الطاهرة، مما يكون لهم ولمن يأتي بعدهم من أجيالهم نبراساً ساطعاً ينير لهم سبيلهم ولا يدعهم يخرجون من النور إلى الظلمات .

العلاقة بين الرسول والكتاب

لا يكون الرسول ولا الكتاب إلا من رب واحد، ولا يكونان إلا جزءين لأمر رباني واحد، ووسيلتين لتحقيق غاية واحدة . فعلم الله وحجته[1] كما تكون حياة الرسول أسوته العمليه .

ومن الفطرة التي فطر عليها الإنسان أنه لا يستطيع الاستفادة — على وجه شامل — من العلم الكتابي المجرد وهو — لذلك — يحتاج إلى معلم إنساني يرسخ في ذهنه هذا العلم بتعليمه وتربيته وينفخ فيه بسيرته الطاهرة المتكيفة بهذا العلم روحاً هي المقصودة

(١) كذا الأصل .

في حقيقة الأمر من وراء هذا العلم . ليس لك أن تجد في طول التاريخ الإنساني مثالا واحداً على أن يكون كتاب ما قد أحدث الانقلاب في عقلية أمة وحياتها بدون تعليم معلم إنساني وتوجيهه وقيادته، ومما لا يتجرأ على دعواه أحد من العارفين بسر الفطرة الإنسانية أن كل المصلحين الذين ظهروا في الدنيا وأحدثوا الانقلاب في أفكار الأمم وأعمالها، لو لم يولدوا نماذج حية كاملة لتعاليمهم وإنما نشرت تعاليمهم ومبادؤها بصورة كتاب، لحدث بهذا الكتاب وحده نفس الانقلابات التي قد حدثت في الدنيا بتعاليمهم العمليـــــة .

ومن جانب آخر فإن من الفطرة الإنسانية كذلك انها لا تحتاج إلى المعلم الإنساني فحسب، ولكنها تتطلب معه إلى بيان مستند موثوق بصحته لما جاء به هذا المعلم الإنساني من التعليم، سواء أكان هذا البيان مدوناً في الصحف أو محفوظاً في الصدور، لأن المبادىء التي يضع عليها المعلم الإنساني بناء أفكار الجماعة وأعمالها وأخلاقها وآدابها ومدنيتها، إذا لم تكن محفوظة كما هي على صورتها الحقيقية، فلا بد لآثار تعاليمه أن تختفي وتنقرض شيئاً فشيئاً ولا بد مع انقراضها واختفائها أن تتداعى أسس السيرة الفردية وتضعف القواعـــد التي يقوم عليهـــا نظـــام تلك الجماعة للاجتماع والمدنية، إلى أن لا يبقى عندها في آخر أمرها إلا الأساطير والقصص والحكايات بدون ما دليل على صحتها ، مما لا يجوز ولا يمكن أن يقوم عـــلى أساسه نظام قوي للحضارة والمدنية، لأجل هذا فإن المصلحين والحكماء الذين مابقيت تعاليمهم

محفوظة في العالم ، وقع أتباعهم في الضلال وابتليت أممهم التي بذلوا جهودهم لتربيتها بكل نوع من المفاسد الاعتقادية والفكرية والعملية والخلقية والمدنية ولم يبق بعدهم شيء يعين الناس على معرفة المبادئ الأصلية التي كانوا قد عرضوها على الإنسانية والتفت حولها أمم في بداية الأمر .

لقد كان فاطر السموات والأرض يعرف في خلائقه هذه الفطرة ، لذا فانه لما أخذ على نفسه هداية النوع البشري ، أجرى له سلسلة النبوة والرسالة جنباً إلى جنب مع سلسلة التنزيل . فهو من جانب وسّدَ منصب الإمامة والقيادة إلى أفراد كانوا في سيرتهم أطهر من السحاب في كبد السماء ، ومن جانب آخر أنزل عليهم كلامه بألفاظه، حتى يقوموا جميعاً بقضاء هذين المطلبين للفطرة الإنسانية . ومن ثم يصح القول بأنه لو جاءت الأنبياء بدون كتاب ، أو جاءت الكتب بدون أنبياء، لما تحققت غاية الحكمة والهداية .

مثال الرسول في القرآن

وهذه العلاقة بين الرسول والكتاب قد بينها القرآن بأسلوب تمثيلي رائع . فقد شبه الرسول في غير واحدة من آياته بإمام أو هاد وظيفته إرشاد الضالين وتنبيه الغافلين إلى سواء السبيل . يقول مثلاً :

(وَجَعَلْنَاهُم أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) [الأنبياء : ٧٣] .

(ولِكُلِّ قَومٍ هَادٍ) [الرعد : ٧] .

(فاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا) [مريم : ٤٣] .

(وأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) [النازعات : ١٩] .

هذا من جانب، ومن جانب آخر فهو يعبر عن الكتاب بعدة كلمات من «نور» و «ضياء» و «برهان» و «فرقان» و «منير» و «مبين» يقول مثلا :

(واتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ) [الأعراف : ١٥٧] .
(ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وهَارُونَ الْفُرْقَانَ وضِياءً) [الأنبياء : ٤٨]
(قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وكِتَابٌ مُبِينٌ) [المائدة : ١٥]
(قَدْ جاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ) [النساء : ١٧٤] .

وماهذه التشبيهات بمجرد كلام شاعر، وإنما هي تشير إلى حقيقة عظيمة جداً، والمقصود من ورائها بيان أن الإنسان العادي لا يستطيع بمجرد عقله الفطري وعلمه الاكتسابي أن ينال من النور والهداية مايسلك بـــه الصراط المستقيم ، وهو في هـــذه الدياجير الحالكة الأجنبية أحوج مايكون إلى هاد خبير يعرف الصراط المستقيم ولا تخفى عليه معالمه ولا بد أن يكون في يده – مع ذلك – سراج منير يتبين به عند كل خطوة أن هنا الهوة،وهنا موضع تزل فيه الأقدام، وهنا الأشواك والأحراش، وهنا تلتقي مع الطريق المستقيم طرق خاطئة معوجة. حتى لا يقتدى به إلا على بصيرة تامة بحيث يرى – بنفسه – في ضوء ذلك السراج المنير معالم الطريق وآثاره ، ويعرف أين تلتقي به الطرق الخاطئة المعوجة فلا يلتفت إليها، فالعلاقة التي هي بين الهادي والسراج في الليل المظلم هي عينها بين الرسول والكتاب. إننا إذا انتزعنا السراج من يد الهادي وبدأنا نسلك الطريق بأنفسنا عـــلى ضوئه. فإنه لا بد أن

تقع في طريقنا كثير من ملتقات الطرق المتشابهة حيث إما أن نقف حيارى مبهوتين ، أو نعرض أنفسنا لسلوك طريق خاطىء مضل على ضوء السراج . لأن مجرد وجود السراج لا يغني الإنسان عن الهادي العارف بالطريق . كذلك ان الهادي إذا لم يكن في يده السراج ، فإننا لا نتبعه ولا نتشبث بذيله إلا كالعميان ، ولا نكون بدون الضوء على بصيرة نميز بها الطريق المستقيم عما يلتقي به من الطرق الخاطئة المعوجة ، ونعرف المواضع التي تعثر أو تزل فيها الأقـــدام .

فكما أننا لسلوك طريق أجنبي في ظلام الليل نحتاج إلى هاد خبير يعرف معالم ذلك الطريق ، ونحتاج مع ذلك إلى سراج نعرف في ضوئه ذلك الطريق على أكمل وجه وأمثله ، ولا نكاد نستغني في هذا الشأن عن الهادي ولا عن السراج ، كذلك نحتاج إلى الرسول وإلى الكتـــاب جميعاً لسلوك طريق الحقيقة الأجنبي لأن ضوء عقلنا وحده لا يكاد يكفي لهدايتنا في هذا الطريق ومن المحـــال أن نسلكه بتركنا أحدهما واتباع الآخر .

الرسول هو ذلك الهـــادي الخبير الذي يعرف صراط الحق المستقيم بما آتاه الله من البصيرة ، وهو في معرفته بمعالم هذا الصراط كالخبير الذي يكون قد سلك طريقاً عينه مئات المرات ، ولذا يعرف أحسن معرفة ماذا في كل شبر منه . وهذه البصيرة هي ذلك «الحكم» و «العلم» و «شرح الصدر» و «التعليم الإلهي» و «الإرشاد الرباني» الذي قد أبدأ القرآن وأعاد في ذكر أن الله قد أعطاه الأنبياء بصفة خاصة . يقول جل جلاله :

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [ابراهيم : ١] .

(وأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مانُزِّلَ إِلَيهم لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُون) [النحل : ٤٤] .

والكتاب هو ذلك السراج المنير الذي لم يكن الرسول باستعانته إياه يرشد المؤمنين برسالته إلى صراط الله المستقيم فحسب، وإنما يزودهم كذلك بنور العلم وضوء الفكر وعرفان الحق الذي قد منّ الله به عليه في مرتبة عليا ويؤهلهم بتعليمه وتزكيته وتربيته حتى لا يهتدوا إلى صراط الله المستقيم بأنفسهم فحسب، بل يصيروا مع ذلك أئمة الإنسانية وقادتها وزعماءها إذا اقتفوا بآثاره وأمسكوا في أيديهم ذلك السراج المنير، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى :

(ياأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ومُبَشِّرًا ونَذِيرًا . ودَاعِياً إلى الله بِإِذْنِه وسِرَاجاً مُنِيرًا) [الأحزاب : ٤٥] .

(إِنَّ هٰذَا القرآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) [الاسراء : ٩] .

ثم ان القرآن قد جاء بأسلوب بليغ رائع ليدل على أن المغايرة التي قد توجد بين الهادي والسراج في العالم المادي الجسدي، لاتوجد أبداً بين الرسول والكتاب في عالم الحقيقة والمعنوية، وإنما هناك رابطة قوية تربط بينهما وتجعل منهما شيئاً واحداً، ولذا فإن الله عز وجل إذا كان قد شبه الرسول بشيء في موضع من كتابه فقد شبّه به القرآن أيضاً في موضع آخر وبالعكس .

فالذي يستفاد من هذا أن العلاقة بين الرسول والكتاب علاقة لا تقبل القطع والفصل أبداً، وان الإنسان إذا أراد لنفسه السعادة والفلاح والهداية ، فإنه محتاج إليهما معاً، وان النظام الفكري والعملي ، أو الحضارة الراشدة المرشدة التي يريد الإسلام إقامتها لا بد لها لقيامها واستحكامها ولخلودها وبقائها على صورتها الصحيحة من أن تكون على اتصال دائم محكم بالرسول والكتاب معاً . وبناء على هذه الحاجة الملحة قد جعل الله سبحانه وتعالى الرسول والكتاب ركنين خالدين من أركان الإيمان في دينه ، ومقصوده بذلك أن يؤكد الدعوة إلى الإيمان بكل واحد منهما ولو لم يكن التأكيد هو مقصوده بذلك لما بين أحدهما مستقلا عن الآخر، لأن التصديق بالرسول هو متضمن للتصديق بالكتاب، والتصديق بالكتاب هو متضمن للتصديق بالرسول .

الإيمان بالكتب السماوية كلها

أما من حيث الإيمان، فإن القرآن يأمر بالإيمان بكل كتاب أنزله الله على أحد من رسله. وكما أنه لا بد للانسان إذا أراد لنفسه الإسلام من أن يؤمن بكل واحد من أنبياء الله و رسله، كذلك لابد له من الإيمان بكل كتاب أنزله الله على أحد من رسله . وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى:

(والَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) [البقرة : ٤] .

(كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ ومَلائكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِه) [البقرة : ٢٨٥]

(قُلْ آمَنَّا باللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيتَا وَمَا أُنْزِلَ على إبْراهِيم وإسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ ويَعقُوبَ والأَسْبَاطِ وما أُوتِيَ مُوسَى وعِيسَى والنَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لا نُفرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون) [آل عمران: ٨٤].

(الَّذِينَ كَذَّبُوا بالكِتَاب وَبِمَا أَرسَلنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوفَ يَعلَمُونَ، إذِ الأَغْلالُ في أَعْنَاقِهِم والسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ في الحَمِيمِ ثُمَّ في النَّارِ يُسْجَرُون) [غافر: ٧٠، ٧٢].

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنا بالْبَيِّنَاتِ وأَنْزَلْنَا مَعَهُم ٱلْكِتَابَ والمِيْزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ) [الحديد: ٢٥].

ومع هذا البيان الإجمالي فقد وردت الصراحة في القرآن بأسماء بعض الكتب السماوية و ورد فيه الأمر بالايمان بها والثناء عليها، ومن هنا قيل للتوراة: النور والهدى والفرقان والضياء والامام والرحمة [القصص: ٤٣، والمائدة: ٤٤، والأنبياء: ٤٨، والأحقاف: ١٢] وقيل للانجيل: النور والهدى والموعظة[المائدة: ٤٦] إذن فمن أصول الإسلام الإيمان صراحة بالكتب المصرح بأسمائها في القرآن، والإيمان إجمالاً بالكتب غير المصرح بأسمائها فيه. وعلى حسب العقيدة الإسلامية مامن أمة في الأرض إلا وقد جاءها من الله رسول بكتاب، فما كل الكتب التي أنزلها الله في مختلف بقاع الأرض وفي مختلف أممها وشعوبها إلا جداول ينبوع واحد وأشعة مشكاة واحدة، وما نزلت كلها إلا بنفس الحق والصدق والهدى والنور الذي

يعرف بالاسلام . فعلى المسلم أن يؤمن بها جميعاً ، إذ ليس التكذيب بواحد منها إلا تكذيباً بها جميعاً ، بل هو – في حقيقة الأمر – تكذيب بمصدرها الأصلي الوحيد .

اتبـــاع القرآن وحـــده

هذا من حيث الإيمان . أما من حيث الاتباع والطاعة فعلاً ، فلا بد من الانقطاع عن سائر هذه الكتب والاتصال بالقرآن وحده . وذلك لوجوه :

١ – إن كثيراً من الكتب السماوية لا توجد اليوم في الدنيا أصلاً ، أما التي توجد منها ، فما منها كتاب محفوظ بألفاظه ومعانيه الأصلية سوى القرآن . فقد اختلط فيها الكلام الإنساني مع الكلام الالهي ، واتحد فيها الهدى مع الضلال والحق مع الباطل لفظاً ومعنى ، مما هو نتيجة لازمة لاتباع الناس أهواء نفوسهم فأصبح من الصعب ، بل من المستحيل أن يميز فيها الحق من الباطل والهدى من الضلال .

ولنا أن نقول مثل هذا حتى بالنسبة للكتب التي عليها مدار مختلف أمم الأرض اليوم في دينها وعقيدتها والتي يظنون أنها من الكتب السماوية . فمنها مايخلو خلواً كلياً عن فكرة كونه منزلاً من الله ، ومنها ما لا يعرف عنه أصلاً أنه إن كان نزل من عند الله فعلى أي نبي وفي أي زمان كان نزل . ومنها ماقد أكل الدهر وشرب على اللغة التي نزل بها حتى أصبحت من خبر كان منذ زمن غير يسير . فمن العسير جداً تحديد معانيه وتفسير مطالبه على وجه

الصحة واليقين، ومنها مافيه اختلاط واضح للأهواء الإنسانية والأفكار الباطلة والأوهام المختلفة مع الكلام الإلهي، ومنها مافيه دعوة سافرة إلى الشرك وعبادة غير الله وما إليهما من العقائد والأعمال الباطلة الأخرى التي لا يجوز بحال أن تتخذ من دون الله. فالظاهر أن مثل هذه الكتب لا ترجع ولا يمكن أن ترجع على الانسان بشيء من العلم الصحيح والنور الحقيقي، ومن المحال إذا اتبعها الإنسان أن يأمن على نفسه الوقوع في الضلال.

٢ ـ كل مايوجد في الدنيا اليوم من الكتب الدينية غير القرآن ـ بقطع النظر عمـا إن كانت من الكتب السماوية أو من الكتـب المظنون بأنها من الكتب السماوية ـ اما هناك أثر بارز للقومية العنصرية الضيقة في تعاليمه وأحكامه أو فيه غلبة واضحة للظروف الراهنة في زمن مخصوص من أزمان التاريخ وقطر معلوم من أقطار المعمورة، لذا فإن كل هذه الكتب ما كانت وسيلة لهداية النوع البشري كله في أي زمن من الأزمان ولا لها أن تكون كذلك في أيامنا الحاضرة.

٣ ـ لاريب أن كل كتاب من هذه الكتب فيه تعاليم يجوز اعتبارها من الحق والخير والصدق. وفيه مبادىء راشدة وقوانين صحيحة لإصلاح أخلاق الإنسان وأعماله وعاداته وخصاله. ولكن ليس منها كتاب واحد يعتبر جامعاً للحسنات والخيرات والفضائل من جملة نواحيها أو فيه بيان شاف للحق كله يستطيع معه أن يتولى إرشاد الإنسان وتوجيهه بأكمل صحة وأوفر طمأنينة في كل شعب الحياة.

أما القرآن ، فهو طاهر منزه من هذه العيوب الثلاثة :

١ ـ لايزال حتى اليوم محفوظاً بعين الكلمات والأحرف التي نزل بها على رسول الله ﷺ ، ومادب دبيب التغير في حرف من أحرفه أو أو حركة من حركاته. قد حفظه عن ظهر قلب في كل زمان آلاف مؤلفة بل مئات الآلاف من الناس وقرأه في كل يوم ملايين بل عشرات الملايين منهم ، ومازالت نسخه تضبط بالكتابة في كل زمان، وما حدث قط بين المؤمنين به اختلاف يسير بشأن أي حرف من أحرفه . إذن لا مجال للريب فى أن القرآن الذي سمعه الناس على لسان رسول الله ﷺ ، هو عينه لا يزال في أيدينا حتى اليوم وسيبقى كذلك إن شـــاء الله مادامت السموات والأرض .

٢ ـ قد نزل باللغة العربية وهي لغة حية يتكلم بها عشرات الملايين من البشر ويفهمها مئات الملايين منهم في هذه المعمورة . وما أفصح الكتب وأمثلها فيها حتى اليوم إلا التي كانت في عهد نزول القرآن ، لذا فان الإنسان لا يلقى في قراءته ولا في فهم معانيه وإدراك مطالبه صعوبة يلقاها في قراءة وفهم الكتب باللغات الميتة التي بليت واندثرت.

٣ ـ إن الخطاب فيه موجه إلى النوع البشري من حيث مجموعه، وما كل ماجاء فيه بيانه من العقائد ومبادىء الأخلاق وقوانين العمل، مختصاً بزمن من الأزمان أو أمة من الأمم أو ناحية من نواحي الأرض، وإنما كل تعليم من تعاليمه عالمي وخالد معاً .

٤ ـ قد جمع فيه كل ماجاء بيانه في الكتب السماوية السابقة من الحقائق والمعارف والفضائل، بحيث من المحال أن يستخرج

من كتاب أي دين من الأديان في العالم شيء هو حق وصدق لا يذكره القرآن ولايحث عليه أتباعه . فمن وجود مثل هذا الكتاب لا بد أن يستغني الإنسان عن كل كتاب سواه

٥ ـ هو آخر مجموعة للأحكام الإلهية والتعاليم السماوية، بمعنى أن قد أخرج منها كل حكم أو كل تعليم كان قد أنزل إلى الإنسانية في كتاب من الكتب السماوية السابقة على مقتضى من ظروف خاصة، وأضيفت إليها كثير من الأحكام والتعاليم الجديدة التي ماجاء ذكرها في أحد هذه الكتب السماوية السابقة . فالذي يتحتم على من لا يريد أن يقلد آباءه وأجداده تقليداً أعمى وإنما يريد أن يتبع الهداية الإلهية . . . أن يتبع هذه المجموعة الأخيرة دون سائر المجموعات السابقة للأحكام الإلهية والتعاليم السماوية .

هذه هي الوجوه والأسباب التي لأجلها يأمر الإسلام أتباعه بالانقطاع عن سائر الكتب السماوية السابقة والتعلق بالقرآن وحده في طاعتهم واتباعهم. ويدعوهم إلى جعله هو الدستور لحياتهم . يقول جل جلاله :

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ) [النساء : ١٠٥] .

(فالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الأعراف : ١٥٧] .

ولأجل هذه الوجوه والأسباب نفسها يدعو الإسلام إلى الإيمان بالقرآن واتباع أحكامه وتعاليمه حتى الأمم التي لديها كتاب سماوي من ذي قبل . وفي ذلك يقول :

(ياأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُم) [النساء : ٤٧] .

(ياأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُم تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم) [المائدة : ١٥ - ١٦] .

(وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلا الْفَاسِقُون) [البقرة : ٩٩] .

الإيمان بالقرآن تفصيلا

إن كتاباً إذا جُعل إماماً عادلاً وهادياً راشداً في الفكر والعقيدة وجُعل كذلك قانوناً واجب الطاعة في جملة شعب الحياة ، من المحال أن يتبعه الإنسان اتباعاً صحيحاً كاملاً مالم يوقن من أعماق قلبه بأنه حق محض لا دخل فيه لنوع من الخطأ والنقص والعيب ، فانه إذا شك في صحته أدنى شك ، زالت الثقة عن نفسه وأصبح من المحال

أن يتبعه بجماع قلبه وطمأنينة خاطره . وبناء على هذه الحاجة فإن الإيمان بالقرآن له مايأتي من الأجزاء اللازمة ، والقرآن قد فصل فيها القول وأعاد وأبدأ في ذكرها والدعوة إليها في غير واحدة من آياتـــــه

١ ــ ان القرآن محفوظ بعين الكلمات والأحرف التي نزل بها بها على الرسول ﷺ . ذلك ماتدل عليه الآيات التالية :

(إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وقُرآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتَّبِعْ قُرآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) [القيامة : ١٧ ــ ١٨] .

(سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى إلاَّ ماشاءَ الله) [الأعلى : ٦ ــ ٧] .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون) [الحجر : ٩] .

(واتْلُ ماأُوحِيَ إِلَيكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِه) [الكَهْف : ٢٧] .

٢ ــ وأن ليس لأية قوة من القوى الشيطانية دخل ما في تنزيله :

(ومَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ ومَا يَنْبَغِي لَهُم وما يَسْتَطِيعُونَ ، إِنَّهُم عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُون) [الشعراء : ٢١٠ ، ٢١٢] .

٣ ــ وأنه لا دَخل فيه و لهوى النبي نفسه :

(ومَــا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إنْ هُــوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم : ٣ ــ ٤]

٤ ـ (وإنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ،لا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَينِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) [فصلت : ٤١ ـ ٤٢] .

٥ ـ وأنَّه كُلَّه حقٌّ ، مانَزَلَ على الظنّ والشّكّ وإنَّما نَزَلَ على ٱلْعِلم وٱلْيَقِين ، وأنَّه لا زَيغَ فيه ولا عِوَج وأنَّما يَهْدِي إلى صراطِ اللهِ ٱلمسْتَقِيمِ (ويَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذي أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ ٱلْحَقُّ ويَهدي إلى صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ الحَمِيدِ) [سبأ : ٦] .

(وإنَّهُ لحَقُّ ٱلْيَقِين) [الحاقة : ٥١] .

(ولَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلى عِلْمٍ وَهُدىً ورحْمَةً لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ) [الأعراف : ٥٢] .

(قُل أَنْزَلَهُ الَّذي يَعْلَمُ السرَّ في السَّموات والأَرْضِ) [الفرقان:٦]

(ذٰلكَ ٱلْكِتَابُ لا رَيْبَ فيه) [البقرة : ٢] .

(ولَم يَجعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً) [الكهف : ١] .

(إنَّ هٰذَا القُرآنَ يَهدِي لِلَّتِي هيَ أَقْوَمُ) [الاسراء : ٩]

٦ ـ وانه ليس لأحد، حتى ولا للنبي ، أن يغير أحكامه وتعاليمه :

(قُلْ مايَكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إنْ أَتَّبِـعُ إلاَّ مَايُوحَىٰ إليَّ إنِّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [يونس : ١٥] .

٧ ـ وان كل شيء إذا كان مخالفاً له، فهو باطل لا يجوز الالتفات إليه:

(إِتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ولا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَولِياءَ) [الأعراف: ٣] .

هذه هي العقيدة الإسلامية بشأن القرآن ، وهذه هي أجزاؤها اللازمة. فكل من ينقصه جزء من هذه الأجزاء، فإنه لا يستطيع بحال أن يتبع القرآن اتباعاً صحيحاً ولا بد أن ينحرف عن الطريق المعروف بـ «الاسلام» .

الحجر الأساسي للجامعة الإسلامية

إن الإيمان بكتاب واحد ورسول واحد وإفراغ العقليات كلها في قالبه فحسب ، وأخذ العقائد والعبادات والأخلاق والأعمال والقوانين المدنية كلها من مصدره فحسب ، وانخراط أتباع الإسلام كلهم في سلكه فحسب . . . كل ذلك يجعل من الإسلام حضارة عالمية خالدة ويجعل من المسلمين كلهم أمة واحدة على رغم كل مابينهم من الامتيازات والفوارق القائمة على أساس اللون أو النسل أو اللغة أو الحدود الجغرافية . إنه من الممكن أن يختلفوا بينهم في استخراج المسائل واستنباط الأحكام من آيات القرآن وأحاديث الرسول وإدراك معانيها وتحديد مقاصدها لسبب اختلافهم في العلم والعقل والتحقيق والاجتهاد ووجهة النظر وميلان الطبع ، ولكن لا يكون هذا الاختلاف بينهم إلا في الفروع والجزئيات

ولا يحوّل مذاهبهم الفقهية أو الكلامية إلى أديان مستقلة ولا يجعل المتمذهبين بها أمما متفرقة . والأمر الحقيقي الذي يقوم عليه بناء الأمة الإسلامية هو تسليم المسلمين كلهم أجمعين بمحمد ﷺ إماماً وحيداً لأنفسهم من حيث هو رسول الله وبالقرآن دستوراً وحيداً لأنفسهم في الحياة من حيث هو كلام الله وجعلهم هذا المتبوع هو المصدر الوحيد لجملة عقائدهم وأعمالهم وقوانينهم . فالذين يتفقون على هذا الأصل، ماهم كلهم أجمعون إلا أمة واحدة مهما كانوا مختلفين بينهم في الفروع والجزئيات، والذين يخالفونه، ماهم كلهم أجمعون في نظر الإسلام إلا أمة واحدة أخرى مهما كانو امتفرقين بينهم إلى عدة قوميات .

والحقيقة أن القرآن جامع لكل مايقوم عليه بناء الإسلام . فمن آمن به ، فكأنه قد آمن بالله وكتبه و رسله وملائكته واليوم الآخر، لأن كل هذه الأمور مذكورة في القرآن بجملة تفاصيلها، وما الثمرة اليقينية لصحة الإيمان بالقرآن واستقامته إلا أن ينال الإنسان الإيمان كله . كذلك ان القرآن قد ذكر فيه كل ماللشريعة الإسلامية من المبادىء والقوانين الأساسية وقد بيّنها وفسر معانيها وأوضح مواضع انطباقها صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام بأقواله وأفعاله . لذا فإن الإنسان إذا جعل القرآن وسنة الرسول ﷺ قانوناً وحيداً وأوجب الطاعة في جملة شعب حياته مع الإيمان الصادق فلا شك أنه مسلم باعتبار العقيدة والعمل . إن هذه المجموعة للايمان والاتباع العملي، هي الإسلام، فحيث وجد الإيمان و وجد معه الاتباع العملي، وجد الإسلام، وحيث لم يوجد الإيمان أو لم يوجد معه الاتباع العملي، لم يوجد الإسلام .

الفصل السابع

الإيمـــان باليوم الآخر

المراد باليوم الآخر: الحياة بعد الموت. وقد سمي كذلك بالحياة الآخرة ودار الآخرة، وقلما تخلو من ذكره صفحة من صفحات القرآن. والقرآن قد أبدأ القول وأعاده لإرساخه في ذهن الإنسان، وأقام الأدلة على صدقه وبين حكمته وأهميته، ودعا إلى الإيمان به، وقال بكل صراحة: إن الإنسان إن كان لا يؤمن به، فقد حبطت أعماله ولا خسارة في الدنيا أعظم من خسارته:

(والَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا ولِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أعْمَالُهُم) [الأعراف: ١٤٧].

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ) [الأنعام: ٣١].

والاعتقاد باليوم الآخر الذي قد عرض بمثل هذه الأهمية البالغة هو في حقيقة أمره جواب عن أسئلة تنشـأ في ذهن الإنسان، وتنبعث من نفسه بسائق فطرته التي قد فطر عليها.

اسئلة فطرية

إن الإنسان يشعر بالحزن أكثر مما يشعر بالفرح وبالألم والنكبة أكثر ممـا يشعر بالراحة والنعمة، وذلك من عين طبيعته. فـإن كل شيء إذا كان أسرع صدمة لأحاسيسه، كان أكثر تحريكاً لقوة

فكره . ألا ترى أننا حين نحصل على شيء، فقلما نتساءل: من أين جاء ؟ وكيف جاء ؟ وإلى متى يبقى عندنا ؟ ولكن حين نفقد شيئاً، فكأن الحزن عليه يصب على مخيلتنا سوطاً قوياً وهناك نجد أنفسنا نتساءل: كيف قد ضاع علينا ؟ وأين قد ذهب ؟ وأين عسى أن يكون الآن ؟ وهـل عسى أن نعثر عليه مرة أخرى ؟ ولأجل هذا فإن السؤال عن مبدأ الحياة لا يهمنا بقدر مايهمنا السؤال عن الموت ومابعده ؟ لا شك أننا حين نرى هذا العالم العظيم ووجودنا فيه قد نتساءل : ماهذا العالم؟ كيف بدأ ؟ ومن ذا قد أحدثه ؟ ولكن ماكل هذه التساؤلات إلا من أحاديث الفراغ ، ولذا فإن عامة الناس قلما يشغلون بها أذهانهم ، وإنما عدد يسير من الخواص ذوي الفكر العميق هم الذين يشغلون بها أذهانهم. وعلى العكس من ذلك فإن كل إنسان في الدنيا لابد أن يواجه الموت ومرارته . . .لابد أن تعرض له في حياته غير حادثة واحدة يرى فيها أقاربه وأحبابه يفارقون الحياة بأم عينيه . . . يموت الفقير والغني والضعيف والقوي . . . ومن حوادث الموت مايترك في الأذهان والقلوب المآسي والأحزان والعبر، وأخيراً يستيقن كل حيّ بأنه هو الآخر لا بد أن يمضي على السبيل الذي قد مضى عليه غيره . ولعل الدنيا ليس فيها فرد واحد يشاهد هذه الحوادث والمناظر، ثم لا يقلقه السؤال عن الموت ولا يتساءل : ماهذا الموت ؟ وأين يفضي الإنسان بعد اجتياز بابه ؟ وماذا وراء هذا الباب ؟ بل هل وراءه شيء أم لا ؟

أما هذا السؤال فهو عام قد تفكر فيه العوام والخواص جميعاً، من الفلاحين العاديين إلى الفلاسفة والحكماء النطاسيين الكبار ، ولكن

هناك في هذا الصدد أسئلة أخرى تخالج نفس كل ذي فكر تقريباً ويزيد من شدتها مايعرض له في حياته من حوادث مقلقة كثيرة . إن هذه الحياة القصيرة التي ينالها كل فرد منا في هذه الدنيا ، لاتنقضي كل لحظة من لحظاتها إلا في جهد من الجهود أو حركة من الحركات حتى إن الذي نسميه السكون والركود، ماهو في حقيقة أمره إلا حركة ، والذي نسميه البطالة والفراغ ، ماهو في حقيقة أمره إلا عمل وشغل، ولا بد أن يكون لكل فعل من هذه الأفعال مفعول ، ولكل حركة من هذه الحركات تجاوب ، ولكل جهد من هذه الجهود ثمرة وعاقبة . من اللازم أن تكون ثمرة كل حسنة حسنة وثمرة كل سيئة سيئة، ولا بد أن تظهر نتيجة كل سعي طيب بصورة طيبة، ونتيجة كل سعي خبيث بصورة خبيثة . ولكن هل أننا في هذه الحياة ننال ثمرة كل جهد من جهودنا ونتيجة كل فعل من أفعالنا ؟ إن رجلاً فاسقاً مازال طول حياته يرتكب المنكرات والفواحش، فنال جزاء بعضها في هذه الحياة الدنيا نفسها بصورة مرض أو ألم أو مصيبة أو نكبة. ولكن على ذلك بقيت منكرات كثيرة أخرى مانال جزاءها في حياته الدنيا هذه على أكمل وجه وأوفاه ، فكانت منها ــ مثلاً ــ منكرات اقترفها مستتراً فلم يعلم بها الناس وما زالوا يرون فيه رجلاً صالحاً على غير حقيقته، وإن علموا بها فإن المسكين الذي ظلمه مالقي في هذه الحياة مايتلافى به خسارته على كل حال . والأمر إذا كان هكذا، فهل يبقى ظلم هذا الظالم وصبر المظلومين دون مانتيجة ؟ أو لا تظهر لظلمه ولا لصبرهم عاقبة أبداً ؟ وقل مثل هذا بالنسبة للمعروفات والحسنات .

فكم من رجال صالحين مازالوا يعملون الصالحات طول حياتهم ولكـــن دون أن ينالوا جزاءها في حياتهم الدنيا هذه عـــلى أكمل وجه وأوفاه، فاشتهروا بالسوء على بعضها أصلاً ، فهل قد ذهبت كل أعمالهم الصالحة هذه هباء منثوراً ؟ وهل يكفي لهم جزاء على كل جهودهم المضنية المتتابعة أن قد نالوا ارتياحاً نفسياً وطمأنينة قلبية ؟

أما هذا السؤال فإنما يتعلق بالأفراد والأشخاص . ولكن هناك بعد هذا السؤال سؤال آخر يتعلق بمصير هذا العالم وعاقبة كل مافيه من الأنواع والأجناس والعناصر . وبيانه أن هذا العالم يموت فيه أناس ثم يولد مكانهم أناس آخرون ، وتفنى فيه أشجار وأنعام ثم تنبت أو تولد مكانها أشجار وأنعام أخرى . فهل أن سلسلة الموت والحياة هذه تبقى جارية مطردة هكذا دونما نهاية ؟ وهل أن هذا الهواء وهذا الماء وهذا النور وهذا الحر وهذه القوى الطبيعية التي يجري بها هذا المعمل الكوني العظيم على أسلوب مضبوط . . . هل هي كلها خالدة لا يعتريها الزوال والفناء أبداً ؟ أليس لها أجـــل محدود ؟ أليس لنظامها وترتيبها أن يعرف نوعاً من التغير والتبدل ؟

إن الإسلام قد عالج كل هذه الأسئلة ، وما عقيدة الحياة الآخرة في حقيقة الأمر إلا جواب عن هذه الأسئلة . ولكن مما يحسن بنا قبل أن نتكلم عن هذا العلاج وصدقه ونتائجه المعنوية والمدنية . . . أن ننظر : أين من النجاح والتوفيق ماقد بذل الإنسان نفسه من الجهود والمساعي لعلاج هذه الأسئلة ؟

إنكار الآخرة

تقول طائفة من الناس: إن الحياة إنما هي هذه الحياة التي نحياها، وأن ليس معنى الموت إلا الفناء والزوال والانتهاء والانعدام لا حياة بعده ولا شعور ولا ثمرات ولا نتائج :

(إنَّ هؤلاء لَيَقُولُونَ إنْ هِيَ إلا مَوْتَتُنا الأُولى ومَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ) [الدخان : ٣٥] .

(وقَالُوا مَاهِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ ونَحْيَا ومَا يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْرُ) [الجاثية : ٣٤] .

وأما معمل الكون الذي نعيش فيه ، فيقولون : إنه خالد أبدي لازوال له ولا فناء ، وانه من القوة والمتانه والاستحكام بحيث لا يتسرب إليه الضعف والبلى أبد الآباد .

والذين يقولون بهذا، لا يقولون به لأنهم قد عرفوا على وجه اليقين والتثبت بوسيلة من وسائل العلم أن لاشيء بعد الموت وأن معمل الكون لا زوال له ولا فناء في واقع الأمر، وإنما قد اعتمدوا في ذلك على حواسهم، وما أقاموا هذا الرأي إلا لمجرد أنهم ماشعروا بكيفية ما بعد الموت وما شاهدوا بأم أعينهم أثراً من آثار اختلال نظام العالم، ولكن هل ان مجرد عدم شعورنا بشيء برهان كاف على عدم وجوده في واقع الأمر ؟ وهل أن شعورنا بالأشياء هووجودها وأن عدم شعورنا بها هو عدم وجودها ؟ والأمر لو كان كذلك لكان من حقي أن أقول : إن الشيء الفلاني الذي ألمسه بيدي أو أنظر إليـــه بعيني ، لا يبرز إلى حيز الوجود إلا عنـــدما ألمسه بيدي أو أنظـــر إليه بعيني ، وإنـــه عندما يتوارى عن عيني

ويغيب عن شعوري ، يفـــنى وينعدم، ولكان من حقـــي أن أقول: إن النهر الذي كنت رأيته يجري ، ماكان خرج إلى عالم الوجود إلا حين رأيته يجري، ودخل عالم الفناء والعدم لما توارى عن نظري، ولكن هل لرجل عاقل أن يعترف بصحة قولي هذا ؟ والجواب على هذا إن كان بالنفي – وهو بالنفي ولا شك – فما لرجل عاقل أن يصدق الرأي القائل: بأن لا شيء بعد الموت أصلاً لأنه ماجاء تحت مشاهدته وتجربته .

ثم انه كما لا يصح الحكم بشيء على الموت والفناء لمجرد الاعتماد على الحس والمشاهدة، كذلك لا عبرة بالأمور التي يحكم بها على الحياة والبقاء لمجرد الاعتماد على الحس والمشاهدة، وانه إذا صح الحكم بالبقاء والدوام والخلود على معمل الكون لمجرد أن الإنسان مارآه يفنى وينقرض بعينه، فان لي إذا رأيت بناء مشيداً أن أقول: إنه لا يبلى ولا يفنى إلى أبد الآباد ، لأني مارأيته بأم عيني ينهدم ولا رأيت فيه أثراً للضعف ينبىء بزواله في المستقبل . ولكن هل يكون هذا الاستدلال مني جديراً بالقبول والتسليم لدى أرباب العقل؟

تأثير إنكار الآخرة في الأخلاق

مما يكاد يجمع عليه رأي الحكماء والفلاسفة أن نظام العالم لا بد له من الاختلال والانتهاء يوماً من الأيام ، ولعله ليس في جماعة أهل العلم اليوم من لا يزال يقول بالنظرية القديمة القائلة بأزلية العالم وأبديته، غير أن فيهم عدداً لا يستهان به يقولون: إن الموت إنما هو فناء محض لا حياة بعده بأي شكل من الأشكال، ولاتقوم عقيدتهم هذه إلا على أساس الأمر غير المعقول، الذي ذكرناه

آنفاً، ومن الحقيقة بشأن هذه العقيدة - ولو قطعنا النظر عن عدم معقوليتها - أنها لا ترجع ولا تستطيع أن ترجع على الإنسان بشيء من الثقة والطمأنينة النفسية، وليس فيها مايجيب بشيء على كثير من الأسئلة التي تخالج نفس الإنسان عندما يتفكر في شؤون الحياة ومتعلقاتها. وفوق هذا فإن الإنسان إذا كانت أخلاقه وأعماله قائمة على هذه العقيدة، فإنها لاتخلو من إحدى حالتين: إذا كانت ظروفه غير ملائمة له، فلا بد أن تصيبه هذه العقيدة بنوع من اليأس والقنوط والتقاعس وخور العزيمة، لأنه عندما لا يرى في حياته نتيجة لما يؤدي فيها من أعمال البر والصلاح والخير. تبرد فيه قوة العمل والجد والنشاط وهو عندما لا يجد في هذه الحياة من ينصفه من ظالم، ينكسر قلبه، وهو عندما يرى الظالمين الفاسقين في هذه الدنيا يترفلون في النعيم ويستمتعون بلذات الحياة ومباهجها ويحرزون فيها الرقي والتقدم، ويجمعون فيها أسباب البذخ والترف والقوة والبطش. حسب أن الشر له الحكم النافذ والكلمة المسموعة في عالم الحياة وأن ليس فيه الخير إلا ليكون ذلولاً مغلوباً على أمره. وعلى العكس من هذا فإن ظروفه إذا كانت ملائمة له جارية على هواه، فإنه لا بد أن ينقلب إلى حيوان منهم يعبد هواه لتأثير هذه العقيدة فيه، وانه اذا بقي محروماً من لذة من لذات الدنيا ونعمة من نعمها، فلا حياة له بعد هذه الحياة ليتداركها فيها. إذن لابد أن يظلم الناس ويهضم حقوقهم ويسفك دماءهم وينهش أعراضهم، ويقطع أرحامهم، ويسعى في الأرض فساداً. ولايتحرج في التسلح بأشنع وأبشع مايكون من الحيل لتحقيق أهواء نفسه. وان

أكبر بر وأعظم صلاح يمكن أن يتصوره هو مايرجع عليه إظهاره بحسن القالة والسمعة والعز والكرامة أو فائدة أخرى من الفوائد الدنيوية . كذلك لا يرى الجرائم والذنوب إلا في أعمال يخشى أن ترجع عليه، بعقوبة دنيوية، أو مضرة جسدية ، أو خسارةمادية. أما الحسنات والخيرات والصالحات التي ترجع عليه بنوع من المنفعة في هذه الدنيا، فلا تكون في نظره إلا سفاهة وحماقة، وأما السيئات والمستقبحات التي لا ترجع عليه بنوع من الخسارة في هذه الدنيا ، فلا تكون في نظره إلا عين الحق والصواب .

ولعمر الحق ان مجتمعاً في الدنيا إذا كان كل نظامه للأخلاق لا يقوم إلا على هذه العقيدة وهذه العقلية، فلا بد أن تنقلب كل تصوراته المعنوية وقيمه المعنوية ظهراً لبطن . . . لا يقوم كل نظامه للأخلاق والأعمال إلاعلى الأثرة والأنانية وحب الذات ،ولا يكون البر والصلاح والخيرفي نظره إلا عبارة عن المتعة المادية ،والفائدة الدنيوية ،ولا يكون الإثم والذنب والشر في نظره إلا عبارة عن الخسارة المادية والمضرة الدنيوية، ولا يكون الكذب والمكر والخداع إثماً في نظره إلا إذا كان يسبب له نوعاً من الخسارة في ماله أو جسده ، وينقلب إلى عين الحق والصواب إذا ماأصبح يسبب له نوعاً من المنفعة في ماله أو جسده، والصدق والإخلاص إذا كان يجلب إليه منفعة يكون في نظره حسنة من الحسنات ومكرمة من المكارم، وإذا كان يجلب إليه خسارة، يكون أكبر سيئة وأعظم ذنب، والزنا يكون وسيلة لتحقيق لذة النفس ومتعتها ،ولا تحدث فيه ناحية للإثم والفساد عنده إلا حينما تحدث فيه ناحية للمضرة بصحته .

وجملة القول أن الإنسان مادام لا يخاف أولا يرجو نتيجة سيئة أوحسنة وراء هذه الحياة الدنيا، فإنه لا يطمح ببصره وراء أعماله إلا إلى النتائج العاجلة الظاهرة في هذه الدنيا نفسها. وبذلك لا بد أن تتغير قيم الأعمال المعنوية على وجه ليس له بحال أن يكون ملائماً لمجتمع إنساني مهذب، بل الأصح أن أية طائفة إنسانية إذا تبنت لأخلاقها مثل هذا المستوى الدنيء، فإنها لن تنقذ نفسها من التدهور إلى درجة أحط من درجة البهائم والوحوش الضارية في الغابة.

ولقائل أن يقول في هذا المقام: إن الدنيا ليست فيها للجزاء أو العقاب الخسائر والمنافع المادية والجسدية فحسب، بل هناك في داخل الإنسان قوة تعرف بالضمير يكون تأنيبها وعدم ارتياحها عقوبة كافية للانسان على اقتراف الذنوب والآثام، ويكون ارتياحها جزاء كافياً للانسان على أدائه الحسنات والخيرات والصالحات . . . إذا قيل هذا: قلت جواباً عنه: إن هناك من الذنوب والآثام ما ان فوائده الدنيوية ولذائذه المادية تجعل الإنسان لا يبالي بتأنيب الضمير، وهناك من الحسنات والصالحات ما لا بد للإنسان إذا أراد أداءه أن يقوم بتضحيات جسيمة لا يكاد مجرد ارتياح الضمير أن يكون جزاء كافياً عليها. ثم إننا إذا فكرنا في حقيقة الضمير نفسه، علمنا أن ليست وظيفته أن يخلق التصورات الخلقية، وانما وظيفته أن يؤيد ما يرسخ في ذهن الانسان من التصورات الخلقية بنوع خاص من التربية والتعليم، لأجل هذا فإن ضمير الكافر لا يؤنبه على كثير من الأعمال التي يؤنب عليها ضمير المسلم إياه. إذن فإن مجتمعاً إنسانياً إذا تبدلت تصوراته المعنوية، وانعكست

مقاييسه للخير والشر ، فإنه لا بد أن تتغير مع ذلك وجهة الضمير نفسه ، فهو إذن لا يؤنب الأفراد أبداً على أعمال قد تخلى المجتمع عن الاعتقاد بفسادها ، ولا يشعر بشيء من الارتياح والطمأنينة إذا مااقترفوا أعمالاً لا يعتقد المجتمع بصلاحها .

عقيـــدة تنـــاسخ الأرواح

وطائفة أخرى تقدمت إلى الإنسانية بعقيدة أخرى بشأن ما بعد الموت ، هي عقيدة تناسخ الأرواح ، وخلاصتها أن الموت ليس معناه الفناء المحض ، وإنما معناه استبدال الروح جسداً بجسد . يقولون : إن الروح بعدما تفارق جسداً في هذه الدنيا ، تنتقل إلى جسد آخر في هذه الدنيـــا نفسها ، ولا يكون هذا الجسد الثاني ، أو القالب الثاني بكلمة أصح ، إلا متفقاً مع الحياة التي قد أعدها الإنسان لنفسه بأعماله وأفكاره وميوله وعواطفه في حياته الأولى ، فإن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه سيئة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات سيئة ، فإن روحه ستنتقل إلى طبقة مبتذلة من طبقات الحيوانات أو النباتات ، وأما إن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه صالحة ، ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات صالحة ، فإن روحه سترتقي إلى طبقة من الطبقات العليا . وجملة القول أن ليس الجزاء ولا العقاب بموجب هذه العقيدة إلا في هذه الدنيا وفي عالم الأجساد هذا ، كأن الأرواح إنما تأتي إلى هذه الدنيا مرة بعد مرة بقوالب متغيرة لتنال الجزاء أو العقاب على أعمالها السابقة .

لقد مر على الإنسانية حين من الدهر كانت فيه هذه العقيدة قد لاقت رواجاً وقبولاً عظيماً عاماً بين أهل الأرض. كان يقول بها فيثاغورس وأنبذُقْلَس وغيرهما من فلاسفة اليونان قبل المسيح بقرون، وكانت لها كلمة مسموعة في الرومان قبل المسيحية، ولها آثار توجد في تاريخ مصر القديمة، وقد خلت حتى في اليهود لعوامل خارجية. ولكنها في أيامنا الحاضرة لا توجد إلا في ديانات هندية الأصل كالبرهمية والبوذية والجينية، أو في أمم همجية أو بعض همجية تقطن في غرب افريقيا وجنوبها ومدغاسكر واسترّاليا الوسطى وأندونيسيا وأوشيانيا وشمال أمريكا وجنوبها، وقد نبذتها وخرجت عليها سائر الأمم المتحضرة في العالم، لأن المعلومات التي قد أحرزها الإنسان عن الدنيا وحياتها لتقدم العلم والعقل، تأبى أن تؤيد نظرية من النظريات التي تقوم على أساسها عقيدة تناسخ الأرواح. حتى اننا إذا مانظرنا في تاريخ هذه العقيدة في الديانات الهندية الأصل، علمنا بدون ما ريب أن لم يكن لها أي وجود في الهند الويديكية القديمة، وأن الذي كان يعتقده الآريون في ذلك الزمان هو أن الإنسان بعد مايفارق الحياة الدنيا يعود إلى حياة أخرى هي راحة ونعمة للذين قد عملوا الصالحات في حياتهم الدنيا، وعذاب أليم للذين قد عملوا فيها السيئات. ثم إن هذه العقيدة دخل عليها التغير دفعة واحدة، ومن ذلك أننا نجد من بين كتب الهند في طورها الثاني كتباً توجد فيها عقيدة تناسخ الأرواح بصورة مذهب فلسفي. وإلى الآن ما تم التحقيق حول منشأ هذا التغير. يقول البعض: إن هذه العقيدة إنما دخلت في ديانة الآريين عن طريق

دراور، أي أمم الهند القديمة، ويقول البعض الآخر: إن كان لها وجود في الطبقات السفلى من الآريين أنفسهم ومنها أخذها الفلاسفة البراهمة فيما بعد، وأقاموا عليها بناء كاملاً للأوهام والظنون والقياسات. وعلى غرار هذا فقد كانت ديانة بوذا في أطوارها الأولى خالية خلواً تاماً من فكرة ونظام تناسخ الأرواح، كما هما يوجدان الآن في كتب الديانة البوذية. والذي نعلمه بدراسة الكتب القديمة الأصلية لهذه الديانة، أن عقيدتها في أطوارها الأولى تقوم على ان الوجود إنما هو نهر يجري متدفقاً بالتغير والانقلاب بصفة غير منقطعة. وهذه العقيدة نفسها ظهرت فيما بعد بصورة عقيدة قائلة: بأن ليس في العالم كله إلا روح واحدة هي التي تتشكل دائماً بالأشكال المختلفة، وتغير لنفسها القوالب تلو القوالب. ويفيد هذا أن العلم الذي كان حصل لأمم الهند القديمة من مصدر الوحي والإلهام في بدء أمرها، بدلته هذه الأمم وأدخلت عليه الأوهام والظنون من تلقاء نفسها واخترعت -هكذا- من دونه ديانة فلسفية لم تكن إلا ثمرة لأوهامها الباطلة وظنونها الكاذبة.

عقيدة تناسخ الأرواح في ميزان النقد العقلي

إنه لا مجال هنا لإطالة البحث في عقيدة تناسخ الأرواح، ولكن مما يكفي الإشارة إليه لبيان نظامها أن النظريات والتصورات التي يقوم عليها بناؤها، كلها تصادم العقل في صميمه، وتنافي، بكل معنى الكلمة، العلوم التي قد نالها الإنسان حتى الآن بالنظر في الدنيا وحياتها.

انه لما يعتقده القائلون بتناسخ الأرواح أن الإنسان إنما ينال جزاء أعماله في هذه الدنيا نفسها وذلك بصورة أنه يرتقي إلى

الطبقات العليا بفضل أعماله الصالحة، ويتردى إلى الطبقات السفلى من جراء أعماله السيئة، فهو – مثلاً – إذا كان قد عمل السيئات في حياته، يتردى إلى الطبقات الحيوانية أو النباتية، والحيوان أو النبات إذا كان قد عمل الصالحات في حياته، يرتقي إلى الطبقات الإنسانية. ومعنى هذا أن ليست الحياة الحيوانية والنباتية إلا نتيجة لسوء أعمال الحياة الإنسانية، وان ليست الحياة الإنسانية إلا نتيجة لصلاح أعمال الحياة الحيوانية أو النباتية، أو – بكلمة أخرى – ان أفراد النوع البشري الذين يوجدون الآن على وجه الأرض، إنما هم أفراد النوع البشري، لأنهم قد عملوا الصالحات في حياتهم الحيوانية أو النباتية، وان أفراد النوع الحيواني أو النباتي الذين يوجدون الآن على وجه الأرض، إنما هم أفراد النوع الحيواني أو النباتي لأنهم قد عملوا السيئات في حياتهم الإنسانية.

وللإيمان بهذه العقيدة لابد من الإيمان بعدة أمور أخرى كلها متنافية مع العلم والعقل، فمثلاً:

١ – ان دورة التناسخ هذه كحلقة مفرغة لا يعرف مبدؤها من منتهاها، لأنه من اللازم لكون الإنسان إنساناً بحكمها أن يكون في حياته السابقة حيواناً أو نباتاً، ولا بد لكون الحيوان حيواناً ولكون النبات نباتاً أن يكون في حياته السابقة إنساناً، وهذه سلسلة واهية يأبى العقل أن يسلم بصحتها.

٢ – إن دورة التناسخ إن كانت أزلية أبدية، فلا بد من الاعتراف بأن لا تكون الأرواح التي تنتقل في أجساد بعد أجساد وتستبدل القوالب مرة بعد مرة فحسب، بل تكون كذلك المواد التي

تهيأ لها القوالب في كل مرة أزلية وأبدية ، وأن يكون كل شيء من الأرض والنظام الشمسي والقوى العاملة في هذا النظام أزلياً وأبدياً. ولكن الذي يدعيه العقل وتشهد بصحته التحقيقات العلمية، أن ليس نظامنا الشمسي أزلياً ولا أبدياً .

٣ — من اللازم الاعتراف بأن كل الخصائص التي توجد في النباتات والحيوانات وأفراد النوع البشري هي خواص أجسادهم ، وما هي بخواص نفوسهم . لأن النفس التي كانت مالكة لقوى العقل والفكر في قالب الإنسان أصبحت لا تعقل لما انتقلت إلى قالب الحيوان ، وسلبت المسكينة حتى قوة الحركة الإرادية لما انتقلت الى قالب النبات .

٤ — إن كلمة الصلاح أو السوء إنما تطلق في حقيقة الأمر على أعمال تعمل بالقصد والفكر، فمن الممكن على هذا الاعتبار أن تكون أعمال الإنسان صالحة أو سيئة، ومن الممكن أن يترتب عليها الجزاء أو العقاب، ولكن لا يجوز أن تطلق كلمة الصلاح أو السوء على أعمال الحيوان أو النبات ولا مبرر البتة لأن يترتب عليها الجزاء أو العقاب . أما بموجب الاعتقاد بتناسخ الأرواح، فلا بد من الاعتقاد بأن الحيوانات والنباتات أيضاً قادرة على العمل بقصدها وفكرها .

٥ — إن الحياة بعد كل حياة إذا لم تكن إلا نتيجة لأعمالنا في الحياة الجارية، فإن ذلك يستلزم أن لا تكون نتيجة أعمالنا السيئة إلا سيئة، وما دمنا قد نلنا هذه النتيجة السيئة في حياتنا الأولى ، فكيف أصبح من الممكن أن تصدر أعمال صالحة عن هذه النتيجة

السيئة ؟ من اللازم أن لا يصدر عنها إلا أعمال سيئة وأن لا تكون نتيجتها في الحياة الثالثة أسوأ منها في الحياة الثانية . وهكذا لابد أن تردى روح إنسان فاسق في دورة التناسخ من طبقة سافلة إلى طبقة أسفل منها ومن المحال أن يصبح الحيوان أو النبات إنساناً . فلنا أن نتساءل هنا : أن الذين هم أفراد النوع البشري الآن، نتيجة لأية أعمال صالحة قد أصبحوا من أفراد النوع البشري ؟ ومن أية طبقة قد برزوا إلى حيز الوجود ؟

تأثير عقيدة تناسخ الأرواح في الحياة المدنية

وهناك إلى هذه الأسباب أسباب كثيرة أخرى من المحال بناء عليها أن يقبل العقل السليم عقيدة تناسخ الأرواح ويقول بصحتها . لأجل هذا فإن الإنسان على قدر مانال من التقدم والرقي في ميدان العقل والعلم، صارت تبطل في نظره عقيدة تناسخ الأرواح، إلا أنها مابقيت الآن – كما قلت – إلا في أمم همجية أو متخلفة جداً في ميدان الرقي العلمي والعقلي . ومن الحقيقة – مع هذا – أن هذه العقيدة مثبطة للهمم، ومميتة لروح التقدم، ومنها قد نشأت عقيدة «اهنسا»[1] التي هي مدمرة بكل معنى الكلمة لحياة الإنسان الفردية أو الجماعية، بحيث أن أمة إذا أصبحت قائلة بها، انعدمت فيها روح الإقدام والجرأة والشجاعة والجندية واضمحلت فيها القوى الجسدية وأصبحت محرومة من كل مايغذي فيها القوى

(١) عقيدة برهمية بيانها ان إيذاء أي جسد ذي روح إثم وسيئة .

الجندية . وبذلك لا يضعف أفرادها باعتبار القوى الجسدية فحسب، بل يضعفون كذلك باعتبار القوى الفكرية والذهنية، ويكون من نتيجة هذا الضعف المضاعف أن تضرب عليها الذلة والمسكنة ولا تحيا في الدنيا إلا مغلوبة على أمرها، وأخيراً إما أن تنقرض عن صفحة الوجود، أو تنضم إلى أمم غالبة قوية أخرى .

والمضرة الأخرى لعقيدة تناسخ الأرواح أنها تعادي المدنية والحضارة وتجر الإنسان جراً إلى الرهبانية وترك الدنيا . إنه لما يعتقده القائلون بهذه العقيدة أن الشهوة هي أصل كل فساد في الأرض، وهي التي تلوث الروح بالذنوب والآثام ، ولأجلها تنتقل الروح من قالب إلى قالب ، وتذوق وبال أعمالها مرة بعد مرة، فالإنسان إذا أودى بها، وقضى عليها، ولم يشغل نفسه بمشاغل الدنيا وشواغبها، فلروحه أن تنال الخلاص من دورة التناسخ، ويقولون: ليست هناك سبيل أخرى للخلاص من دورة التناسخ غير هذه، لأنه من المحال إذا انشغل الإنسان بمشاغل الدنيا وشواغبها وشؤونها الخلابة أن يأمن على نفسه الافتتان بالدنيا والاسترسال وراء شهواتها وملاهيها، والنتيجة اللازمة لذلك – يقولون – أن من أراد لنفسه الخلاص من دورة التناسخ فعليه أن ينعزل عن الدنيا ولا يسكن إلا في الغابات ورؤوس الجبال وكهوفها ، وان من لم يفعل ذلك فعليه أن ييأس من الخلاص من دورة التناسخ ويستعد للانضمام إلى طبقات الحيوانات والنباتات . . فهل لهذه الفكرة أن تكون مساعدة للانسان على ترقية المدنية والحضارة بحال ؟ وهل لأمة أن تنال الرقي والتقدم في الدنيا إذا آمنت بهذه العقيدة ؟

لاشك أن عقيدة تناسخ الأرواح ببعض وجوهها خير من الاعتقاد بأن الموت إنما هو فناء محض، لأن الإنسان توجد فيه بحكم الفطرة رغبة في البقاء إلى الأبد ، فعسى أن تبرد فيه هذه الرغبة بعقيدة تناسخ الأرواح إلى حد ما، ومع هذا فإن هذه العقيدة توجد فيها فكرة الجزاء والعقاب والنتائج المرضية وغير المرضية للأعمال ، فعسى أن تكون هذه العقيدة على أساس هذه الفكرة سنداً يستند إليه قانون خلقي صالح قوي . . . ولكن من الحقيقة التي لا مجال فيها للريب والمكابرة — كما قلنا مراراً من قبل — أن عقيدة ما إذا كانت متنافية مع العلم والعقل وكانت عقبة في سبيل تقدم المدنية والحضارة، فليس لها مجال أن تستولي على ذهن الإنسان وتتملك عليه عقله وعاطفته بحيث تظل قائمة بقوة سواسية في كل مرتبة من مراتب الارتقاء العلمي والعقلي، وفي كل مرحلة من مراحل تقدم المدنية والحضارة . والأمر إذا كان كذلك، فإن بقاء هذه العقيدة كنظرية فلسفية محضة في بطون الكتب لا يكاد يرجع بجدوى على نظام الأخلاق في ثباته واستحكامه وخلوده ، لأنها لا ترجع عليه بجدوى إلا في ماإذا خرجت من الكتب واستولت على القلوب والأذهان واعتقد بها الناس اعتقاداً جازماً قوياً . ومع هذا فإن هذه العقيدة تفقد قيمتها الخلقية من حيث نتيجتها النهائية، لأن الإنسان إذا كان على يقين من أن دورة التناسخ إنما تدور كما يدور الدولاب في الآلة، وأنه لابد أن تظهر النتيجة المقررة فيها لكل فعل من أفعاله وليس له مجال أن يغير تأثير هذا الفعل ونتيجته بتوبة ولا استغفار ولا كفارة ولا بأي شيء آخر . . . إذا كان الإنسان على

يقين من هذا ، فإنه إذا اقترف الإثم مرة يقع في سلسلة الذنوب والمعاصي إلى آخر أيام حياته، ويرسخ في ذهنه أنه مالم يكن باستطاعته أن ينقذ نفسه ولو بأية حيلة من الحيل من الانقلاب إلى حيوان أو نبات، فما له أن يكبح جماح نفسه ولا يستنفد كل مايملك من المجهود لاشباعها بلذات حياته الإنسانية ومباهجها ؟

عقيـــدة الحياة الآخرة

إنك حتى الآن قد عرفت مايرى في عاقبة الدنيا والإنسان ونهاية أمرهما دينان من أديان العالم، وقد عرفت كذلك أن هذين الدينين لا يصحان عقلاً ولا يردان بشيء مقنع على ماينشأ في ذهن الإنسان من الأسئلة الفطرية عندما يرى في هذه الدنيا آثار الاختلال والزوال والفناء والتهدم، ولا يصلحان ليكونا سنداً يستند إليه نظام للأخلاق صحيح قوي . وتعال لنعرضك الآن على مايرى في هذا الشأن دين ثالث :

يقول هذا الدين :

١ ــ كما أن لكل شيء في الدنيا أجلاً ينتهي إليه لا محالة بصفته الفردية ، وكما أنه مع انتهائه إليه تظهر فيه آثار الفناء والزوال والاختلال، كذلك أن لنظام العالم الذي نعيش فيه أجلاً لا بد له أن ينتهي إليه، ولا بد مع انتهائه إليه أن يعتريه الفناء والزوال والاختلال ويحل محله نظام آخر تكون قوانينه الطبيعية مختلفة عن قوانينه الطبيعيـــة .

٢ ـ وأن الله سبحانه وتعالى بعد اختلال هذا النظام سيقيم محكمته التي سيحاسب فيها عباده حساباً دقيقاً، وأن الإنسان يومئذ سينال حياة جسدية جديدة ويتمثل بين يدي ربه، وهناك يوزن ويفحص بكل دقة ماقد كسب من الأعمال في حياته الأولى ويجزى عليها جزاء أوفى إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

٣ ـ وأن ليست حياة الإنسان الدنيوية هذه إلا مقدمة لحياته الآخرة، فهي حياة طارئة موقتة وتلك حياة خالدة سرمدية، وهذه ناقصة وتلك كاملة، وان الأعمال لا تترتب كل نتائجها في هذه الحياة الموقتة وستترتب على أكمل وجوهها في الحياة الآخرة، فعلى الإنسان أن لا يطمح ببصره إلى مجرد النتائج العاجلة الناقصة، بل الخادعة في معظم الأحيان، التي تترتب على أعماله في هذه الحياة الدنيا، وإنما عليه أن يحدد القيم لأعماله على اعتبار هذه السلسلة الكاملة لنتائج الأعمال وثمراتها .

والدين الذي يقول بهذا، هو الدين الذي قد عرضه الأنبياء عليهم السلام ويدعو إليه القرآن ويقيم الدلائل على صحته وحقانيته . وقبل أن نتكلم على نتائج هذا الدين في الأخلاق ومرتبته وأهميته في الحضارة الإسلامية، يجمل بنا أن نرى: ماهي دلائله وبراهينه ؟ وإلى أي حد يقبلها العقل ؟

الطريق الصحيح للتحقيق العقلي

هل للإنسان من حياة بعد موته ؟ . . . سؤال إنما يتعلق بما وراء حدود حواسنا وتجاربنا الحسية، وكل مانشاهده ونحسه هو أن

إنساناً بينما كان يتنفس ويتحرك بإرادته إلى ماقبل لحظات، إذا به قد حرم كل أثر من آثار الحياة وقد غاب عن جسده شيء هو الذي كان قد هيأ لهذه المادة الصماء غير النامية وغير المتحركة قوة النمو والحركة . أما أين قد ذهب ذلك الشيء ؟ وهل انه لا يزال موجوداً أم قد انعدم بعد انفصاله من الجسد ؟ وهل سيرتبط بهذا الجسد أو بجسد آخر مثله مرة أخرى أم لا ؟ . . . لا نستطيع الجواب على هذا السؤال بالنفي ولا بالاثبات معتمدين على حواسنا أو علومنا التجريبية، لأن ذلك الشيء بالذات ماكنا أحسسناه من قبل ولا نحسه الآن، فمما يجب أن نكون على ذكر منه منذ بداية البحث أن هذا السؤال لا علاقة له أصلاً بالعلوم التجريبية، لأن هذه العلوم إن كانت لا تستطيع أن تجيب عليه بالاثبات، فإنها لا تستطيع كذلك أن تجيب عليه بالنفي سواء بسواء، وغاية مالها أن تقول هو أنها لا تعرف ماذا يكون بعد الموت، ولكنها إذا جاءت عن طريق اللاأدرية الخالصة، وقالت: إنها مادامت لا تعرف ماذا يكون بعد الموت، تعرف أنه لا يكون شيء بعد الموت، فلا يكون ذلك منها إلا استهزاء بالعقل واعتداء لحدوده .

والوسيلة الأخرى عندنا للعلم بعد الحواس هي «التفكر» ، إذ أن الإنسان دائماً يأبى أن يقيد نفسه بالمحسوسات والمرئيات ومن عين ماتقتضيه فطرته أن يستعين بما فيه من قوى الفكر والتأمل ويحاول الكشف عن الحقائق المستترة وراء المحسوسات والمرئيات، وهذا الجهد الفكري هو المعبر عنه بـ «التفكر» وله طريقان:

أولهما: أن تغمضوا أعينكم عما في الآفاق وفي أنفسكم من الآثار والآيات، أو لا تقيموا لها ماتستحق من الوزن ولا تستخرجوا النتائج — هكذا — إلا من المقدمات العقلية ولا تتبعوا إلا الأحكام العقلية، فهذا ميدان الفلسفة القياسية المجردة، وهو أصل كل فساد في الأرض ومنه نبعت كل المذاهب الفلسفية التي إذا ارتبك فيها الإنسان مرة، فإنه قلما يجد سبيلاً للخروج من مجاهل الفكر والخيال، والتي عليها قامت تلك العقائد المتضاربة عن الله وملائكته ونظام العالم والحياة بعد الموت، التي إنما هي نتيجة التخبط في الظلام واتباع الوهم والظن والخرص والتخمين.

وثانيهما: أن تفتحوا أعينكم وتشاهدوا مافي الآفاق وفي أنفسكم من الآثار الحاملة للمشعل في الطريق إلى الحقيقة وتتوصلوا باستعانة العقل السليم والفكر الصحيح إلى الحقائق الكامنة في أعماق هذه الآثار. وفي هذا الطريق تسير الفلسفة جنباً إلى جنب مع العلوم التجريبية. وهذا أيضاً وإن لم يكن طريقاً يقينياً للوصول إلى الحقيقة، ولكنه — بصرف النظر عن الهداية السماوية — هو الطريق الوحيد لدى الإنسان للوصول إلى الحقيقة، وبه وحده من الممكن أن يصل إليها، أويدنو منها على الأقل بشرط أن يكون على قوة غير عادية للمشاهدة والاعتبار وتكون قواه للادراك لطيفة مرهفة وتكون به أهلية كافية للفكر والتأمل وعلى هذا الامتزاج بين المشاهدة والفكر يتوقف رقي الإنسان وتقدمه في الحكمة النظرية. ان النظريات التي يقوم على أساسها اليوم بناء الحكمة، وان المبادىء التي لا يخطو طالب للعلوم التجريبية خطوة بدون الاعتقاد بها ... مامنها

نظرية واحدة ولا مبدأ واحد يقوم على مجرد المشاهدة والتجربة. بل الذي تقوم عليه كل نظرية من هـذه النظريات وكل مبدأ من هذه المبادىء هو ذلك القياس العقلي الذي تستخدم فيه المشاهدات والتجارب كالمواد الأساسية . ومن ذلك أن ليس قانون الفطرة ولا قانون الجاذبية ولا سلسلة العلة والمعلول ولا نظرية الإضافية ولا قانون النشوء والارتقاء، ولا قانون الاختيار الطبيعي ولا أي قانون أو مبدء آخر قد آمن به كبار الحكماء والعقلاء وعلماء العلوم الطبيعية . . . إلا نتيجة للفكر في مشاهدة الآثار والمظاهر واستخدام القياس العقلي، وإلا فإن أحداً لم يشاهد هذه القوانين ولا هذه المبادىء مشاهده حسية .

ثم ان النتائج التي يستخرجها أحدمن الحكماء بمشاهدته وقياسه، لا يكون على يقين من صحتها على قدر مايكون أحد من عامة الناس على يقين من صحة شيء إذا شاهده بأم عينه مشاهدة حسية ، ولكن على الرغم من هذا فإن هذا الحكيم ، مهما كان عظيماً ماهراً، لا يستطيع أن يجبر على الإيمان بهذه النتائج أحداً غيره إذا كان ينكرها إنكاراً ، لأن أحداً ما لم يشاهد الآثار والمظاهر بذلك النظر الخاص الذي قد شاهدها به ذلك الحكيم نفسه، ولم يستخدم في ذلك من الفكر والروية والتأمل ماقد استخدمه هو ، لا يستطيع بحال أن يتوصل إلى هذه النتائج . أما عامة الناس فلا سبيل لهم للدخول في عالم الحكمة وإحراز الرقي والتقدم فيه إلا واحدة. هي أن يؤمنوا عن ظهر الغيب بالنتائج التي قد استخرجها حكيم

يعتمدون على حكمته وبصيرته، بدون أن يكونوا بأنفسهم قد توصلوا إلى النتائج بمشاهدتهم وقياسهم .

أرسخ في ذهنك هذه المقدمة، فإنه لابد أن تكون على يقين من صحتها إذا ما أردت أن تفهم بيان القرآن واستدلاله في ما يتعلق بعالم ما وراء الطبيعة . والحقيقة أن كثيراً من الأغلوطات والمفاهيم الخاطئة لا تنشأ في ذهن الإنسان إلا لعدم رسوخ هذه المقدمة في ذهنــه .

اعتراض من قبل المنكرين للحياة الآخرة

إن القرآن لما عرض على الناس عقيدة الحياة الآخرة ودعاهم إلى الإيمان بها، ما كان حجة منكريها في ذلك الزمان إلا عين حجة منكريها في زماننا الحاضر ، وذلك أن هذه هي الحجة الوحيدة التي يستطيع أن يحتج بها منكرو هذه العقيدة في كل مكان وزمان . وخلاصتها أن الحياة بعد الموت أمر لا يقبله العقل والقياس، إذ كيف لنا أن نؤمن بأن الذين قد ماتوا وتحولوا إلى عظام ورفات وبليت أجزاء أجسادهم أو تبعثرت في الفضاء والتراب والمياه، سيرزقون الحياة مرة جديدة:

(وقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيد) [السجدة : ١٠] .

(وقَالوا أَإذا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمبْعُوثُون خَلْقاً جَدِيدا) [الاسراء : ٤٩] .

(أإذَا مِتْنَا وكُنَّا تُراباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيد) [ق : ٣] .

(مَنْ يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيم) [يس : ٧٨] .

أسلوب القرآن في الاستدلال

أما الأسلوب الذي اختاره القرآن للاستدلال في هذا الشأن ، فهو أنـــه يدعو الناس قبل كل شيء ، إلى أن يشاهدوا ما في الآفاق وفي أنفسهم من آيات الله وآثار حكمته ومظاهر قدرته ويعملوا فيها الفكر والروية ، يقول :

(سَنُرِيهِم آيَاتِنا في الآفاقِ وَفي أَنفُسِهِم حَتىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّه ٱلْحَقُّ) [فصلت : ٥٣] .

(أوَلَم يَنظُرُوا في مَلَكُوت السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ) [الأعراف :١٨٥]

(وكأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ في السَّمٰواتِ والأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَــا وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُون) [يوسف : ١٠٥] .

فالذي تنبه عليه هذه الآيات أنكم، أيها الناس ، لستم من القوة والعظمة بحيث من الممكن لكم أن تروا رأي العين ما لا يأتي تحت حواسكم أو تعرفوه على حقيقته بالاعتماد على تجربة من تجاربكم غير أنكم إذا فتحتم أعينكم و رأيتم آيات الله وآثار حكمته ومظاهر قدرته الماثلة أمام أعينكم ليل نهار ، وتفكرتم مع ذلك حتى في خلقكم أنفسكم . وبذلتم جهوداً صادقة مخلصة للوصول إلى الحقيقة بالتأمل في كل هذه المحسوسات والمرئيات ، فإنه لابد أن

يتبين لكم أن كل مايقال لكم في هذا القرآن وعلى لسان الرسول الصادق الأمين هو الحق .

إمكان الحياة الآخرة

ثم ان القرآن يدعو الناس إلى التفكر والتأمل في ما هو أكثر بداهة وجلاء حتى من هذه الآيات والآثار نفسها ويستدل به على أن ما ترونه بعيداً عن العقل والقياس، ليس ببعيد عنهما في واقع الأمر وإن كان بعيداً عن عقولكم وقياسكم ، وفي ذلك يقول :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) [الرّعد : ٢] .

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَنَاهَا) [النازعات : ٢٧] .

وفي هذا استشهاد بآثار الأجرام السماوية على أن الله الذي خلق هذا الكون العظيم البديع المتسق ، والذي قانونه المهيمن قد شد أكبر سيارة في هذا النظام — وأعظم بعددها — لقيوده وأغلاله . والذي قدرته تحرك هذه السيارات العظيمة بنظام مترابط لايلحقه خلل ولا انتكاس ولو للحظة من البصر ، والذي قوته قد أقامت طبقات الكون على دعائم غير مرئية وغير محسوسة تعجزون عن إدراكها . . . ليس بعاجز عن أن يهلك خلقاً حقيراً مثلكم ثم

ينشئه نشأة جديدة، وأنكم إن كنتم تظنون به هذا الظن، فما ذلك منكم إلا ظن باطل . يقول جل جلاله:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ قادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) [الاسراء : ٩٩] .

وهو بعدما يدعونا إلى التفكر في آياته وآثار قدرته وحكمته في السماء هكذا، يدعونا إلى التفكر في آياته وآثار قدرته وحكمته في عالمنا القريب أي الأرض ، وفي ذلك يقول :

(سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ، إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير) [العنكبوت ٢٠] . (وآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُون) [يس : ٣٣] ، (فانْظُرْ إلى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها، إنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِي المَوْتَىٰ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير) [الروم : ٥٠] ، (وَمِنْ آيَاتِه أَنَّكَ تَرَىٰ الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْها المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَت . إنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي المَوْتَىٰ ، إنَّـهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير) [فصلت : ٣٩] . (وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذَلِكَ النُّشُور) [فاطر : ٩] .

وهو بعد ذلك يدعونا إلى التفكر في ما قد وضع في ذات أنفسنا من آياته وآثار قدرته وحكمته ويستدل بها على قدرته على إحياء الموتى ، وفي ذلك يقول :

(هَلْ أَتَى على الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) [الدهر : ١] .

(كُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُون) [البقرة : ٢٨] .

(إِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) [الحج : ٥] .

(قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ) [الاسراء : ٥٠ ـ ٥١] .

(قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ في صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا ، قُلِ الَّذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) [الاسراء : ٥٠ ـ ٥١] .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ

خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) [المؤمنون : ١٣ ، ١٦]

(ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) [القيامة : ٣٧ ، ٤٠] .

والقرآن بعد دعوتنا إلى التفكر في الآيات والآثار القريبة من مشاهدتنا وقياسنا ، يعرض علينا دليلاً قاطعاً ، له أوثق مايكون من العلاقة بعقلنا العام (Common Sence) .

يقول ان إخراج الأشياء من العدم إلى عالم الوجود أصعب من خلقها مرة أخرى على صورتها الأولى بعد افتراقها وانتشار أجزائها. فالذي لم يعجز عن هذا العمل الأصعب ، كيف له أن يعجز عن هذا العمل الأهون ؟

ومثل ذلك أن رجلاً إذا كان قادراً على اختراع السيارة وقد صنعها فعلاً ، فهل يتفق مع العقل أن يقال : إنه ليس بقادر على تركيب أجزاء السيارة على صورتها الأولى بعد افتراقها وفكاكها ؟ عليكم أن تعرفوا قياساً على هذا المثال أن بارىء الكون وصانع السموات والأرض الذي قد خلقكم من العدم إلى الوجود ، من السفاهة أن تقولوا بالنسبة له : إنه عاجز عن خلقكم مرة أخرى بعد موتكم . وفي ذلك يقول عز من قائل :

(أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ! إن ذلك على الله يسير) [العنكبوت : ١٩] .

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم : ٢٧] .

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:١٥]

وبعد ذلك لا يبقى إلا شبهة واحدة هي أن الموتى الذين قد فنيت أجسادهم، كيف من الممكن أن ترد اليهم هذه الأجساد عينها ؟ فمنهم من مات غرقاً في الماء وصار كل جزء جزء من جسده غذاء للأسماك وحيوانات الماء الأخرى، ومنهم من مات حرقاً أو قد أحرق بعد الموت وتحول كل جسده إلى رماد ودخان ، ومنهم من دفن في الأرض وامتزج كل جزء جزء من جسده بالتراب، فكيف من الممكن أن يعاد إليه جسده الأول وتنفخ فيه روحه الأولى ؟

هذه الشبهة قد حاول الناس دفعها بقولهم : إنه ليس من اللازم لإعطاء الروح الحياة الجسدية أن يعاد إليها جسدها الأول ، إذ من الممكن أن تعطى جسداً آخر مشابهاً لجسدها الأول ، أما القرآن فيقول : إن الله قادر أن يعيد إليها عين جسدها الأول لأن أجزاء جسدها الأول ما انعدمت وإنما هي موجودة على صورة مبعثرة إما في الفضاء أو في السماء أو في التراب أو في أجساد النباتات والحيوانات أو في أجرام المعادن ، وان الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ويعلم موضع كل جزء فيهما ، له قدرة تامة على أن يجمع هذه الأجزاء المبعثرة مرة أخرى ويخلقها على صورتها الأولى :

(قَدْ عَلِمْنَا ماتَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتَابٌ حَفِيظ) [ق : ٤] .

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما في ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ولا رَطْبٍ وَلاَ يابِسٍ إلاَّ في كِتَابٍ مُبِين)[الأنعام : ٥٩]

والمقصود من كل ما قيل في هاتين الآيتين رفع الإستبعاد الذي ينكر الناس على أساسه الحياة الآخرة ، ليس السبب الحقيقي في إنكارهم أنهم قد علموا على وجه قاطع ايجابي . . . بتجربة أو مشاهدة أو بوسيلة أخرى من وسائل العلم اليقيني – أن لا حياة للإنسان بعد موته ، وإنما الأساس الذي يقوم عليه انكارهم أن عقلهم ضيق لا يتسع لتصور البعث بعد الموت ، وأنهم ما شاهدوا منظره بأعينهم ، وانهم معتادون لروئية أن من مات مرة لم يرجع إلى الحياة ، لأجل هذا إذا قيل لهم : ان الذين قد ماتوا ستعاد إليهم الحياة ، رأوا في هذا الأمر المخالف لعادتهم أمراً مستبعداً لا يتفق مع العقل والقياس . ولكن تقدموا خطوة أخرى في سبيل الفكر والتأمل ، يزل عن نفوسكم هذا الإستبعاد والإستغراب ، وتروا أن ما كان محالاً من قبل ، قد أصبح من الممكن الآن . إن الأمور التي ترونها الآن ممكنة ، بل واقعة ، إنما السبب في كونها كذلك أنكم معتادون لمشاهدة وقوعها . إن انشقاق البذرة في بطن الأرض وظهورها بصورة شجرة عظيمة ، وان دخول قطرة من الماء في الرحم وخروجها منه بصورة إنسان ، وان تولد الماء باجتماع

غازين وتحوله إلى البخار وتحول البخار إليه بترتيب خاص مرة بعد أخرى ، وأن جريان مئات الملايين من النجوم السيارة كالكرات في فضاء العالم الواسع وارتباط بعضها ببعض بدون ما علاقة مادية مرئية بحيث لا يدب دبيب التغير والإنقلاب في نظامها للحركة والدوران . . . إنكم معتادون لرؤية كل هذه الأمور ولذا لا ترون فيها ما يدعو إلى العجب والحيرة و إنما ترونها أموراً عادية ، ولكن لو كنتم لا تشاهدونها و كنتم مستأنسين بنظام آخر غير نظامها ، لرأيتم أنها أبعد ما تكون عن العقل والقياس ، وأنكرتم إمكانها بكل شدة ، وهب أن المريخ لا تنبت فيه الأشجار ، وعلى هذا إذا قيل لسكانه : إن بذرة صغيرة حينما تدفن في الأرض ، تخرج منها شجرة باسقة تكون أعظم من جرمها الابتدائي بآلاف بل بمئات الآلاف من المرات ثم تتوالد فيها آلاف مؤلفة من البذور مثلهـــا . . . إذا قيل ذلك لسكان المريخ ، لم يكن عجبهم منه أقـــل من عجبكم من البعث بعد الموت ، ولا بـــد أن يقولوا باستحالته ، كمـــا تقولون باستحالة البعث بعد الموت ، ولكن من الظاهر أن ليست هذه الفتوى بعدم الإمكان بناء على العلم وإنما هي بناء على الجهل، وماهي بنتيجة لبعد النظر وحصافة العقل،وإنما هي نتيجة لقلة النظر وقصور العقل . وما استبعادكم أنتم للبعث بعد الموت إلا مثل هذا، إنكم إذا أدركتم حقيقة استبعادكم، علمتم أحسن علم أن شيئاً إذا كان بعيداً عن عقلكم وقياسكم، فما بعده هذا بدليل كاف على استحالته وعدم إمكانه في واقع الأمر . أولا ترون أن كثيراً من الأشياء التي يخترعها الإنسان اليوم، كانت بعيدة

عن عقله وقياسه قبل مائة سنة، ولكن الذي قد شهدت به الحوادث أن لم تكن هذه الأشياء مستحيلة ولا غير ممكنة. وكذلك ان كثيراً من الأشياء التي يراها الإنسان اليوم بعيدة عن عقله وقياسه، سوف تخرج إلى عالم الظهور على يد الإنسان نفسه بعد قرن أو قرنين وسوف يثبت ظهورها أن لم تكن مستحيلة ولا غير ممكنة . . . إذا كانت هذه هي حقيقة العقل وحقيقة بعد الأشياء عنه أو قربها منه، فلا يصح الحكم على شيء بأنه مستحيل أو غير ممكن لمجرد أن عقل الإنسان المحدود لا يتسع له.

ان أول خطوة لاثبات شيء إذا كان خافياً على النظر وكان وراء حدود الحواس، أن يثبت إمكانه، فالقرآن بإزالة استبعاد الحياة الآخرة بأسلوبه البليغ قد أثبتها أمراً ممكناً.

والخطوة الثانية بهذا الشأن أن تثبت حاجة الإنسان إلى ذلك الشيء حتى يعترف به عقله ويقول: إن وجوده أولى من عدمه.

نظام العالم قائم على الحكمة

إن إثبات حاجة الإنسان إلى الاعتقاد بالحياة الآخرة يتوقف – في حقيقته – على جواب السؤال التالي: « هل ان هذا الكون صنعه حكيم مدبر، أم أنه نشأ بنفسه على سبيل الصدف والاتفاق دون ماحكمة ولا تدبير؟

يقول الإنسان المادي الدائن بالعلوم التجريبية: إن هذا الكون ماصنعه حكيم مدبر، وإنما قد نشأ بنفسه على سبيل الصدف والاتفاق وإنما يجري بكل أجزائه – بما فيها الإنسان – كآلة متحركة بذاتها

وان اليوم الذي ينتهي فيه التعاون والتعامل بين المادة والطاقة (Energy)يختل فيه هذا النظام . من الظاهر أن نظاماً مثل هذا، إذا كانت طبيعة عمياء هي التي تسيره بدون ماعلم ولا عقل ولا شعور ولا إرادة ولا حكمة، فمن العبث أن يبحث فيه عن نوع من الغاية والهدف . لذا فإن العلوم التجريبية المادية ما أخرجت من حدود وظيفتها التعليل المبدئي (Tebological Consation) لآثار الكون ومظاهره فحسب ، بل قالت : إن هذا الطريق للفكر ماهو إلا لغو وسخافة ، وقالت: إن هذا الكون وكل موجود من موجوداته وكل فعل من أفعاله هوبدون ماغاية ولاهدف ، فما العين للنظر وإنما النظر نتيجة لترتيب خاص للمادة يوجد في العين، وما المخ بأداة للفكر والتأمل والشعوروالعاطفة، وإنما تفرز الأفكار والعواطف والإرادات من مادته كما تفرز الصفراء من الكبد ويفرز البول من الكلية، فمن الخطإ – تقول هذه العلوم – أن تقرّ الأفعال الطبيعية الصادرة عن الأشياء غايتها، والمقصود من وراء تركيبها وان يبحث في وجودها عن حكمة أو تدبيرأو عقل .

إذا آمن الإنسان بهذه النظرية، واعتقد صحتها، فلا مبرر البتة لأن يشعر في نفسه بحاجة إلى حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، لأن الكون إذا كان كل نظامه إنما يجري في نظره بدون ماغاية ولا هدف على يد طبيعية عمياء لا علم لها ولا شعور، فإنما هو بمنزلة لعبة كلعب الأطفال ، وما كل موجود من موجوداته إلا عبث سيفنى كما يفنى كل عبث بعد انتهائه، ومن المستبعد أن تكون طبيعة عمياء مثل هذه متصفة بالعدل فيرجى منها حساب

أو عدل، وإذا فرضت أنها متصفة بالعدل، فمادام الإنسان إنما يلعب في يدها كلعبة لا تملك لنفسها إرادة ولا اختياراً فضلا عن أن تعمل شيئاً بإرادتها واختيارها، فاللازم أن لا تكون عليه تبعة أي عمل من أعماله الصالحة أو غير الصالحة كما لا تكون على السيارة تبعة سيرها في أية جهة صحيحة أو غير صحيحة، وإذا ارتفع السؤال عن التبعة، فمن العبث السؤال عن العدل أو الظلم وعن الجزاء أو العقاب في هذه الحياة الدنيا نفسها، فضلاً عن أن يُعترف له بحياة أخرى بعد هذه الحياة .

ولكن هذه النظرية لا تتفق مع العقل، وحتى الآن لم يعرض على صحتها دليل عقلي ولا شهادة علمية، ولباب كل ماقيل حتى الآن في الدفاع عنها أننا لا نرى أحداً قد خلق هذا الكون ويعنى بتسييره ولا نعقل ما إذا كانت ثمة غاية من وراء خلقه وإنما نراه سائراً بدون ماصنع قادر، وليس من الممكن أن ندرك غاية لسيره، كما أننا لسنا بحاجة إلى إدراكها . . . ولكن ليس الجهل بالعلة الفاعلية أو العلة الغائية في شيء بدليل كاف على أن ليست فيه علة فاعلية ولا علة غائية أصلاً. هب أن طفلاً يرى آلة للطبع تسير وتعمل ولايدرك لتحقيق أية غاية قد سيرت هذه الآلة، فيظنها مجرد لعبة سائرة بدون ما غاية ولاهدف . يرى أن هذه الآلة كما ينشأ منها الصوت، وتتحرك أجزاؤها وترتجف الأرض من تحتها ، كذلك تخرج منها الأوراق مطبوعة نتيجة طبيعية لحركتها ، ولا يعقل أن فعلاً واحداً من هذه الأفعال، أي: خروج الأوراق منها مطبوعة ، هو الغاية المقصودة من وراء هذه الآلة وماسائر أفعالها إلا نتائج طبيعية لحركتها، وما

نظره من القدرة على المشاهدة بحيث يحس مافي أجزائها من التركيب والترتيب والنظام، ويعقل أن الصورة التي قد خلق عليها كل جزء من أجزائها وأن الموضع الذي قد وضع فيه ، هي الصورة المتناسبة مع خلقه وهو الموضع المتناسب مع وضعه، وأنه من اللازم لأدائه وظيفته في جسد الآلة أن لا يخلق إلا على تلك الصورة ، ولا يوضع إلا في ذلك الموضع . فبناء على كل ذلك يظن ذلك الطفل الغبي أن تلك الآلة إنما نشأت باجتماع قطع من الحديد على سبيل الصدف والاتفاق، ولا يعرف برؤية أفعال الآلة وترتيب أجزائها أن الذي قد صنعها لا بد أن يكون حكيماً قادراً فإنه لحكمته وقدرته قد صنعها بأتقن أسلوب وعلى أقوم صورة بحيث ليس جزء من أجزائها عبثاً ولا غير متناسب مع وظيفته ... قل لي بالله ربك ان ذلك الطفل غير العاقل إذا أقام على مشاهدته هذه الآلة من آلات الطبع، نظرية قائلة : بأن الآلة ليست فيها علة فاعلية ولا علة غائية ولا قد صُرف في صناعتها شيء من الحكمة، ولا قد روعيت فيها غاية من الغايات، فهل لرجل عاقل بالغ أن يعترف بأن ذلك الطفل قد أقام نظرية صحيحة في مايتعلق بحقيقة تلك الآلة ؟

وكل هذا إن كان غير صحيح بشأن آلة للطبع ، فأولى به أن يكون غير صحيح بشأن هذا الكون العظيم الذي تدل كل ذرة فيه على صانعه وقدرته وإرادته وحكمته . ومهما يقل الطفل الناقص العقل القصير النظر ، فما لرجل عاقل إذا شاهد ما في هذا الكون من الآيات والآثار بعين العبرة والبصيرة أن يشك ولو

للحظة واحدة أنه من المحال أن ينشأ ويسير بدون ماحكمة ولا علم ولا إرادة نظام مثل هذا وهو من الاستحكام والاستقامة والتناسب والاتساق بحيث ليس فيه شيء عبث وليس فيه شيء أكثر مماتدعو إليه الحاجة ولا أقل منه ، وكل جزء فيه موضوع في محله اللائق به كما تقتضيه الحاجة ولا يرى في نظامه فتور ولا ضعف ولانقص .

من المحال أن يكون النظام القائم على الحكمة مهملا بدون ماغاية

والدلائل التي قد أقامها القرآن الحكيم على حاجة الإنسان إلى الحياة الآخرة ، لا تقوم كلها إلا على الفكرة القائلة : بأن صانع هذا الكون حكيم قادر لا يخلو كل فعل من أفعاله من الحكمة ، ومن المحال أن يعزى إليه شيء لا يجتمع مع الحكمة ، يقول القرآن بعد إقامته هذا الأساس لفكر الإنسان :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُون ، فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الْحَقُّ) [المؤمنون : ١١٥] .

(أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَى) [القيامة : ٣٦] .

(وَمَا خَلَقْنَا السَّموات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِين مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ . إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ) [الدخان : ٣٨] .

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِم ، مَاخَلَقَ اللهُ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُون) [الروم : ٨] .

فالذي تشير إليه كل هذه الآيات : أنكم أيها الناس ، إن كنتم تظنون أن نظام هذا الكون لمجرد أن يبقى سائراً إلى أجل ثم ينعدم بدون

ما نتيجة. فكأنكم تظنونه فعلاً عبثاً سخيفاً أو لعبة كلعب الأطفال ولا تظنونه صادراً عن حكيم قادر أبداً، وانكم إن كنتم تعتقدون أن الله هو الذي قد صنع هذا النظام وأن الله حكيم قدير، فعليكم أن تستعينوا بما قد آتاكم الله من قوة العقل والنظر لتعرفوا أن ليس شيء من موجودات هذا العالم بخارج إلى حيز الوجود بدون ما غاية ولا بداخل في حيز العدم بدون ما نتيجة، ولا سيما الإنسان، فإنه أفضل خلائق الله على وجه الكرة الأرضية وشخصيته ذات الشعور هي حاصل ارتقاء وتقدم هذه الكرة الأرضية تدرجاً ونتيجة كل حركاتها وتحولاتها وتطوراتها، وقد أوتي العقل والفكر والنظر والفهم وقوة الإرادة والاختيار بكمال حكمة ... من المحال أن تكون الغاية المقصودة من وراء خلقه مجرد أن يقضي في هذه الدنيا عدداً من السنين كآلة من الآلات ثم يدخل عالم الفناء والعدم بموته.

مصير نظام العالم على مقتضى الحكمة

ولما قد علم أن ليس هذا الكون قد خلق عبثاً، وليس شيء فيه بدون ما نتيجة، فالسؤال الثاني الذي يثور بهذا الصدد هو: أي مصير آخر غير العدم المطلق عسى أن يكون لهذا الكون على مقتضى الحكمة؟ ففي آيات القرآن جواب تفصيلي على هذا السؤال لا يكاد يسمع به العقل السليم إلا ويطمئن به اطمئناناً كاملا. ولكن من اللازم لفهم هذا الجواب أن تكون - أولاً - على بينة من عدة أمور هي:

١ - ان كل ما في عالم الوجود من الآيات والآثار تشهد شهادة ناطقة بأن ليس لهذا العالم من تغير ولا تطور إلا وهو متجه إلى جهة الارتقاء، وان ليس المقصود من كل حركة من حركاته أو كل

دورة من دوراته إلا أن يساق النقص إلى الكمال، وأن تضفى على الأشياء صورها الكاملة بعد القضاء على صورها الناقصة .

٢ ــ وبما أن قانون الارتقاء هذا إنما يعمل عن طريق التغير، لذا فإن كل كمال أو ارتقاء في هذا العالم لا بد أن يتقدمه فساد، أوقل ــ بكلمة أخرى ــ إنه لما يقتضيه خروج كل صورة جديدة إلى حيز الوجود أن تفسد الصورة السابقة، وأن زوال الصورة الناقصة يكون مقدمة لخروج صورة جديدة كاملة إلى حيز الوجود . وهذه التغيرات والتطورات وإن كانت تحصل في هذا العالم في كل حين، ولكن هناك تغير جليّ بارز يحصل بعد تغيرات خفيّة متعددة، ويكون هناك في هذا التغير الجلي البارز فساد جلي بارز هو الذي نعبر عنه في عرفنا العام بـ«الموت» أو «الزوال» كما أننا نعبر بـ«العمر» عن المدة الواقعة بين خروج شيء إلى عالم الوجود وبين موته أو فساده القطعي

٣ ــ إن كل صورة من الصور تبغي لنفسها محلاً خاصاً يناسبها ويناسب طبيعتها ولا ترضى بأن تسكن محلا لايناسبها ولا يناسب طبيعتها . فالصورة النباتية ــ مثلاً ــ لا ترضى بأن تسكن جسداً حيوانياً، فإنه محل لا يناسبها ولا يناسب طبيعتها . ولا تطلب الصورة الإنسانية غير الجسد والنظام الجسدي الخاص الذي قد خلق للانسان . وعلى هذا إذا أريد أن يعطى شيء صورة راقية فمن اللازم أن يهدم المحل الذي كان بني لصورته القديمة الناقصة وأن يبنى لصورته الجديدة الراقية محل جديد يناسبها ويناسب طبيعتها .

٤ ــ إذا فهمت شمول قانون الارتقاء وإحاطته بكل أجزاء العالم، فقد سهل عليك أن تعرف أن هذا القانون كما يشمل كل

أجزاء العالم كذلك يشمل نظام العالم نفسه . فالنظام الذي نشاهده الآن لهذا العالم ، لا ندري كم من نظم قد خلت من قبله منذ بدء سلسلة الخلق والإبداع ، وكم من مراحل الارتقاء التدريجي قد اجتازتها سلسلة الوجود حتى انتهت إلى نظامنا الحاضر الذي نشاهده الآن، وكذلك ليس نظامنا الحاضر الذي نشاهده الآن بآخر نظام قد انتهت إليه سلسلة الوجود ولن نجتازه إلى نظام آخر بعده، بل لا بد له أيضاً، عندما يبلغ آخر كمالاته الممكنة ولا يعود به صلاح لقبول درجة للكمال أعلى، أن يتهدم ويقوم على أنقاضه نظام آخر يختلف عنه في قوانينه ويكون به صلاح لقبول درجات كمال الوجود ومراتبه العليا .

٥ ـ إننا إذا نظرنا في النظام الحاضر للعالم بعين الجد والاهتمام، علمنا بدون ما ريب أنه نظام ناقص يحتاج إلى مزيد من الكمال ... فما حقائق الأشياء فيه إلا متلوثة بالأرجاس المادية حتى قد نزلت إلى درجة الأوهام، ونالت ملابسها المادية درجة الحقائق. وان شيئاً على قدر ماهو لطيف وعلى قدر ماهو مجرد من الأرجاس المادية، هو خفي مستتر وراء حدود العقل والشعور في هذا النظام، وان الجسد المادي له وزن في هذا النظام ولكن لا وزن فيه البتة للحقائق اللطيفة البسيطة، ومن الممكن أن يوزن فيه الحديد والحجر والخشب ولكن لا مجال في قانونه لوزن العقل والرأي والفكر والنية والخيال والعزم والعاطفة والوجدان ، ومن الممكن أن توزن فيه أو تكال الحبوب والفواكه ، ولكن لا مجال فيه لوزن أو كيل المحبة والنفرة. ومن الممكن أن يقاس فيه الثوب، ولكن لا مجال فيه لقياس البغضاء

والحسد، ومن الممكن أن تحدد فيه قيمة الدنانير والدراهم ولكن لا مجال فيه لتحديد قيمة العاطفة التي تحث الإنسان على السخاء أو البخـــل .

هذه بعض وجوه النقص في هذا النظام ، ولأجل نقصه هذا يتطلب العقل نظاماً أرقى منه لا تكون فيه الحقائق بحاجة إلى الملابس المادية وإنما تكون بارزة يراها كل من أراد معرفتها بدون ماحجاب ولا حاجز ، وتنتصر فيه اللطافة على الكثافة ، ويتجلىّ فيه كل ماهو خاف مستتر الآن .

ومن وجوه النقص ــ كذلك ــ في هذا النظام أن القوانين المادية لها الغلبة ولها الكلمة المسموعة فيه ولذا لا يحدث فيه للأفعال إلا النتائج المتفقة مع مقتضيات القوانين المادية ولا تحدث فيه النتائج المتفقة مع العقل والحكمة . فمثلاً إذا أوقدت فيه ناراً، احترق بها كل شيء قابل للاحتراق، وإذا صببت فيه ماء، ابتل به كل شيء قابل للابتلال، ولكنك إذا عملت فيه صلاحاً، لا تظهر فيه نتيجته بصورة الصلاح على كل حال، كما يقتضيه العقل والحقيقة، وإنما تظهر بالصورة التي تقتضيها القوانين المادية ولو كانت هي صورة الفساد المعاكسة تماماً لصورة الصلاح .

والعقل عندما يشاهد هذا النقص في النظام الحاضر، يوجب أن يقوم بعده نظام أرقى منه تجري فيه القوانين العقلية بدلاً من القوانين المادية وتظهر فيه للأفعال نتائجها الحقيقية التي لا تظهر في النظام الحاضر لغلبة وسيادة القوانين المادية فيه .

مصير نظام العالم حسب بيان القرآن

إذا أدركت هذه المقدمات، فتعال لنريك الآن : ماذا يجيب به القرآن على سؤالك عن مصير نظام العالم في ما قد صوّر في آياته من مشاهد القيامة والنشأة الآخرة، يقول:

(مَا خَلَقْنَا السَّموات والأَرْضَ ومَا بَيْنَهُما إلاَّ بالْحَقِّ وأجلٍ مُسَمًّى) [الأحقاف : ٣] .

(وسَخَّرَ الشَّمْسَ وٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسمًّى) [الرعد :٢]

ثم انه يصور أهوال يوم القيامة بكلماته التالية:

(إذا السَّماءُ انْفَطَرَت، وإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ، وإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ، وإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ) [الانفطار : ١، ٤] .

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ، وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ) [التكوير : ٣١] .

(فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ، وإذا السَّماءُ فُرِجَتْ، وإِذَا ٱلْجِبَال نُسِفَتْ) [المرسلات : ٨، ١٠] .

(فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ، وخَسَفَ ٱلْقَمَرُ، وجُمِعَ الشَّمسُ وٱلْقَمَرُ) [القيامة : ٧، ٩] .

(وحُمِلَت الأَرْضُ وٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدَةً) [الحاقة : ١٤]

(يَومَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمٰواتُ وبَرَزوا لله الواحِدِ ٱلْقَهَّارِ) [إبراهيم : ٤٨] .

ففي كل هذه الآيات إشارات واضحة إلى أن ليس نظام العالم الجاري بنظام خالد سرمدي، وإنما هو نظام موقت له أجل معلوم إذا انتهى إليه فلابد له من الاختلال والتهدم، ولا بد إذن للشمس والقمر والأرض وما إليها من السيارات التي هي أركان هذا النظام ، ويقوم هذا النظام بدورانها، أن تتناثر وتحتك بعضها مع بعض ويخبو نورها. ولا بد إذن أن يتهدم هذا البناء الموقت. ولكن ليس معنى ذلك أن نظام العالم سيعدم بذلك عن الوجود وتنتهي سلسلة الخلق والإبداع ، وإنما معناه أن سيبدل عندئذ الطور الخاص الذي نشاهده الآن لعالم الوجود ويقام مقامه نظام آخر ، وإلى ذلك يشير قوله عز وجل :

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّموات) [ابراهيم :٤٨]

نظام الحياة الآخرة

أما كيف، ومن أي نوع سيكون ذلك النظام ؟ . . . فيُعلم من الكيفية التي وردت في القرآن الحكيم بدون ماريب ولا إبهام أن ذلك النظام إنما سيكون صورة ارتقائية لنظامنا الحاضر وإكمالا لنقصه، على عين مايقتضيه العقل . سيكون فيه كل شيء من الوزن والكيل والقياس ، ولكن لا للأشياء المادية وإنما للمعاني المجردة والحقائق اللطيفة البسيطة ، سيوزن فيه الخير والشر والبر والإثم والفضيلة والرذيلة والإيمان والكفر والأخلاق والملكات، وستقاس فيه النيات والإرادات والعواطف والهواجس والأحاسيس وسائر أفعال القلوب . لا يحاسب فيه الإنسان على وزن الخبز الذي أطعمه

أحداً من الفقراء والمساكين، ولا على عدد الدراهم التي أعطاها أحداً من السائلين والمحرومين، وإنما يحاسب فيه على النية التي حملته على هذا الكرم والسخاء، لأن القانون فيه لا يكون مادياً وإنما يكون معنوياً، وفي ذلك يقول جل من قائل:

(إِنَّ السَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) [الاسراء: ٣٦].

(ونَضَعُ الموازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيومِ ٱلْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وإنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّة مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكَفَى بِنَا حَاسِبِين) [الأنبياء: ٤٧].

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُه فَأُولَٰئِك هُمُ الْمفلِحُون، ومَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم) [الأعراف: ٨ ـ ٩].

(يَومَئِذ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُم، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، ومَنْ يَعمَلْ مِثْقَالَ ذرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [الزلزال: ٥ ـ ٨].

وسيبرز في ذلك النظام كل شيء هو مستتر لا نراه بأعيننا في نظامنا المادي الحاضر لسبب غلبة القوانين المادية وقيودها، وستبدو فيه الحقائق اللطيفة والمعاني المجردة بدون ما حجاب ولا حاجز كما هي على حقيقتها:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيد) [ق : ٢٣] .

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاتَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) [الحاقة : ١٨]

وفي ذلك النظام ستحدث للأفعال نتائجها الحقيقية المتفقة مع العقل والعدل، ولا تجري فيه القوانين المادية ولا الأسباب المادية كما هي تجري اليوم في نظامنا الحاضر، ولتأثيرها لا تحدث هنا للأفعال نتائجها الحقيقية العقلية، لذا فإن كل شيء يحول هنا دون أن يظهر العدل والقسط وترتب على الأفعال نتائجها الحقيقية العقلية .. سيعود بدون ماتأثير في نظام الحياة الآخرة . فمثلا ان المال والجاه والحسب والنسب والكياسة والفطانة وسلاطة اللسان وكثرة الوسائل المادية وقوة الحلفاء والأصدقاء والأقرباء وسعيهم وشفاعتهم كل هذه من الأسباب التي تنقذ الإنسان في نظامنا الحاضر من نتائج كثير من أقواله وأفعاله، ولكنها ستفقد تأثيراتها في نظام الحياة الآخرة، فلا يترتب فيه على كل فعل من أفعال الإنسان ولا على كل قول من أقواله إلا النتيجة التي يجب أن تترتب عليه على مقتضى من العقل والعدل والحق والصواب :

(هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ) [يونس : ٣١]

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ماكَسَبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمُونَ) [آل عمران : ٢٥] .

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ) [آل عمران : ٣٠] .

(واتَّقُوا يَوْماً لا تَجزَي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ولاَ يُؤْخَذَ مِنْهَا عَدْلٌ ولا هُم يُنْصَرُونَ) [البقرة :٤٨] .

فَإذا نُفِخَ في الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُم يَوْمَئِذٍ ولايَتَسَاءلُونَ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُه فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ، وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُه فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم في جَهَنَّمَ خَالِدِينَ.) [المؤمنون:١٠١ ، ١٠٣] (يَومَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ، إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) [الشعراء : ٨٨] (ولَقَدْ جِئتُمُونا فُرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وتَرَكْتُمْ ماخَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُم ومَا نَري مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُم الَّذِينَ زَعَمتُم أَنَّهمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُمْ ماكُنْتُم تَزْعُمونَ) [الأنعام :٩٤]

(لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحامُكُم ولاَ أَوْلادُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَة يَفْصِلُ بَينَكُمْ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [الممتحنة : ٣] .

(يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيه وأُمِّه وأَبِيهِ وصاحِبَتِهِ وبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) [عبس : ٣٤ ، ٣٧] .

ومن وجوه النقص في نظامنا الحاضر أن ليست فيه قسمة جوائز الطبيعة ومواهبها بقائمة على حسن الأعمال وإنما هي قائمة على عوامل لا تكون فيها الأعمال الذاتية ولا الاستعدادات الشخصية إلا بمنزلة سبب من الأسباب، فطالما تتغلب عليها عوامل كثيرة أخرى وتوهن تأثيرها بل تزيله إزالة كلية، لأجل هذا فلا دخل هنا للاستحقاق الذاتي في قسمة جوائز الطبيعة ومواهبها، وإن كان فإنما هو بمنزلة الصفر. من الممكن هنا أن يترفل الإنسان في النعيم ويتمتع بالرغد والرفاهية واللذات المادية والخيرات الدنيوية على رغم ظلمه وفسقه وفجوره طول حياته، كما أنه من الممكن هنا أن يقضي كل حياته بالفقر والبؤس والفاقة والمصائب والآلام الدنيوية على رغم التزامه الصلاح والأمانة والتقوى والفضيلة طول حياته . . . . .

فهذا النقص يحتاج إلى الإكمال، يقضي العقل والعدل والحكمة أن يترقى هذا النظام حتى يتحول إلى نظام كامل بكل معنى الكلمة، إلى نظام لا تكون فيه قسمة الجزاء والعقاب والثواب والعذاب إلا بالعدل والقسط، ولا ينال فيه كل شخص إلا مايستحقه بناء على حسنه أو قبحه الذاتي. يقول القرآن: إن نظام الآخرة لا يكون إلا نظاماً كهذا :

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كالمُفْسِدِينَ في الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ المتَّقِينَ كالفُجَّارِ) [ص : ٢٨] ، (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُم كالَّذِينَ آمَنوا وعَمِلُوا

الصَّالِحاتِ سواءً مَحْيَاهُم ومَمَاتُهُم ساءَ مايَحكُمُون) [الجاثية : ٢١] .

(ولِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) [الأنعام : ١٣٢] .

(وأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ للمُتَّقِينَ ، وبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلغَاوِينَ) [الشعراء : ٩٠] .

فهذا هو نظام الحياة الآخرة كما يقرره دين محمد ﷺ ودين سائر أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم وسلامه . أما الذين يرون في هذا الكون وفي نظامه لعبة كلعب الأطفال أو حادثاً من الحوادث بدون ماغاية ولا نتيجة أو لغزاً من الألغاز المرتبكة مابدأ إلا بالعبث ولاينتهي إلا بالعبث، فلا يجدون في عقيدة الحياة الآخرة هذه ولا في دلائلها وشواهدها شيئاً جديراً بالقبول والتسليم . وأما الذين يعتقدون أن هذا الكون مانشأ بنفسه على سبيل الصدف والاتفاق وإنما نشأ بخلق الله العليم الحكيم، فهم عندما ينظرون في دلائل عقيدة الحياة الآخرة وشواهدها يعترفون بأنه من اللازم أن يحدث بعد نظام الكون الحاضر نظام آخر بمثل هذا الطور وبمثل هذه الكيفية ، ويقولون : إنه لما قد ثبت الإمكان للحياة بعد الموت، فإن ثبوت الحاجة إلى هذا الممكن أكثر من الكافي للايمان بأن الله العليم الحكيم لا بد أن يوجد هذا الممكن اللازم للوجود .

فالذي قد ثبت بما قلنا في هذا المبحث أن ليست الحياة الآخرة التي قد دعا الإسلام إلى الإيمان بها، ببعيدة عن العقل، كما يعتقدها الماديون عامة، وإنما هي من عين مايقتضيه العقل والعلم والحكمة ،

ومن المحال أن تهز هذا الإيمان وتحدث فيه الثلمة مرحلة من مراحل رقي العلم والعقل بشرط أن يكون ذلك الرقي رقياً حقيقياً لارقياً سطحياً صورياً .

حاجة الانسان الى عقيدة اليوم الآخر

قد ثبت مما قلناه حتى الآن أن وقوع حياة أخرى بعد حياتنا الدنيا الحاضرة ممكن، وأنه أقرب إلى القياس، وانه عين ماتقتضيه الحكمة ، وان العقل – بشرط أن يكون سليماً، والعلم – بشرط أن يكون حقيقياً – لا يمنعان أبداً الإيمان بعقيدة اليوم الآخر ، كما قد عرضها القرآن، وإنما يحملان الإنسان عليها حملا ويدفعانه إليهـــا دفعاً .

ولكن ، ينشأ هنا سؤال آخر هو: ماهي حاجتنا إلى الإيمان بعقيدة اليوم الآخر هذه ؟ ولماذا قد جعلها الإسلام من أركان الإيمان ؟ ولماذا قد أكدها القرآن وأبدأ وأعاد في دعوة الناس إليها حتى جعلها مما لا يدخل الإنسان في الإسلام بدونه وهدده إذا أنكرها بحبط كـــل ما كسب من الأعمال طول حياته ؟ ولرجل أن يقول : إنه ليست عقيدة اليوم الآخر هـــذه إلا نظرية كسائر النظريات المتعددة الأخرى في مايتعلق بعالم مابعد الطبيعة ، وهي وإن كانت قد أسندت إلى حجج قوية وبراهين محكمة وهناك أكثر من سبب واحد للاعتراف بصحتها ، ولكن هل من الواجب على الإنسان، إذا ثبتت نظرية من النظريات المتعلقة بعالم مابعد الطبيعة بالحجة والبرهان، أن يؤمن بها إيماناً، ويقال: إن إسلامه أوكفره لا

لا يتوقف إلا على الإيمان أو عدم الإيمان بها ؟ وهناك علاوة على هذه النظرية نظريات متعددة أخرى كلها تتعلق بعالم مابعد الطبيعة وكلها تستند إلى دلائل قوية وشواهد محكمة، فما للاسلام قد أعرض عنها ولم يجعلها من أركان الإيمان ؟

إن عقيدة اليوم الآخر لوكانت مجرد نظرية متعلقة بعالم مابعد الطبيعة لما أنكرنا لهذا الاعتراض وجاهته ولما رأينا سبباً معقولاً لجعل الإسلام إياها من أركان الإيمان، لأن نظرية من النظريات المتعلقة بعالم مابعد الطبيعة لا علاقة لها بحياتنا العملية من حيث هي نظرية من النظريات المتعلقة بعالم مابعد الطبيعة، ولا يحدث في أخلاقنا ولا في أعمالنا أثر ما إن كانت أذهاننا خالية عنها وأنكرنا الإيمان بها إنكاراً، ولكننا إذا تأملنا عقيدة اليوم الآخر، كما قد عرضها القرآن، وأنعمنا فيها النظر بعين الجد والاهتمام، علمنا على اليقين أنها ليست مجرد نظرية فلسفية فحسب، بل لها أوثق مايكون من العلاقة بأخلاق الانسان وأعماله في جملة شعب حياته وتتغير بها وجهة نظره في الحياة الدنيا رأساً على عقب. فمعنى إيمانه بها أن لايرى نفسه في هذه الدنيا كائناً حراً طليقاً، ولكن كائناً ذا تبعة ومسؤولية ولا يؤدي جملة أعماله وتصرفاته إلا على شعور تام من أن عليه تبعة كل حركة من حركاته وأنه مسؤول عنها في حياته المقبلة وأن سعادته أو شقاءه في مستقبله لا يتوقف إلا على أعماله الصالحة أو السيئة في حاضره، ومعنى عدم إيمانه بها أن يرى نفسه كائناً حراً طليقاً لا تبعة عليه ولا مسؤولية، ولا يؤدي جملة أعماله ولا يرتب جملة تصرفاته في هذه الحياة الدنيا إلا على الظن

بأنه ليس مسؤولا عنها وأنه لا تترتب عليها نتيجة حسنة أو سيئة في حياة أخرى بعد هذه الحياة .

ومن التأثير اللازم لخلو ذهن الانسان من عقيدة اليوم الآخر أو عدم إيمانه بها أنه لا يطمح ببصره إلا إلى النتائج المترتبة على أعماله في هذه الدنيا ولا يحكم على شيء بالمنفعة أو المضرة إلا باعتبار هذه النتائج فحسب . إنه يحترز عن أكل السم ولا يضع يده في النار ، لماذا ؟ لأنه يعلم أنه لا بد أن يذوق وبال هذين الفعلين ونتائجهما السيئة في حياته هذه . وأما الظلم والكذب والخيانه والغدر والغيبة والزنا وما إليها من الأفعال التي لا تظهر نتائجها السيئة في هذه الحياة كاملة فإنما يحترز عنها على قدر مايخاف من ظهور نتائجها السيئة في حياته هذه ولا يتردد في اقترافها حينما لا يرى نتيجة سيئة تترتب عليهما أو يرجو أن ينال بها منفعة مادية في هذه الدنيا نفسها . وجملة القول أن فعلا معنوياً لا تكون له في نظره قيمة معنوية معينة ، وإنما يكون حسنه أو قبحه متوقفاً في نظره على حسن أو قبح نتيجته المترتبة عليه في هذه الحياة الدنيا نفسها .

أما الذي يقول بعقيدة اليوم الآخر ، فلا يطمح ببصره إلى النتائج العاجلة المترتبة على أعماله في هذه الحياة وحسب ، وإنما يطمح ببصره إلى نتائجها الحقيقية المترتبة عليها في حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، ولا يحكم على فعل بالمنفعة أو المضرة إلا على اعتبار تلك النتائج ، فهو كما يكون على يقين من أن السم مهلك والنار مؤلمة ، كذلك يكون على يقين من أن الظلم والكذب والغدر والخيانة والزنا كلها أفعال مهلكة مؤلمة ، وهو كما يعتقد أن الخبز

والماء نافعان، كذلك يعتقد أن العدل والأمانة نافعان. ويقول بنتيجة معينة يقينية لكل فعل من أفعاله ولولم تظهر في هذه الحياة أصلا، بل ولو ظهرت فيها على صورة معاكسة تماماً. وتكون في نظره للأعمال المعنوية قيم معنوية معينة لا يدب إليها دبيب التغير والتبدل بالمنافع أو المضار العاجلة الظاهرة في هذه الحياة الدنيا. ولابد أن يكون الصدق والعدل والوفاء بالعهد حقاً في نظامه للأخلاق ولو كانت لا ترجع عليه في هذه الحياة الدنيا إلا بالمضار والمصائب والآلام. ولا بد أن يكون الكذب والظلم والغدر إثماً في نظامه للأخلاق ولو كانت ترجع عليه بالمنافع واللذات والمباهج في هذه الحياة الدنيا .

ليس معنى خلو ذهن الإنسان من الاعتقاد باليوم الآخر أو إنكاره إياه أن ذهنه خال من نظرية من النظريات المتعلقة بعالم مابعد الطبيعة وإنما معناه أنه غافل عن أن له شخصية ذات تبعة ومسؤولية وانه يعتقد نفسه كائناً بريئاً من كل تبعة ومسؤولية، وانه راض بالحياة الدنيا مطمئن بنتائجها الناقصة بل الخادعة في أكثر الأحيان، وقد انصرف بوجهه عن المنافع والمضار الحقيقية النهائية وأقام الوزن للمنافع والمضار العاجلة المؤقتة وعلى اعتبارها فحسب، جعل لأفعاله قيماً معنوية لا تستقر على شيء معلوم ، وقد حرم نفسه ضابطة خلقية راشدة محكمة لاتنضبط إلا بشعوره بالتبعة ورعايته للنتائج الآجلة واعتباره للقيم الخلقية المستقرة على شيء معلوم. وهكذا قضى كل حياته مغتراً بمظاهر الدنيا الخلابة وتحت ضابطة واهية قد تقررت

فيها المضرة الحقيقية منفعة وتقررت المنفعة الحقيقية مضرة وتحول فيها المعروف الحقيقي إلى منكر وتحول المنكر الحقيقي إلى معروف.

تلك هي نتائج إنكار الحياة الآخرة قدبينها القرآن بكل شرح وتفصيل . وإنك إذا تتبعت آيات القرآن في هذا الشأن، علمت أحسن علم أنه مامن مفسدة ولامنكر يحدث في أخلاق الإنسان وأعماله لعدم إيمانه باليوم الآخر إلا وقد عني القرآن بذكره ونعى على أصحابه . فمن ذلك مثلا :

١ ــ ان الإنسان يحسب نفسه حراً لا تبعة عليه ويرى أن حياته بمجموعها بدون نتيجة ولا يعمل في الدنيا إلاعلى الظن بأن لا رقيب عليه ولا محاسب :

(أَفَحَسِبْتُم أَنَّما خَلَقْنَاكُم عَبَثاً وأَنَّكُم إِلَينَا لا تُرْجَعُون) ! [المؤمنون : ١١٥] .

(أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَى) ؟ [القيامة: ٣٦] .

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ؟ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدَاً ، أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ) ؟ [البلد : ٥ ــ ٦ ــ ٧]

٢ ــ وانه إنما يرنو ببصره إلى ظاهر من الحياة الدنيا ويحسب أن النتائج السطحية العاجلة التي تظهر لأعماله في هذه الدنيا هي نتائجها الحقيقية النهائية ، وانه لاغترّاره بها لا يتبنى لنفسه إلا آراء فاسدة وأفكاراً باطلة :

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) [الروم : ٧] .

(إنَّ الَّذِينَ لا يَرْجَونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيا واطْمأَنوا بِهَا) [يونس: ٧]. (كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وتَذَرونَ الآخِرَةَ) [القيامة: ٢٠] (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا والآخرةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) [الأعلى: ١٧]، (وغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا) [الأعراف: ٥١]

٣ ـ وأن النتيجة اللازمة لاغتراره بالحياة الدنيا ونظره إلى ظاهرها فحسب أنه ينعكس في نظره مستوى القيم المعنوية للأعمال. فالأعمال التي هي ضارة باعتبار نتائجها النهائية، يراها نافعة لنظره إلى نتائجها العاجلة فحسب، والأعمال التي هي نافعة باعتبار نتائجها النهائية يراها ضارة لنظره إلى نتائجها الابتدائية فحسب، لكل هذا فإن جهوده الدنيوية تحيد عن المناهج الصحيحة والطرق المستقيمة وتضيع في الطرق الخاطئة المضلة:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا يالَيْتَ لَنَا مِثْل ما أُوتِيَ قَارُونُ إنَّه لَذُو حَظٍّ عَظيمٍ، وقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُم ثَوَابُ اللهِ خَيرٌ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً) [القصص: ٨٠ ـ ٨١].

(إنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرة زَيَّنَّا لَهُم أَعْمَالَهُم فَهُم يَعْمَهُون) [النمل: ٤]، أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نَمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وبَنِين. نُسَارِعُ لَهُم في الْخَيرات، بَل لا يَشْعُرُون) [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦].

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهم

فِي ٱلْحَيَاة الدُّنيا وهُم يَحْسَبون أَنَّهُم يُحسِنُون صُنْعاً ، أولٰئِك الَّذِينَ كَفَروا بآياتِ رَبِّهِم ولِقائِهِ فَحَبِطَت أَعْمَالُهُم)
[الكهف : ١٠٣ ، ١٠٥] .

٤ – وإنه من المحال عليه أن يقبل دين الحق ويتبع أحكامه . فكلما عرضت عليه الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ودعي إلى التزامها في حياته رفضها رفضاً، وكلما عرضت عليه العقائد الباطلة والأعمال الخاطئة مال إليها ميلا وافتتن بها افتتاناً، لأنه مامن طريق من طرق الدين إلا هو متطلب للتضحية بكثير من المنافع والمباهج واللذات في الحياة الدنيا وأصل أصوله التضحية بالمنافع الدنيوية المؤقتة في سبيل المنافع الأخروية الخالدة . ولكن الإنسان بإنكاره الحياة الآخرة لا يحسب المنافع إلا منافع هذه الحياة الدنيا، فلايستعد بحال للتضحية بها ولا يسلك طريقاً من طرق الدين إذا كان يدعوه إلى إيثار منافع الحياة الآخرة عليها. لذا فإن إنكار الحياة الآخرة واتباع دين الحق على طرفي نقيض . وفي ذلك يقول عز من قائل:

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ، وإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤمِنُوا بِهَا وإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا وإِنْ يَرَوا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا . ذٰلِكَ بِأَنَّهُم كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وكَانُوا عَنْهَا غَافِلِين . والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ولِقَاءِ الآخِرَة حَبِطَت أَعْمَالُهُم هَل يُجْزَونَ إِلا مَا كانوا يَعْمَلُون) [الأعراف : ١٤٦ ، ٢٤٧] .

٥ - وإن إنكار الآخرة لا بد أن تنطبع به حياة الإنسان بجملة نواحيها من معنوية وعملية:

(فَالَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) [النحل: ٢٢].

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ) [القصص: ٣٩].

ولا بد أن تفسد معاملاته مع الناس.

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ؟) [المطففين: ١ ، ٥].

ولا بد أن يتحجر قلبه ويضيق نظره فيعرض عن العبادة الالهية ولا يعمل شيئاً إلا رئاء الناس أو ابتغاء منفعة من المنافع المادية العاجلة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ؟ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ولا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُون، الَّذِينَ هُم يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) [الماعون: ١ ، ٧].

وخلاصة القول أن اعتداء الانسان حدود الحق و وقوعه في الآثام والمنكرات والمعاصي نتيجة لازمة لإنكاره اليوم الآخر:

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) [المطففين: ١٢].

وهذه النتائج لخلو ذهن الانسان من الاعتقاد باليوم الآخر أو إنكاره إياها، لايكاد يكابر فيها عاقل، وخاصة اننا لما قدشاهدنا بأم أعيننا ثمرات تلك المدنية التي إنما أقيمت على أساس الغاية المادية

والافتتان بظاهر من الحياة الدنيا وهي خالية خلواً كلياً عن الاعتقاد باليوم الآخر، مابقي لنا مجال لإنكار الحقيقة القائلة بأن الإنسان لا يستطيع أن يميل إلى التدين وعبودية الحق والتزام مكارم الأخلاق إذا كان منكراً للحياة الآخرة .

هذا، وتعال لنريك الآن أن الإسلام عندما يريد إقامة هذه الأمور...وأنه عندما يدعو الانسان إلى أخلاق فاضلة وأعمال صالحة لابد له لالتزامها من التضحية بكثير من المنافع والمباهج واللذات المادية... وانه عندما يعظ الإنسان بعبادة ربه وتزكية نفسه ، مما لايرى نتيجة تترتب عليه في هذه الدنيا بل وكثيراً مايرى آلاماً شديدة ومصائب فادحة تترتب عليه في نفسه وجسده . . . وانه عندما يميّز الحرام من الحلال، والخبيث من الطيب في جملة شؤون الحياة وفي تمتع الإنسان بأسباب الدنيا ووسائلها . . . وانه عندما يدعو الإنسان إلى التضحية بأغراضه الشخصية ورغباته النفسية بل وبماله ونفسه لتحقيق الأغراض الروحية والمعنوية . . . وانه عندما يريد أن يقيد حياة الإنسان الفردية والجماعية بضابطة خلقية قد حددت فيها قيمة معنوية معلومة لكل عمل من الأعمال بصرف النظر عما يترتب عليه من المنافع أو المضار في هذه الحياة الدنيا . . . ، فقل لي بالله هل كان له أن يلقى النجاح في إقامة دين كهذا وشريعة كهذه دون أن يدعو الإنسان إلى الاعتقاد باليوم الآخر ؟ وهل كان يرجى من الإنسان ، مع خلو ذهنه من هذا الاعتقاد، أن يتلقى تعليماً كهذا بالقبول والإذعان؟ والجواب على هذا إن كان بالنفي – وهو بالنفي بدون ما شك – فقد لزم

الاعتراف بأنه لابد لإقامة نظام ديني كهذا وضابطة خلقية كهذه من أن يلقي في روع الإنسان قبل كل شيء آخر الاعتقاد بالحياة الآخرة . وبناء على هذا السبب قد جعل الإسلام هذا الاعتقاد من أركان الإيمان وأكد الدعوة إليه بما لم يؤكد به الدعوة إلى اعتقاد آخر حاشا الإيمان بالله .

وتعال لنريك الآن: على أية صورة قد عرض الإسلام عقيدة اليوم الآخر ؟ وما هي الآثار والنتائج التي تترتب عليها في أخلاق الإنسان وأعماله وسلوكه العام في الحياة ؟

١ ـ إيثار الآخرة على الدنيـــا

إن أول شيء قد عني القرآن عناية خاصة بإرساخه في ذهن الإنسان، هو أن الدنيا إنما هي منزل موقت لإقامته وسكناه، فما الحياة هذه الحياة الدنيا، وإنما ستأتي بعدها حياة أخرى هي خير منها وأبقى ومنافعها أوفر وأعظم من منافعها، ومضارها أشد وآلم من مضارها . وعلى هذا فالذي يغتر بمظاهر هذه الدنيا ويفتتن بمتعها ولذاتها ويسترسل وراء منافعها ومباهجها ويبذل للحصول عليها جهوداً تُضيّع عليه نعيم الحياة الآخرة ولذاتها ومنافعها، فما تجارته هذه إلا تجارة خاسرة . وكذلك أن الذي لا يرى الخسارة والمضرة إلا خسارة هذه الحياة ومضرتها ويبذل لاجتنابها جهوداً يستحق بها الخسارة والمضرة في الحياة الآخرة، فهو في حقيقة أمره يرتكب أعظم حماقة، ولا تجتمع فعلته هذه مع مايقتضيه العقل والعلم والحكمة . وهذا الموضوع قد بينه القرآن وأفاض فيه القول

في ما لا يأتي تحت الحصر والاستقصاء من آياته . راجع على سبيل المثال الآيات التالية :

(وَمَاهٰذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيا إلاَّ لَهْوٌ ولَعِبٌ وإنَّ الدَّارَ الآخِرةَ لَهِيَ الحَيَوانُ) [العنكبوت : ٦٤] .

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ والآخرةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ) [النساء :٧٧] .

(أَرَضِيتُمْ بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا متَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيا في الآخِرَةِ إلاَّ قَلِيلٌ) [التوبة : ٣٨] .

(بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَاةَ الدُّنْيا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقَىٰ) [الأعلى:١٧ـ ١٨]

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُم يَوْمَ القِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، ومَا ٱلْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ) [آل عمران : ١٨٥] .

(واتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) [هود : ١١٦] .

(قُلْ إنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِروا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، أَلاَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخسْرَانُ ٱلمبِينُ) [الزمر : ١٥] .

(فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ الدُّنْيَا ،فإنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ المأوى وأَمَّا مَنْ خافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عن ٱلْهَوى فإنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ المأوى) [النازعات : ٣٧ ، ٤١]

(إعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثمَّ يَكُونُ حُطَاماً وفي الآخرةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ومَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضوَانٌ ، ومَا ٱلْحَيَاةُ الدُّنْيا إلاَّ مَتَاعُ ٱلْغرُورِ) [الحديد : ٢٠] .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وٱلْبَنِينَ وٱلْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وٱلفِضَّةِ وٱلْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ وٱلْحَرْثِ . ذٰلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ورِضْوَانٌ مِنَ اللهِ) [آل عمران : ١٤ ـ ١٥] .

والمقصود من هذا التعليم الذي قد عرضه الإسلام بأبلغ أسلوب بياني لإيثار الآخرة على الدنيا والتضحية بالمنافع العاجلة في الدنيا للحصول على السعادة الأبدية في الآخرة واحتمال المضار والخسائر والمصائب والمحن المؤقتة في الدنيا لاتقاء الخسران الأبدي في الآخرة . . . ان من كان يؤمن بالقرآن ورسالة محمد ﷺ ، عليه أن يؤدي عن طواعية نفسه، لا تحت ضغط أو إكراه، كل فعل قد قرره الله ورسوله وسيلة من وسائل الفلاح والسعادة في الآخرة ويجتنب كل

فعل قد قرره سبباً من أسباب الشقاء والخسران في الآخرة. بصرف النظر عما ان كان في الدنيا نافعاً أو ضاراً .

الحساب والجزاء على الأعمال

والأمر الثاني الذي قد عني القرآن بإرساخه في ذهن الإنسان وإلقائه في روعه، هو أن أي عمل يعمله في حياته الدنيا، ولو بغاية من الإسرار ، هو مسجل عند الله في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وانه سيعرض عليه هذا الكتاب في محكمة الله العادلة يوم القيامـــة حيث ستشهد عليه كل ذرة كان لهـــا نوع من العلاقة بأعماله في حياته الدنيا، حتى إنه ليشهد عليه لسانه وبصره ويداه ورجلاه وسائر أعضاء جسده، ثم ان أعماله هذه ستوضع في ميزان القسط، أعماله الحسنة في كفة وأعماله السـيئة في كفة ، فـإن رجحت الأولى ، رحب بـــه الفلاح والسعادة الأبدية وكانت الجنة هي مأواه، وإن رجحت الأخرى خسر خسراناً مبيناً وكانت دار البوار جهنم هي مأواه . ويبين القرآن مع ذلك أنه لا يحضر كل شخص في تلك المحكمة إلا بمفرده وانه لن ينفعه فيها سبب من الأسباب الدنيوية، لا حسب ولا نسب، ولا خلة ولا شفاعة، ولا مال ولا بنون، ولا قوة ولا جـــــاه.

وهذا الموضوع أيضاً قد جاء بيانه في القرآن بكل شرح وتفصيل بأبلغ أسلوب وأوقعه في القلوب، وها نحن أولاء نسرد في مايلي آيات من القرآن جاء فيها بيان هذا الموضوع ، على سبيل المثال:

أ ـ كيفية عرض الأعمال على الإنسان :

(سَوَاءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ . لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ) [الرعد : ١٠ ـ ١١] .

(وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِهَٰذَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) [الكهف : ٤٩] .

ب ـ شهادة الجلود والجوارح وشهادة الإنسان على نفسه:

(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [النور ٢٤] .

(حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ) [فصلت : ٢٠ ، ٢٢] .

(وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) [الأنعام:١٣٠]

فهؤلاء هم الشهود الذين سيحضر كل إنسان في محكمة الله العادلة . ثم كيف يكون موقفه في تلك المحكمة ؟ يشير إلى ذلك قوله سبحانه وتعالى

(ولَقَدْ جِئتُمونا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ وتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْنَاكُم وراءَ ظُهُورِكُمْ) [الأنعام : ٩٤] .

(وكُلَّ إنسَانٍ ألْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ في عُنُقِهِ ونُخرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً . إقْرَأ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) [الاسراء : ١٣ ـ ١٤] .

ج ـ ولن ينفعه في تلك المحكمة حسبه ولا نسبه :

(لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم يَوْمَ القِيَامةِ) [الممتحنة : ٣] .

ولا شفاعة شافع :

(ماللظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطَاعُ) [غافر : ١٨] .

(يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ) [الشعراء : ٨٨] .

د ـ ستوزن فيها الأعمال ويحاسب عليها الإنسان ولو كانت مثقال ذرة :

(ونَضَعُ الموازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفسٌ شَيْئاً وَإنْ كَانَ مِثقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِها وكَفَى بِنَا حَاسِبِين) [الأنبياء : ٤٧] .

ولا يكون فيها الثواب ولا العقاب إلا على قدر الأعمال

(اليَوْمَ تُجزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ) [الجاثية : ٢٨] .

﴿ولِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام : ١٣٢] .

هذه هي شرطة الآخرة وهذي هي محكمتها ، يريد القرآن أن يلقي هولهما في روع كل إنسان. وما هذه الشُرطَةُ كشرطة الدنيا التي قد يعجزها الإنسان بحيلة من الحيل ، ولا هذه المحكمة كمحكمة الدنيا التي قد يطلق فيها سراح الجاني لعدم توفر الشهود أو لتوفر الشهود الكاذبين أو لتأثيرات باطلة أخرى ... وإنما هي شرطة تراقب الإنسان في كل حال من أحواله ، وإنما هي محكمة لا يستطيع الجاني فيها أن يفلت من نظر شهودها ولو بأية حيلة من الحيل وعندها كتاب سجل فيه كل عمل من أعماله بل وكل هاجسة من هواجسه، وأحكامها قائمة على العدل والقسط فلا إمكان لأن يسلم فيها المسيء من عقابه أو المحسن من ثوابه .

فائدة الاعتقاد باليوم الآخر

وهكذا قد جعل الإسلام من الاعتقاد باليوم الآخر سنداً قوياً تستند إليه ضابطته المعنوية ونظامه الشرعي . ففيه من جانب الترغيب العقلي في أعمال الخير والصلاح وفيه من جانب آخر الترهيب من العقوبة اليقينية على أعمال الشر والفساد وان ضابطته أو نظامه هذا لا يحتاج في بقائه وقيامه إلى قوة مادية ولا إلى سلطة حكومية، وإنما هو يضع في نفس كل إنسان بواسطة الإيمان باليوم الآخر ضميراً حياً يرغبه، بدون ما طمع أو خوف خارجي ، في الفضائل والمعروفات التي قد قررها الإسلام فضائل ومعروفات على اعتبار نتائجها الحقيقية النهائية، ويحذره من الرذائل والمنكرات

التي قد قررها الإسلام رذائل ومنكرات على اعتبار نتائجها النهائية

انظر في القرآن، تجد أنه كثيراً ماقد استعان بهذه العقيدة للدعوة إلى فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق، فقد قيل مثلاً (اتّقُوا اللّهَ) ثم قيل بعده على الفور :

(واعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ) [البقرة : ٢٢٣]

وان القرآن ليحرض المسلمين على القتال وبذل المهج في سبيل الله وذلك بأن يقنعهم أنهم إذا قتلوا لا يموتون وإنما ينالون حياة خالدة سرمدية .

(وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سَبِيلِ اللهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ولٰكِنْ لا تَشْعُرُونَ) [البقرة . ١٥٤]

ويلقنهم الصبر على المصائب والمكاره وذلك بأن يبين لهم أن الصابرين عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وينشئهم على عاطفة الشجاعة والبسالة بأن يتلو عليهم نبأ بني إسرائيل من بعد موسى :

(قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ) [البقرة :٢٤٩] .

وينشئهم على تحمل المحن والشدائد ومجابهة الأهوال والمخاوف مهما كانت بالغة من الفداحة والجسامة بأن يقول

(قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا) [التوبة : ٨١]

ويحثهم على الإنفاق في سبل الخير بأن يقول لهم :

(ومَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُون) [البقرة ٢٧٢]

وينهاهم عن الشح والبخل بأن يلقي في روعهم

(ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُم سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ) [آل عمران : ١٨٠]

ويدعوهم إلى رفع أيديهم عما في أكل الربا من المنافع العاجلة بأن يقول لهم :

(واتَّقُوا يَوْماً تُرجَعُونَ فِيهِ إلىٰ اللهِ) [البقرة: ٢٨١] .

ويلقنهم الاستغناء عن متاع الدنيا وعدم الحسد على المترفين من الكفار ماهم فيه من نعم الحياة الدنيا ومباهجها بأن يقول لهم :

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَروا في ٱلْبِلاد . متاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المِهادُ . لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأَنْهارُ خَالِدِينَ فِيها نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ ومَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَار) [آل عمران : ١٩٧] .

أهمية الإيمان في بناء الحضارة الإسلامية

نظرة إجمالية في أركان الإيمان

قـد تكلمنا في الصفحات الماضية على أركان الإيمان الخمسة في الإسلام وأوضحنا عن كل واحد منها عقيدة الإسلام التفصيلية ومرتبته العقلية في ميزان النقد العلمي الدقيق وتأثيره في السيرة

الإنسانية ونصيبه في تأسيس الحضارة الإسلامية وتشكيلها . وتعال لنلقي الآن نظرة إجمالية على هذه الأركان من حيث مجموعها ونتعرف على الحضارة التي تشكلها هذه الأركان بالتعامل والتساند في ما بينها .

قد بينا في الفصول الأولى من هذا الكتاب أن الحجر الأساسي الذي يقوم عليه بناء الحضارة الإسلامية هو الفكرة القائلة بأن ليس الإنسان في هذه الكرة الأرضية مثل سائر موجوداتها وكائناتها وإنما قد بعث فيها خليفة من الله رب العالمين، وأن الغاية التي قد تقررت لحياته — كنتيجة منطقية لهذه الفكرة — هي أن ينال مرضاة ربه، وأصبح من اللازم لتحقيق هذه الغاية :

١ — أن ينال معرفة صحيحة بالله تبارك وتعالى .

٢ — وأن لا يرى في أحد غير الله آمراً ولا ناهياً ولا حاكماً ولا مطاعاً على الإطلاق ويجعل حريته الذاتية تابعة لأحكامه تعالى .

٣ — وأن يتعرف على الطرق والوسائل التي يستطيع بها أن ينال مرضاة الله، ثم لا يقضي كل حياته إلا تبعاً لها وبالتعرف عليها .

٤ — وأن يتعرف على ثمرات مرضاة الله وعواقب عدم مرضاته حتى لا يغتر بالنتائج الناقصة الظاهرة لأعماله وأقواله في هذه الحياة الدنيا .

فهذه الحاجات الأربع هي التي تقتضيها أركان الإيمان الخمسة المذكورة .

فما كل ماقيل في القرآن عن ذات الله وصفاته، إلا لينال به

الإنسان معرفة صحيحة بـ (الله) الذي قد بعثه خليفة منه في هذه الأرض، والذي إن نيل مرضاته هو الغاية المقصودة من حياته .

وما كل ماقيل في القرآن عن وجود الملائكة ووظائفهم إلا لأن لا يرى الإنسان في قوة من القوى العاملة في هذا الكون ذات ألوهية وربوبية وحاكمية أو مشاركة الله تعالى في ألوهيته و ربوبيته وحاكميته، فمعنى الإيمان بالله أن ألوهية الله وربوبيته وحاكميته كما هي نافذة في نظام الكون كله وفي الشعبة التكوينية غير الاختيارية لحياة الإنسان نفسه، كذلك على الإنسان أن يقر بأن الله هو الإله وانه هو الرب وانه هو الحاكم الوحيد في الشعبة التشريعيةالاختيارية لحياته وأنه تبارك وتعالى هو واضع القانون لجملة شؤون حياته وماهو – نفسه – إلا خاضع لهذ االقانون، وأن عليه – أي على الإنسان – أن يحد جملة صلاحياته وحرياته بالحدود التي قد وضعها لها هذا القانون .

فالإيمان على هذا الوجه هو الذي يحوز في نفسه القوة المعدة للانسان لتفويض أمره إلى الله طوعاً ورغبة، وبه ينشأ في داخل المؤمن ضمير من نوع خاص وسيرة ذات طابع خاص، لا بد له منهما في اتباعه القانون والتزامه الحدود طوعاً لا كرهاً .

أما الحاجة الثالثة فيقضيها الإيمان بالرسول والكتاب، فبهيعرف الإنسان على وجه شامل القوانين والمناهج والطرق التي قد قررها الله سبحانه وتعالى لحياته وبــه يعرف الحدود والقيود التي قــد حد بها الله تبارك وتعالى حرياته وصلاحياته ، فالاعتقاد بأن تعليم الرسول هو تعليم الله وان الكتاب الذي جاء به هو كتاب الله . . هو

الإيمان بالرسول وهو الإيمان بالكتاب . وبهذا الإيمان يتأهل الإنسان لأن يلتزم – على أكمل يقين وأمثل إذعان – القوانين والمناهج والحدود التي قد دعاه الله إليها بواسطة رسوله وبواسطة كتابه .

أما الحاجة الرابعة – والأخيرة – فتقضيها عقيدة الآخرة ، أي العلم بالمعاد . فهي تشحذ نظر الإنسان شحذاً ينظر بـــه إلى عالم آخر وراء ظاهر من الحياة الدنيا ويعرف أن ليس النعيم أو البؤس ، ولا النفع أو الضرر في هذه الحياة الدنيا هو المقياس لمرضاة الله أو سخطه وأن الثواب أو العقاب على الأعمال من جانب الله لا ينتهي في هذه الدنيا فحسب وإنما سيأتي بعد هذه الحياة الدنيا عالم آخر سيحكم فيه الله بين عباده ويجزيهم على أعمالهم جزاء وفاقاً، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأن ليست العبرة إلا بجزاء الله في ذلك العالم وأن ليس له أن يفوز بالنجاة والسعادة في ذلك العالم إلا بأن يتبع قانون الله ويلتزم ما وضع من الحدود لحياته في هذه الحياة الدنيا . والجزم والإيقان بهذه العقيدة هو المعبر عنه بالإيمان باليوم الآخر ، وهو القوة الثانية ، بعد الإيمان بالله ، تحرض الإنسان على اتباع قانون الإسلام والتزام حدوده ، وله يد وأي يد في اعداد الإنسان إعداداً فكرياً لقبول الحضارة الإسلامية واتباعها .

والذي قد اتضح بهذا البيان أن أركان الإيمان الخمسة في الإسلام لا تؤسس الحضارة ولا تشكلها إلا على عين الخطوط التي كانت قد رسمتها تلك الفكرة الخاصة لمنزلة الإنسان في هـــذه الدنيا وتلك الغاية الخاصة لحياته فيها ، كمـــا أنه قد اتضح بهذا البيان أن العقيدة الأساسية التي تحتاج إليها مثل هـــذه الحضارة

عقلاً، لا يمكن أن تشتمل إلا على هذه الأمور الخمسة ومن المحال أن تصلح أية عقيدة سواها لتكون اساساً صحيحاً لمثل هذه الحضارة إذ أن أية عقيدة أخرى لا تتفق بحال مع تلك الفكرة الخاصة ومع تلك الغاية الخاصة .

الرسم التخطيطي للحضارة الإسلامية

وإنك إذا ماألقيت نظرة شاملة على ماذكرنا فوقاً من التفاصيل لأمور الإيمان في الإسلام، سهل عليك أن تعرف الرسم التخطيطي للحضارة القائمة على أساس أمور الإيمان هذه .

ولهذا الرسم التخطيطي مايأتي من المزايا البارزة:

١ ـ إن هذه الحضارة في نظامها كدولة قائمة في الأرض . فما الله فيها بمنزلة «معبود» بمعناه الديني العام فحسب ، بل هو فيها بمنزلة حاكم مطلق بمعناه الدنيوي العام أيضاً .

وإذا كانت هذه الحضارة دولة، فالله هو الملك في هذه الدولة ، والرسول هو مندوبه والقرآن هو دستوره وكل شخص يقر له بسيادته وحاكميته ويطيع مندوبه ويتبع دستوره ، هو مواطن لدولته . ومعنى دخول المرء في الإسلام أن يتبع القوانين والشرائع التي قد أرسلها إليه ذلك الملك أو الحاكم المقتدر الأعلى بواسطة مندوبه وبواسطة دستوره بدون مااعتراض ولا تردد ، سواء أفهم العلة والمصلحة فيها أو لم يفهمها . أما الذي لا يقر لله بحاكميته المطلقة وبأن قانونه فوق كل رأي من آراء الأشخاص أو الجماعات ويأبى

أن يتجرد من حق ذاته في الإذعان أو عدم الإذعان لأحكامه وأوامره، فلا مجال له في دولته أبداً .

٢ – ولأن الذي تقصده هذه الحضارة في حقيقة الأمر هو أن تعد الإنسان للسعادة الأخروية أي لنيل مرضاة الله في قضائه بين عباده يوم القيامة، ولأن حصول هذه السعادة عندها موقوف على عمل الإنسان الصالحات في حياته الحاضرة ولأن الإنسان لا يقدر أن يعرف عملاً صالحاً من عمل سيء باعتبار نتائجه الحقيقة النهائية وإنما الله وحده هو الذي يعرف ذلك . . . لأجل كل هذا فإن هذه الحضارة تطالب الإنسان بأن لا يسلك في جملة شؤون حياته إلا صراط الله المستقيم ويقيد حريته الذاتية بقيود شريعته . فهكذا ان هذه الحضارة جامعة بين الدين والدنيا ولا يجوز أن يعبر عنها بكلمة «الدين» كما يفهم من معناه الضيق المحدود عامة ، وإنما هي نظام متكامل يشمل كل ما للإنسان من أفكار وآراء وأعمال وأخلاق في حياته الفردية أو العائلية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية، وإنما مجموعة المناهج والقوانين التي قررها الله سبحانه وتعالى لكل هذه الشؤون والشعب المختلفة لحياة الإنسان . . . هي المعبر عنها بكلمة «دين الإسلام» أو «الحضارة الإسلامية» .

٣ – ماهذه الحضارة بحضارة قومية أو وطنية أو نسلية، وإنما هي حضارة إنسانية عالمية بأصح وأكمل معنى الكلمة. تخاطب الإنسان من حيث هو إنسان وتقبل في دائرتها كل من آمن بالله و ملائكته وكتبه و رسله واليوم الآخر . وهكذا فإن هذه الحضارة قد شكلت

قومية يستطيع أن يدخل فيها كل إنسان من حيث هو إنسان بدون مانظر إلى لونه أو نسله أو لغته أو وطنه ، وتصلح لأن تنتشر على وجه الكرة الأرضية من أقصاها إلى أقصاها وتخرط أبناء البشر كلهم أجمعين في سلك ملة واحدة وتجعلهم متبعين لحضارة واحدة . ولكن ليست غايتها الحقيقية بإقامة هذه الأخوة الإنسانية العالمية أن تزيد أتباعها عدداً ، وإنما هي أن تشرك أفراد النوع البشري كلهم في الاستفادة من ذلك العلم الصحيح والعمل الصالح الذي قد أرسله الله ربهم جميعاً لصالحهم أجمعين ، لهذا فإنها باشتراط الإيمان للدخول في هذه الأخوة الإنسانية العالمية تحب أن لا تقتني حولها وتقبل في دائرتها إلا الذين هم مستعدون لتفويض أمرهم إلى الله والتنازل عن حريتهم الذاتية إزاء حاكميته المطلقة والتزام الحدود والقوانين التي وضعها لحياتهم بواسطة رسوله وكتابه ، لأن أمثال هؤلاء هم الذين يرجى منهم أن يتوافقوا مع هذه الحضارة وبهم وحدهم من الممكن أن يقوم على وجه الأرض نظام للحياة صالح قوي . وما دخول المنكرين والمنافقين وضعاف الإيمان في هذا النظام سبباً لقوته وتماسكه وإنما هو سبب لضعفه وانهياره .

٤ — ومن المزايا البارزة لهذه الحضارة — مع عالميتها وآفاقيتها — ضابطتها القوية أو نظامها المحكم الذي تجعل به أتباعها مقيدين بدستورها الأساسي من الوجهة الفردية والاجتماعية . ذلك لأنها تعنى بجعلهم مستعدين لاتباع قوانينها وامتثال أوامرها والتزام حدودها قبل أن تضع لهم هذه القوانين وتصدر إليهم هذه الأوامر وتقرر لهم هذه الحدود . . . إنها قبل كل شيء تجعل الإنسان مقراً

بحاكمية الله ثم تجعله موقناً بأن الأحكام والتعاليم التي قد بلغها الرسول والكتاب هي أحكام الله وتعاليمه وان طاعتها عين طاعة الله ، ثم تجعل في نفسه شرطة قوية تحرضه في كل حين من أحيانه وفي كل حال من أحواله على طاعة هذه الأحكام والتعاليم وتؤنبه وتنذره بعذاب يوم عظيم إذا ماخالفها . فهكذا انها بعد ما تمكن هذه القوة المنفذة من نفوس أتباعها وضمائرهم وتنشئهم على الاستعداد لاتباع القوانين والتزام الحدود والتخلق بالأخلاق الجميلة عن طواعية نفوسهم، تعرض عليهم قوانينها وحدودها وتقرر المناهج لقضاء حياتهم وتطالبهم بأداء أجسم مايكون من التضحيات لمصالحها، وهذا أسلوب لا يساويه أسلوب آخر في الحكمة والموعظة الحسنة وقد حصل به للحضارة الإسلامية نفوذ لم يحصل لأية حضارة أخرى في العالم .

٥ — ومن وجهة النظر الدنيوية تريد هذه الحضارة أن تقيم في الأرض نظاماً اجتماعياً صحيحاً أو قل مجتمعاً صالحاً طاهراً ، ولكن من المحال أن يوجد نظام اجتماعي أو مجتمع كهذا مالم يكن أفراده متصفين في ذات أنفسهم بالأخلاق الفاضلة والأوصاف الجميلة ، ومن اللازم لهذا الغرض أن تزكي نفوسهم حتى لا تعود مأوى للأفكار الواهية المشتتة وأن ترسخ في أذهانهم عقلية راشدة طاهرة حتى ينشأوا على سيرة محكمة تصدر عنها الأعمال الصالحة بطبيعة حالها، وهذه القاعدة قد ولاها الإسلام اهتماماً كبيراً في تأسيس حضارته، فهو لتربية الأفراد يرسخ الايمان في أذهانهم قبل كل شيء آخر لأن الإيمان هو الوسيلة الوحيدة لتنشئة الأفراد على

سيرة محكمة من الدرجة الأولى ، والإيمان هو الذي يستعين به الإسلام ليطبع الأفراد على الصدق والإخلاص والأمانة والعفاف والطهارة ومحاسبة النفس وضبط نوازعها وإيثار الحق وسعة النظر والقلب وعلو الهمة والكرم والسخاء والفدائية والتضحية والتواضع والخضوع والشعور بالواجب والصبر والاستقامة والشجاعة والبسالة والقناعة والاستغناء وعاطفة السمع والطاعة واتباع القانون والنظام ويؤهلهم لأن يبرز بهم إلى حيز الوجود أحسن مجتمع وأطهره وأمثله .

٦ — وأمور الإيمان التي تقوم عليها هذه الحضارة ، فيها من جانب جميع القوى التي تحلي الإنسان بالأخلاق الجميلة والملكات الحميدة وتعمل على تنميتها والمحافظة عليها ، وفيها من جانب آخر جميع القوى التي تحرضه على الرقي والتقدم في الدنيا وتؤهله لأن يستغل أسباب الدنيا ووسائلها ويستغل ماقد أنعم الله عليه من المؤهلات والكفاءات على أحسن طريق وأعدله . وهي — إلى هذا — تنشيء فيه جميع الأوصاف والأخلاق الفاضلة التي لا بد منها لإحراز الرقي والتقدم الحقيقي في الدنيا ، وفيها أكمل قدرة على أن تنظم قوى الإنسان العملية وتحركها بنظام ، وفيها مع ذلك أكمل قدرة على أن لا تدع هذه الحركة تتعدى حدودها المشروعة وتنحرف عن الطرق والمناهج التي إن الانحراف عنهـــا يورد الإنسان موارد الهلاك والتبار . كما أن أركان الإيمان هذه تحوز في نفسها — مع شيء زائد — كل تلك المحاسن والخصائص التي توجد في العقائد الدينية والنظريات الدنيوية الأخرى مستقلة بعضها عن بعض ، وهي

منزهة عن كل مايوجد في هذه العقائد والنظريات من المساوىء والمفاسد .

أهمية الإيمان في بناء الحضارة الإسلامية

هذه صورة مجملة للحضارة التي قد أقامها الإسلام . ونحن إذا فرضنا هذه الحضارة – على أسلوب تمثيلي – عمارة حفرت لاستحكامها قاعدة عميقة جداً ثم هيىء أقوى وأمتن مايكون من الآجرّ ثم ربط بين هذه الآجر بأجود مايكون من المادة، ثم بنيت العمارة بحيث ارتفعت إلى السماء في العلو واتسعت إلى الآفاق في السعة، ولكن على الرغم من هذه السعة والعلو ما وقع في أركانها شيء من التزلزل وظلت جدرانها وأعمدتها قائمة بقوة كقوة الحجارة الراسخة في الأرض . وقد بنيت أبواب هذه العمارة ونوافذها بأسلوب بديع حيث يدخلها النور الخارجي والهواء الصافي بكل وفرة، ولكن لا يدخلها الغبار والتبن والعاصف والمطر . وما كل هذه المحاسن في هذه العمارة إلا بفضل شيء واحد هو الإيمان . فهو الذي يرفع قواعدها وهو الذي يميز العناصر الطيبة الصالحة من العناصر الرديئة المهملة، وهو الذي يشوي خام المواد ويحولها إلى الآجر المتينة وهو الذي يربط بين هذه الآجر ويبني بها بنيانا مرصوصاً، وهو الذي تتوقف عليه هذه العمارة في سعتها وارتفاعها واستحكامها، وهو الذي يوسّعها ويرفعها ويحكمها في آن واحد ويصونها من المفاسد الخارجية ويسمح للأشياء الطيبة النافعة بالدخول فيها . فالإيمان هو حياة هذه العمارة وروحها ولولاه لما كان لهذه

العمارة وجود فضلاً عن أن تتنعم بالقيام والبقاء والتماسك . وهو إن كان ضعيفاً ، فمعناه أن قواعد هذه العمارة متداعية وآجرّها متخلخلة فاسدة ، وأركانها متزلزلة وأن لا تماسك بين أجزائها ولا صلاح لها للإتساع والارتفاع ولاقوة فيها لمنع المفاسد الخارجية وحفظ نظافتها وطهارتها .

وبالجملة فإن عدم الإيمان هو عدم الإسلام وأن ضعفه هو ضعفه وقوته هي قوته . وفوق هذا فلأن الإسلام ما هو بمجرد ديانة (مجموعة للطقوس والصلوات) وإنما هو في الوقت نفسه نظام متكامل للأخلاق والمدنية والاجتماع والاقتصاد والسياسة، فليس الإيمان في هذا النظام بمنزلة عقيدة دينية فحسب، بل هو الذي تتوقف عليه أخلاق الأفراد وأعمالهم وسيرتهم في الحياة، وهو الذي يضمن لهم بصحة جملة شؤون حياتهم وهو الذي يربط بينهم ويخرجهم بصورة أمة واحدة ، وهو الذي يحافظ على قوميتهم وحضارتهم ، وهو الماء لحياتهم المدنية والاجتماعية والسياسية، وبغيره لا يستطيع الإسلام أن يظل قائماً كديانة من الديانات فضلاً عن أن يظل قائماً كنظام متكامل للأخلاق والمدنية والاجتماع والاقتصاد والسياسة، وهو إذا كان ضعيفاً، فما ذلك بضعف عقيدة لاهوتية فحسب، وإنما معناه أن المسلمين قد فسدت أخلاقهم وتفرقت كلمتهم وانتشرت عقد نظامهم للاجتماع والمدنية وانفصمت من بينهم آصرة القومية ولم يعد بإمكانهم أن يعيشوا كأمة مستقلة عزيزة الجانب مرهوبة المقام . ومن ثم فإن الإيمان هو الذي قد جعل عليه مدار الإسلام والكفر في الإسلام وهو

الشرط الأول لدخول الإنسان في نظامه . فهو الذي يُعترَض على الإنسان قبل غيره، فإن قبله، دخل في الأمة الإسلامية واشترك مع المسلمين في حياتهم الاجتماعية والمدنية والسياسية كأي فرد من أفرادهم وصار له مالهم وعليه ما عليهم وتعلق به كل ما لهم من الحدود والأحكام والقوانين . وأما إذا لم يقبله، فإنه لايستطيع أن يدخل في دائرة الإسلام بأي وجه من الوجوه، فلا يطبّق عليه حكم من أحكام الإسلام ولا قانون من قوانينه ولن يعدّ فرداً من أفراد الجماعة الإسلامية أبداً لأنه من المحال القطعي أن يجاري هذا النظام ويلتزم ما له من الحدود والقوانين .

خطر النفـــــاق

أما الذين يرفضون دعوة الإيمان علانية، فأمرهم واضح لا غبار عليه إذ أن حدود الكفر والإيمان بينهم وبين المسلمين من الوضوح والجلاء بحيث لا يستطيعون أن يحدثوا خللاً في دائرة الإسلام بدخولهم فيها . وأما الذين ليسوا بمؤمنين ، وإنما يلجون في الجماعة الإسلامية بإظهار الإيمان بألسنتهم والذين في قلوبهم مرض الشك والذين هم ضعاف الإيمان ، فإن وجودهم خطر داهم على نظام الإسلام ولا شك، لأنهم يدخلون في دائرة الإسلام ولكن مع ذلك لا يتخلقون بأخلاق الإسلام ولا يتبعون قوانينه ولا يلتزمون حدوده وهم بأخلاقهم الفاسدة وأعمالهم السيئة يفسدون على المسلمين مدنيتهم وحضارتهم وبزيغ قلوبهم يزلزلون قواعد قومية المسلمين وحرمتهم السياسية ويساهمون ويساعدون كل من يقوم بإثارة

الفتنة في جماعتهم من الداخل أو الخارج . فأمثال هؤلاء هم الذين قد سماهم القرآن «المنافقين» ونبه المسلمين على كل خطر قـــد يهددون به سلامة حياتهم الاجتماعية بدخولهم في جماعتهم .

فمن صفاتهم أنهم يدّعون الإيمان بألسنتهم ولكن ليسوا بمؤمنين حقيقة :

(وَمِنَ الناسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّـا بِاللهِ وبِاليومِ الاخِرِ وَماهُمْ بِمؤمِنينَ) [البقرة : ٨] .

(وَإذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنوا قالُوا آمَنَّا وإذا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِم – رؤوسهم – قَالُوا إنَّا مَعَكُم) [البقرة : ١٤] .

ومن صفاتهم أنهم يستهزؤون بآيات الله ويشككون الناس فيها :

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ في الْكِتَابِ أَنْ إذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا ويُستَهزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتى يَخُوضُوا في حَديثٍ غَيرِهِ) [النساء : ١٤٠] .

ومن صفاتهم أنهم يتلكؤون عن أداء الواجبات الدينية وان أدّوها أحياناً فإنما يؤدونها رِئاء الناس وإلا فإن قلوبهم منحرفة عن طاعة أحكام الله حقيقة :

(وإذَا قَامُوا إلى الصَّلاةِ قامُوا كُسَالى يُرَاؤُون النَّاس ولا يَذْكُرُونَ اللهَ إلا قَليلا ، مُذَبذَبينَ بَيْنَ ذٰلِكَ لاَ إلىٰ هٰؤلاءِ ولا إلى هٰؤلاء) [النساء : ١٤٣] .

(وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إلاَّ وهُمْ كُسَالى ولا يُنْفِقُونَ إلاَّ وهُمْ كَارِهُون) [التوبة : ٥٤] .

(وَمِنَ الأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ مايُنْفِقُ مَغْرَماً) [التوبة : ٩٨] .

ومن صفاتهم أنهم يدعون الإسلام ولكن لا يتبعون قوانينه وإنما يتبعون في شؤون حياتهم قوانين الكفار :

(أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنوا بِما أُنْزِلَ إلَيْكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَموا إلى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ) [النساء : ٦٠] .

ومن صفاتهم أن أعمالهم قبيحة ومع ذلك يحاولون أن يفسدوا على المسلمين عقائدهم وأعمالهم :

(يأْمُرُونَ بِالمُنْكَرِ وَيَنهَوْنَ عَنِ المَعْروفِ ويَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ . نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ) [التوبة : ٦٧] .

(ودُّوا لَو تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَروا فَتَكُونونَ سَواءً) [النساء :٨٩]

ومن صفاتهم أنهم مع المسلمين في الغنم وليسوا معهم في الغرم :

(ومِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ في الصَّدَقاتِ، فَإنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إذا هُمْ يَسْخَطُونَ) [التوبة : ٥٨] .

ومن صفاتهم أنهم يتولون عن القتال مع المسلمين إذا مانزلت بهم نازلة، وذلك أنهم لا يحبون الإسلام حتى يضحوا بشيء في سبيله ولا يعتقدون أجراً على تضحية في سبيل الإسلام ولا يوقنون بصدق رسالة الإسلام حتى يستعدوا للتضحية بنفوسهم في سبيله

فهم لكل ذلك يبذلون الوسع للتخلف عن الحرب مع المسلمين وان شاركوهم فيها فبقلوب ملؤها الكراهة والخوف والهلع والغدر جميعاً، فهم بدل أن يسببوا القوة والمنعة للمسلمين إنما يسببون لهم الضعف والوهن . وكيفيتهم هذه قد جاء بيانها بكل بسط وتفصيل في سورة آل عمران، وسورة النساء، وسورة التوبة، وسورة الأحزاب .

وأخطر صفاتهم أنهم حين يرون المسلمين قد نزلت بهم نازلة يمالؤون الكفار ويكونون معهم ويتجسسون لهم ويوالونهم ويفرحون بما قد أصاب المسلمين . . يغدرون بأمتهم لينالوا الجاه والأموال والمناصب من الكفار ، ويكونون في طليعة كل من يثيرون الفتن والاضطرابات ضد الإسلام والمسلمين ويحيكون الدسائس لإلقاء بذور الشقاق والفرقة في صفوف المسلمين . وهـــذه الصفات أيضاً قد جاء بيانها بكل تفصيل في آل عمران والنساء والتوبة والأحزاب والمنافقون .

ولكل هذا دلالة واضحة على أن الإيمان الصحيح الخالص لاغنى عنه لنظام الإسلام في قيامه وبقائه واستحكامه، لأن ضعف الإيمان يجعل هذا النظام نخراً من أصله إلى آخر فرع من فروعه ولا يسلم من آثاره الخطيرة لا الأخلاق ولا الاجتماع ولا المدنية ولا الحضارة ولا السياسة ولا أي شيء سواها .

وآخر دعوانـــــا أن الحمد لله رب العـــــالمين .

فهرس

الباب الأول

الباب الثاني

الباب الثالث

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

هذا الكتاب

- يقول العلامة محمد المبارك (رحمه الله) فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه القيم (نظام الاسلام : العقيدة والعبادة) ص٤ :

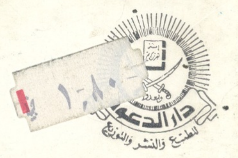
.. أدرك المفكرون الاسلاميون فى العصر الحديث منزلة العقيدة وموقعها من بناء الاسلام ، فقد قدم الأستاذ أبو الأعلى المودودى أبحاثا أصيلة عميقة فى الموضوع ، بعضها متفرق فى رسائل خاصة وفى بعض كتبه ، ثم رأيت أنه جمعها فى كتاب واحد بعنوان (الحضارة الاسلامية : أسسها ومبادئها)، وكثيرون لم ينتبهوا الى أن هذا الكتاب يبحث فى العقيدة الاسلامية كما وقع لى شخصيا اذ كنت أظن أنه يعالج موضوعات أخرى حتى أمعنت النظر فى موضوعاته ، وهو من الكتب الجيدة ...

- وحرصا منا على ابراز حقيقة هذا الكتاب وتوجيه الأنظار اليه ، فقد رأينا اجراء بعض التصرف على عنوانه الأصلى لكى يجد طريقه الى القاعدة العريضة للقراء ويعم به النفع ..

والله تعالى من وراء القصد

الناشر

توزيع :



١ شارع منشا (محرم بك)
الاسكندرية ت (٢١٧٨٨)